DEREK PRINCE

الأمان المطلق

« الملجأ وسط الأوقات الصعبة »

ULTIMATE SECURITY

ديريك برنس

الأمان المطلق

« الملجأ وسط الأوقات الصعبة »

ULTIMATE SECURITY

ديريك برنس

فهرس المحتويات

المقدمة: الأمان مطلب أساسي للبشرية	٥
١. المصدر الحقيقي	١١
٢. مواجهة اختياراتنا	١٥
٣. صخر الدهور الأبدي	٢١
٤. "في البدء خلق الله..."	٢٧
٥. الله صاحب اليد العليا	٣٥
٦. المراحل السبع في خطة الله	٤٣
٧. المرحلة الأولى: الله عَرفَنَا	٥١
٨. المرحلة الثانية: الله اختارنا	٥٩
٩. المرحلة الثالثة: الله عيَّنَنَا	٧١
١٠. المرحلة الرابعة: الله دعانا	٧٩
١١. المرحلة الخامسة: الله خلَّصَنا	٨٩
١٢. المرحلة السادسة: الله برَّرَنا	٩٧

١٣. المرحلة السابعة: الله مجَّدَنا	١٠٥
١٤. الرجاء الأبدي	١١٣
١٥. الرجاء، الملجأ والمرساة	١١٩
١٦. ستر العلي	١٢٥
١٧. الباب المؤدي إلى ستر العلي	١٣١
١٨. كيف نتحصَّن ضد الخوف والقلق	١٣٧
١٩. كيف نتحصن ضد الإحباط والاكتئاب	١٤٥
٢٠. كيف نتحصن ضد الانتقادات وتشويه الحقائق	١٥٥
٢١. الأمان المادي والمالي	١٦٣
٢٢. التأمين الاجتماعي الإلهي	١٧١
٢٣. الأمان بعمل مشيئة الله	١٧٩
٢٤. كيف تتحلَّى "بقوةٍ لا تُقهَر"	١٨٧
٢٥. الأمان في الشدائد والمِحَن	١٩٥
نبذة عن الكاتب	٢٠٣

المقدمة

الأمان مطلبٌ أساسيٌّ للبشرية

كيف يمكنني أن أجدَ الأمان؟ يسأل كثيرون أنفسَهم هذا السؤال بغضِّ النظرِ عن جنسيَّاتهم أو ثقافاتهم أو أوضاعِهم الاجتماعيَّةِ والاقتصاديَّةِ. وقد تختلف اللغةُ التي يستخدمونَها للتعبيرِ عن هذا السؤالِ، لكن يظلُّ إيجادُ الأمانِ موضوعَ تساؤلِ الجميعِ. إن الشعورَ بالأمان موضوعُ اهتمامِنا جميعًا على حدٍّ سواء، وهو مطلبٌ عالميٌّ. في الواقع يعملُ جانبٌ كبيرٌ من الأنشطةِ البشريَّةِ على تحقيقِ هذا الهدفِ.

وكالاتُ الأمنِ

واحدةٌ من الطرقِ التي من خلالها يقدِّرُ الناسُ أهميَّةَ أمرٍ ما، هو قياسُ مدى استعدادِهم للإنفاقِ عليهِ. في الثقافةِ المعاصرةِ، يكرِّس عددٌ كبيرٌ من الوكالاتِ والصناعاتِ والمؤسَّساتِ مواردَهم لتوفيرِ الأمنِ الذي يتطلبُ إنفاقَ مليارات الدولاراتِ سنويًا.

دعونا نفكرُ في بعضِ الوكالاتِ والمؤسَّسات؛ أولًا، هناك

شركاتُ تأمينٍ، وجميعُها تقدم مهمةً عظيمةً لكنَّها محدودةُ النطاقِ. يمكنكَ أنْ تطلبَ وثيقةَ تأمينٍ ضدّ الحوادثِ، لكنْ لا توجدُ وسيلةٌ لضمانِ عدمِ وقوعِ الحادثِ. ويمكنُكَ تأمينُ بيتِكَ أو مقرِّ عملِكَ ضدَّ السطوِ والحريقِ، لكنْ لا يمكنُك مطلقًا أن تنعمَ بأمانٍ كاملٍ تجاهَ عدمِ اندلاعِ حريقٍ أو حدوثِ سرقةٍ. لذلك قد تكفلُ شركاتُ التأمينِ قدرًا من الحمايةِ ضدَّ بعضِ الظروفِ المعاكسةِ، لكنْ تظلُّ بعضُ المواقفِ الأخرى خارجَ دائرةِ سيطرتِها.

كما توجدُ وكالاتُ أمنٍ عامةٌ وخاصةٌ. وتشمل قواتُ الأمنِ العامِّ ضباطَ إنفاذِ القانونِ على المستوَيَيْن المحليِّ والحكوميِّ. وكما يعلمُ الجميعُ، نشأتْ صناعةٌ جديدةٌ بالكاملِ لتوفيرِ الأمنِ في المطاراتِ. وتوجدُ أيضًا أعدادٌ كبيرةٌ من وكالاتِ الأمنِ الخاصةِ التي تتضاعفُ أعدادُها سنويًا. لكن على الرغمِ من إتقانِ الكثيرِ من تلك الوكالاتِ لعملِها، فإنَّ الحقيقةَ المُرَّةَ تكمنُ في تزايدِ جرائمِ العنفِ وأعمالِ الإرهابِ تزايدًا كبيرًا. هذه الحقيقةُ ليست تقليلًا من شأنِ تلك الوكالاتِ، إنما هي تأكيدٌ على محدوديةِ تحقيقِها للأمنِ.

قوَّاتُ الأمنِ

تمثـلُ القـواتُ المسـلحةُ -مثـل قـواتِ الجيـشِ والقـواتِ البحريـةِ والقـواتِ الجويـةِ- نـوعًا آخـرَ مـن أنـواعِ الأمـنِ في عالمِنـا اليـومَ، ويزعـمُ كلُّ بـلدٍ أنْ تظـلَّ قواتُهـا المسـلحةُ تخـدمُ أمنَـهُ وسـلامَهُ. وهـذا أمـرٌ صحيـحٌ في معظـمِ الحـالاتِ، لكـن لا تقـدِّمُ هـذه القـواتُ لشـعوبِها أمنًـا كامـلًا.

على سـبيلِ المثـالِ، تأمَّـلْ قـواتِ الجيـشِ الأمريكـيِّ والجيـشِ السـوفييتيِّ في أثنـاءِ الحـربِ البـاردةِ. كلَّمـا قَوِيَـتْ قـواتُ الجيـشِ السـوفييتيّ، ازدادَ انعـدامُ الأمـنِ لدى الشـعبِ الأمريكـيِّ. وكلمـا قَوِيَـتْ قـواتُ الجيـشِ الأمريكـيِّ، ازدادتْ مخـاوفُ الشـعبِ السـوفييتيِّ. إنهـا معادلـةٌ بسـيطةٌ؛ مـا يشـكِّلُ الشـعورَ بالأمـنِ لدى دولـةٍ مـا قـد يكـونُ -تلقائيًـا- مصـدرًا لانعـدامِ الأمـنِ لدى دولـةٍ أخـرى.

التأمين الاجتماعيُّ

يوجـدُ أيضًـا مـا نسـمِّيه "التأمـين الاجتمـاعيُّ"، وتحـتَ هـذا المسـمَّى أضـعُ العديـدَ مـن البرامـجِ الحكوميـةِ المختلفـةِ الـتي أصبحـتْ -مجتمعـةً معًـا- تمثِّـلُ عنـصرًا أساسـيًا في حيـاةِ معظـمِ الدولِ الأوروبيَّـة. ومفهـومُ الأمـنِ "مـنَ المهـدِ إلى اللحـدِ" هـو نظـامٌ

تقدمُ فيه الحكوماتُ الموارِدَ اللازمةَ لأفرادِ شعوبِها عندَ كلِّ احتياجٍ قد يظهرُ في حياةِ أيِّ شخصٍ عاديٍّ. فإنْ مَرِضَ، ستُغطَّى نفقاتُه الطبيَّةُ، بما في ذلك تكاليفُ العلاجِ في المستشفيات، وعندما يكبرُ في السنِّ ويصيرُ غيرَ قادرٍ على العملِ، سيحصلُ على معاشٍ يغطّي احتياجاتِه. إلا أنَّ الظروفَ الاقتصاديةَ الهشَّةَ -بكلِّ أسفٍ- باتتْ تفرغُ بعضَ مزاعمِ "التامين الاجتماعيِّ" من مضمونِها.

ومن المثيرِ للاهتمامِ نجاحُ دولٍ مختلفةٍ نجاحًا مبهرًا في تحقيقِ أنظمتِها الخاصةِ بالتأمين الاجتماعيّ. ولنا في السويد والدنمارك مثالَانِ يُحتَذَى بهما؛ إذ إنَّ لديهما برامجَ تأمين اجتماعيٍّ مذهلةً، لكنْ بكلِّ أسفٍ، بنودُ هذه الأنظمةِ وأحكامُها يقابلُها المزيدُ منَ الضرائبِ المرتفعةِ.

ومنَ الجديرِ بالذكرِ أيضًا، حتى في السنواتِ الأولى من توفيرِ هذا التأمين، صُنِّفت دولتا السويد والدنمارك طبقًا للإحصائياتِ بأنهما الدولتانِ الأكثر تسجيلًا لحالاتِ الانتحارِ في العالمِ. فماذا تعني إذنْ تلكَ الحقيقةُ؟ أنه حتى في ظلِّ توفُّرِ برامجِ التأمين الاجتماعيِّ لا وجودَ للأمانِ الكاملِ. ومع تمتُّع أهلِ هاتين الدولتَين بتوفُّرِ كلِّ احتياجاتِهم الجسديةِ والماليةِ، إلا أنهم لم يقدروا بطريقةٍ أو بأخرى على مواجهةِ الحياةِ، لكنهم اختاروا

الانتحارَ بديلًا. إنِّي أكررُ فأقولُ، إنْ دلَّ هذا على شيءٍ فإنَّما يدلُّ على عدمِ وجودِ أمانٍ كاملٍ يعتمدُ على برامجِ التأمينِ الاجتماعيِّ.

هل يمكنُ الوصولُ للأمانِ الحقيقيِّ الكاملِ؟

العديدُ من الكياناتِ المذكورةِ سالفًا، التي تحاولُ توفيرَ الأمنِ الكاملِ، هي بالفعلِ كياناتٌ نافعةٌ وتستحقُّ الإشادةَ والتأييدَ. ومع ذلك، لم يحقِّق -ولا يمكنُ أنْ يحقِّقَ- أيٌّ منها الأمنَ الكاملَ، لا كليًا ولا جزئيًا. ولا يقتصر عجزُها فقط على المجالات التي لا يمكنها توفيرُ الأمن لها، بل يمتدُّ عجزُها أيضًا إلى المجالات التي يمكنها توفيرُ قدرٍ ضئيلٍ لها من الأمنِ، إذ إنَّ نطاقَ ذلك الأمنِ تقيِّدُه عواملُ الوقتِ والظروفِ المحيطةِ بهِ.

لهذا، وبما أنَّ الدافعَ الأساسيّ لوجودِ الإنسانِ هو السعيُ إلى تحقيقِ الأمانِ، لذا يبدو منَ المهمِّ أنْ نأخذَ هذا السؤالَ بعينِ الاعتبارِ: أينَ يُمكِنُني أنْ أجدَ الأمانَ؟ وعند بحثِ هذهِ المسألةِ، توصَّلتُ لاستنتاجٍ لافتٍ للنظرِ: أنه رغمَ مجهوداتِ الإنسانِ وتكبُّدِه لنفقاتٍ كبيرةٍ، فإنَّهُ في نهايةِ الأمرِ لا يملكُ القوةَ لتحقيقِ أمانٍ حقيقيٍّ. علاوةً على ذلكَ، أعتقدُ أنَّهُ لا يوجدُ سوى أملٌ وحيدٌ لتحقيقِ أمانٍ حقيقيٍّ وهو الاعترافُ بهذا الاستنتاجِ منَ البدايةِ بأنَّ أيَّ وكالةٍ منْ صُنعِ الإنسانِ هي في نهايةِ المطافِ غيرُ قادرةٍ على أنْ تحقِّقَ الأمنَ.

إن كانَ الأمــرُ كذلــكَ، فــلا يمكِنُنــا أن نبــنيَ حياتَنــا ورجاءَنــا على أيٍّ مــن تلــك الكيانــاتِ الــتي لا تقــدِّمُ ســوى صــورةً وهميَّــةً عــن الأمــنِ الحقيــقيِّ. لكــنَّ هنــاك مصــدرًا يمكــنُ أن يوفــرَ لنــا الأمــانَ الكامــلَ والدائــمَ. هــذا المصــدرُ هــو محــورُ هــذا الكتــابِ "الأمــانُ المطلــق: البحــثُ عــن ملجــأ في الأزمنــةِ الصعبــةِ".

الفصلُ الأولُ

المصدرُ الحقيقيُّ

طالما ارتضَيْنَا النتيجةَ التي خلُصْنا إليها في مقدمةِ هذا الكتابِ -بأنَّهُ لا يمكنُ لأيِّ وكالةٍ منْ صنعِ البشرِ أنْ تمدَّنا سوى بأمانٍ زائفٍ- فإلى مَن نلجأُ؟ حمدًا للهِ، يوجدُ مصدرٌ آخرُ للأمانِ يختلفُ اختلافًا كليًّا من حيث طبيعتِه ونوعِ الأمانِ الذي يقدِّمُه. وباستطاعتِهِ أن يمدَّنا بأمانٍ كاملٍ ودائمٍ. فما هو هذا المصدرُ؟ إنهُ اللهُ الذي فيهِ نجدُ كلَّ حكمةٍ وتدبيرٍ.

وبينما نبدأُ باستكشافِ طبيعةِ حكمةِ اللهِ، دعونا نتأمَّلُ أحدَ المقاطعِ الكتابيَّةِ في سفرِ الأمثالِ الإصحاحِ الأوَّلِ، الذي يجسِّدُ حكمةَ اللهِ. وعند قراءَتِك لهذا المقطعِ، تأمَّلِ البدائلَ المطروحةَ؛ إذ يوضحُ النصُّ عجزَ الإنسانِ أمامَ ما يقدِّمُه اللهُ من أمانٍ حقيقيٍّ وكاملٍ.

أرجو أن تلاحظَ أيضًا، أنَّ هذه ليستْ كلماتِ الحكمةِ البشريَّةِ، بل هيّ حكمةُ اللهِ التي تتحدثُ إلينا من خلالِ الأسفارِ المقدسةِ.

"اَلْحِكْمَـةُ تُنَـادِي فِـي الْخَـارِجِ. فِـي الشَّـوَارِعِ تُعْطِـي صَوْتَهَـا. تَدْعُـو فِـي رُؤُوسِ الأَسْـوَاقِ، فِـي مَدَاخِـلِ الأَبْـوَابِ. فِـي الْمَدِينَـةِ تُبْـدِي كَلاَمَهَـا قَائِلَـةً: «إِلَـى مَتَـى أَيُّهَـا الْجُهَّـالُ تُحِبُّـونَ الْجَهْـلَ، وَالْمُسْـتَهْزِئُونَ يُسَـرُّونَ بِالاسْـتِهْزَاءِ، وَالْحَمْقَـى يُبْغِضُـونَ الْعِلْـمَ؟ اِرْجِعُـوا عِنْـدَ تَوْبِيخِـي. هأَنَـذَا أُفِيـضُ لَكُـمْ رُوحِـي. أُعَلِّمُكُـمْ كَلِمَاتِـي. «لأَنِّـي دَعَـوْتُ فَأَبَيْتُـمْ، وَمَـدَدْتُ يَـدِي وَلَيْـسَ مَـنْ يُبَالِـي، بَـلْ رَفَضْتُـمْ كُلَّ مَشُـورَتِي، وَلَـمْ تَرْضَـوْا تَوْبِيخِـي. فَأَنَـا أَيْضًـا أَضْحَـكُ عِنْـدَ بَلِيَّتِكُـمْ. أَشْـمَتُ عِنْـدَ مَجِـيءِ خَوْفِكُـمْ. إِذَا جَـاءَ خَوْفُكُـمْ كَعَاصِفَـةٍ، وَأَتَـتْ بَلِيَّتُكُـمْ كَالزَّوْبَعَـةِ، إِذَا جَـاءَتْ عَلَيْكُـمْ شِـدَّةٌ وَضِيـقٌ. حِينَئِـذٍ يَدْعُونَنِـي فَـلاَ أَسْـتَجِيبُ. يُبَكِّـرُونَ إِلَـيَّ فَـلاَ يَجِدُونَنِـي. لأَنَّهُـمْ أَبْغَضُـوا الْعِلْـمَ وَلَـمْ يَخْتَـارُوا مَخَافَـةَ الـرَّبِّ. لَـمْ يَرْضَـوْا مَشُـورَتِي. رَذَلُـوا كُلَّ تَوْبِيخِـي. فَلِذلِـكَ يَأْكُلُـونَ مِـنْ ثَمَـرِ طَرِيقِهِـمْ، وَيَشْـبَعُونَ مِـنْ مُؤَامَرَاتِهِـمْ. لأَنَّ ارْتِـدَادَ الْحَمْقَـى يَقْتُلُهُـمْ، وَرَاحَـةَ الْجُهَّـالِ تُبِيدُهُـمْ. أَمَّـا الْمُسْـتَمِعُ لِـي فَيَسْـكُنُ آمِنًـا، وَيَسْـتَرِيحُ مِـنْ خَـوْفِ الشَّـرِّ»" (الأمثال ١: ٢٠- ٣٣).

أرجـو أنْ تتأمَّـلَ مـعي في هـذه الجملـةِ الأخـيرةِ: "أَمَّـا الْمُسْـتَمِعُ لِي فَيَسْـكُنُ آمِنًـا، وَيَسْـتَرِيحُ مِـنْ خَـوْفِ الشَّرِّ." هـذا هـو الأمـانُ الكامـلُ الذي في حكمـةِ اللهِ الـتي تتحـدثُ إلينـا مـن خـلال صفحـاتِ الـوحيِ المقـدَّسِ.

ويجـبُ أنْ نلاحـظَ أنَّـه على الرغـمِ مـن أنَّ الحكمـة تقـدِّمُ الأمـانَ الكامـلَ للجميـعِ، إلا أنَّ قليلـين هـم مـن يقبلونَهـا. ويشـيرُ هـذا المقطـعُ إشـارةً محـدَّدةً إلى أنَّ كثيريـنَ لا يريـدون أنْ يسـتقبِلوا

توجيهـاتِ الحكمـةِ ولا يلتفتـونَ لتوبيخِهـا. لهـذا يتَّجِهـون نحـو كارثـةٍ كانَ بإمكانِهـم أنْ يتجنَّبوهـا.

السـؤالُ الذي على كلِّ واحـدٍ منَّـا أن يجـاوبَ عليـهِ هـو، هـل لديَّ اسـتعدادٌ لسـماعِ صـوتِ الحكمـةِ والالتفـاتِ إليهـا. هـل أسـلِّمُ نفـسي لحكمـةِ اللهِ، هـذا المصـدرُ الوحيـدُ الذي وعـدَ بـأن يمنَحَـني أمانًـا كامـلًا ودائمًـا؟

الفصلُ الثّاني
مواجهةُ اختياراتِنا

بحسبِ الفقرةِ الكتابيةِ التي تأمَّلْنا فيها في الإصحاحِ الأولِ من سفرِ الأمثالِ، ما تقدِّمُه الحكمةُ من أمانٍ هو أمانٌ كاملُ الأركانِ، حتى أنَّ مَنْ يستقبِلُها لنْ "يَسْكُن آمِنًا" فقطْ، بلْ "يَسْتَرِيحُ" ولنْ تتملَّكَه مشاعرُ الخوفِ. وسيتمتع بحماية الله بالرغم من وجود دوائر الضرر من حولِه! (انظر أمثال ١: ٣٣).

بكلِّ أسفٍ، وإن كانتِ الحكمةُ تقدمُ النصحَ والتوبيخَ بكلِّ وضوحٍ، إلا أنَّ الغالبيَّةَ لن تستفيدَ من النصيحةِ ولن تلتفتَ إليها، لذلكَ تقولُ الحكمةُ:

"بَلْ رَفَضْتُمْ كُلَّ مَشُورَتِي، وَلَمْ تَرْضَوْا تَوْبِيخِي. فَأَنَا أَيْضًا أَضْحَكُ عِنْدَ بَلِيَّتِكُمْ. أَشْمَتُ عِنْدَ مَجِيءِ خَوْفِكُمْ..." (أمثال ١: ٢٥-٢٦).

إنهُ اختيارٌ محزنٌ وقاسٍ ضدَّ قبولِ مشورةِ الحكمةِ والاستجابةِ لتوبيخِها. إنه اختيارٌ كارثيٌّ مفجعٌ. لهذا لم يتبقّ لنا سوى الاختيارُ ما بينَ مواجهةِ الحياةِ دونَ خوفٍ، أو مواجهةِ أمورٍ مفجعةٍ. وتتوقَّفُ نتائجُ اختياراتِنا على مدى استجابتِنا إلى الحكمةِ والإصغاءِ لصوتِها.

في استعراضِ الحكمةِ لمشورتِها وتوبيخِها، لا تكتفي بأنْ تبيِّنَ لنا ما هو صحيحٌ، لكنَّها تحذِّرُنا أيضًا ممَّا هو خطأ. وأحدُ جوانبِ حكمةِ اللهِ التي لا يمكنُ فهمُها بمعزلٍ عن إعلانِ اللهِ في الكتابِ المقدسِ هو التمييزُ بينَ فئتَيْنِ في هذا الكونِ، ما هو وقتيٌّ زائلٌ وما هو أبديٌّ. وإن لم ندركْ هذا التمايزَ ونتصرفْ بناءً على هذهِ المعرفةِ فلن نَصِلَ أبدًا إلى تحقيقِ الأمانِ الحقيقيِّ الدائمِ.

المؤقت والأبدي

كتبَ بولسُ في رسالتِه الثانيةِ إلى أهل كورنثوس عن هاتينِ الفئتَيْنِ أو العالمَيْن.

"وَنَحْنُ غَيْرُ نَاظِرِينَ إِلَى الأَشْيَاءِ الَّتِي تُرَى، بَلْ إِلَى الَّتِي لاَ تُرَى. لأَنَّ الَّتِي تُرَى وَقْتِيَّةٌ، وَأَمَّا الَّتِي لاَ تُرَى فَأَبَدِيَّةٌ" (٢كو ٤: ١٨).

يميِّزُ بولسُ في هذه الآيةِ تمييزًا واضحًا بينَ هاتَيْن الفئتَيْن. أولًا، هناك ما "يُرَى"، العالمُ الماديُّ الذي نختبرُه بحواسِّنا الجسديةِ، وهذه الحقائقُ الماديَّةُ مؤقَّتةٌ ولا تدومُ. ثانيًا، العالمُ الأبديُّ "غيرُ المرئيِّ"، عالمُ اللهِ الذي يعلنُ عنْ كينونةِ اللهِ وحقيقتِهِ. ويختلفُ هذا العالمُ الأبديُّ غيرُ المرئيِّ اختلافًا جذريًا عنِ العالمِ المؤقتِ الذي نراهُ، إذ إنَّهُ يبقى إلى الأبدِ.

يقـولُ بولـسُ إنَّنـا ناظـرونَ "إِلَى الَّـتِي لاَ تُـرَى." وهـذا تناقـضٌ ظاهـريٌّ مذهـلٌ. كيـف لنـا أنْ ننظـرَ فيمـا لا نـرَاه؟ إليـكَ إجابـةُ هـذا السـؤالِ الذي يُعيـدُ صياغـةَ حياتِنـا وتشـكيلَها، وهـو أنَّ الإيمـانَ هـو الطريـقُ الوحيـدُ للدخـولِ إلى العالـمِ الذي لا يُـرَى؛ فبالإيمـانِ نفهـمُ مـا لا يمكِنُنـا أنْ نـراه بعيونِنـا الجسـديَّةِ، ولا يمكِنُنـا أن ندرِكَـه بـأيٍّ مـن حواسِّـنا الجسـديَّةِ. ومـن خـلالِ فهمِنـا لهـذا العالـمِ الأبـديِّ غـيرِ المنظـورِ، فإنَّنـا نبـدأُ في التوصُّـلِ إلى الأمـانِ الحقيـقيِّ.

بطريقـةٍ مشـابهةٍ لتعاليـمِ بولـسَ، أعلـنَ النـبيُّ إشـعياءُ بوضـوحٍ شـديدٍ، التمايـزَ الشـديدَ بـينَ مـا هـو زمـنيٍّ ومـا هـو أبـديٍّ. لقـد بـيَّنَ لنـا أنَّ الله يجتَذِبُنـا إلى مـا هـو أبـديّ مـن خـلالِ مـا هـو وقـتيّ وزائـل.

"كُلُّ جَسَـدٍ عُشْـبٌ، وَكُلُّ جَمَالِـهِ كَزَهْـرِ الْحَقْـلِ. يَبِـسَ الْعُشْـبُ، ذَبُـلَ الزَّهْـرُ، لأَنَّ نَفْخَـةَ الـرَّبِّ هَبَّـتْ عَلَيْـهِ. حَقًّـا الشَّـعْبُ عُشْـبٌ! يَبِـسَ الْعُشْـبُ، ذَبُـلَ الزَّهْـرُ. وَأَمَّـا كَلِمَـةُ إِلهِنَـا فَتَثْبُـتُ إِلَـى الأَبَـدِ" (إشـعياء ٤٠: ٦-٨).

كبولـسَ، يفـرِّقُ إشـعياءُ بوضـوحٍ بـينَ مـا هـو أبـديّ ومـا هـو زمـنيّ؛ فحيـاةُ البـشرِ جميعًـا مؤقتـةٌ، وجميعُنـا كالعشـبِ، ننمـو ونكـبرُ ثـمَّ نذبُـلُ ونمـوتُ ونفـنَى. وفي كلِّ نـواحي الوجـودِ البـشريِّ لا يوجـدُ شيءٌ أبـديٌّ. لكـنْ كالزهـورِ، قـد يتمتَّـعُ العالـمُ الحـاضرُ بجمالٍ خـلَّابٍ. ومـن خـلالِ هـذا الجمـالِ الزمـنيِّ المؤقَّـتِ يجتَذِبُنـا اللهُ إلى ما

هـو أبـديّ. إنَّـهُ يتكلَّـمُ إلينـا عـنْ عالـمٍ آخـرَ؛ حيـثُ الجمـالُ الدائـمُ الذي لا يَفـنَى والزهـورُ الـتي لا تذبـلُ؛ عالـمٌ لا يخضـعُ لمظاهـرِ الفسـادِ والتغيـيرِ وعـدمِ الاسـتقرارِ وانعـدامِ الأمـانِ. هـذا هـو العالـمُ الأبـديُّ الذي تعلنُـه كلمـةُ اللهِ ويلخِّـصُ إشـعياءُ هـذا التبايُـنَ فيقـولُ: "يَبِـسَ الْعُشْـبُ، ذَبُـلَ الزَّهْـرُ. وَأَمَّـا كَلِمَـةُ إِلهِنَـا فَتَثْبُـتُ إِلَى الأَبَـدِ."

الأساسُ الصحيحُ

كمـا أشرتُ قبـلًا، لـكي نبلُـغَ الأمـانَ الحقيـقيَّ، لا بـد أنْ نُقِـرَّ بمحدوديـةِ أيِّ نـوعٍ آخـرَ مـن الأمـانِ. ولا بـدَّ مـنَ اسـتيعابِ الحقيقةِ المتمثِّلـةِ في أنَّ أيَّ أمـانٍ قـد يحقِّقُـه الإنسـانُ بمجهـودِهِ الخـاصِّ أو بحكمتِـهِ لا يمكـنُ أنْ يكـونَ أمانًـا دائمًـا وأبديًـا. هـذا أمـرٌ حقيقيٌّ، فطبيعـةُ البـشرِ مؤقتـةٌ وسريعـةُ الـزوالِ. وحيـاةُ الإنسـانِ تنمـو كمـا ينمـو عشـبُ الحقـلِ الذي يكـبُرُ وينمـو وينبـضُ بالحيـاةِ والاخـضرارِ ويتجمَّـلُ بأزهـارِهِ، لكـن بمجـردِ وصولِهـا إلى قمـةِ جَمالِهـا تبـدأُ في أنْ تذبـلَ وتمـوتَ.

لقـد سـمحَ اللهُ بـأنْ يُظهِـرَ لنـا هـذا الواقـعَ مـنَ الطبيعـةِ كي تتحـولَ قلوبُنـا عـن كلِّ مـا هـو وقـتيّ وزائـل إلى مـا هـو أبـديّ. فرغبـةُ قلـبِ الله أنْ يُبعِدَنـا عـن كلِّ شيءٍ زائـلٍ ويقرِّبَنـا إلى كلِّ مـا هـو أبـديّ. لعـلَّ هـذا الاعـترافَ مـن جانبِنـا يُرجِعُنـا إلى اللهِ ويوجِّهُنا إلى كلمتِـهِ وحكمتِـهِ. فهـو يتكلَّـمُ إلينـا مـن خـلالِ كلمتِـه ويقـدِّمُ لنـا

نـوعًا مختلفًـا مـنَ الأمـانِ، إنـهُ الأمـانُ الكامـلُ والأبـديُّ.

بينمـا نواجـهُ هـذا التبايـنَ بـينَ المؤقَّـتِ والدائـمِ، يجـبُ أنْ نختـارَ أيَّ طريـقٍ في حياتِنـا سنسـلكُ. ويجـبُ أنْ نقـرِّرَ إذا كنَّـا سـنبني اختيارَنـا على مـا هـو مؤقَّـت وزائِـل، أم على مـا هـو دائِـم وأبـديّ.

يتَّضِـحُ التبايـنُ في هـذا الاختيـارِ مـن خـلالِ المَثَـلِ المألـوفِ الذي قـالهُ يسـوعُ عـنْ رَجُلَـيْن قـام كلٌّ منهمـا ببنـاءِ بيـتٍ؛ حيـثُ بـنى أحدُهُمـا بيتًـا على الرمـلِ، فـكان بيتًـا مؤقَّتًـا بينمـا بَـنَى الآخـرُ بيتَـه على الصخـرِ فـكان بيتًـا ثابتًـا ودائمًـا.

"فَكُلُّ مَـنْ يَسْـمَعُ أَقْوَالِـي هـذِهِ وَيَعْمَـلُ بِهَـا، أُشَـبِّهُهُ بِرَجُـل عَاقِـل، بَنَـى بَيْتَـهُ عَلَـى الصَّخْـرِ. فَنَـزَلَ الْمَطَـرُ، وَجَـاءَتِ الأَنْهَـارُ، وَهَبَّـتِ الرِّيَـاحُ، وَوَقَعَـتْ عَلَـى ذلِـكَ الْبَيْـتِ فَلَـمْ يَسْـقُطْ، لأَنَّـهُ كَانَ مُؤَسَّسًـا عَلَـى الصَّخْـرِ. وَكُلُّ مَـنْ يَسْـمَعُ أَقْوَالِـي هـذِهِ وَلاَ يَعْمَـلُ بِهَـا، يُشَـبَّهُ بِرَجُـل جَاهِـل، بَنَـى بَيْتَـهُ عَلَـى الرَّمْـلِ. فَنَـزَلَ الْمَطَـرُ، وَجَـاءَتِ الأَنْهَـارُ، وَهَبَّـتِ الرِّيَـاحُ، وَصَدَمَـتْ ذلِـكَ الْبَيْـتَ فَسَـقَطَ، وَكَانَ سُـقُوطُهُ عَظِيمًـا" (متـى ٧: ٢٤-٢٧).

يضـعُ يسـوعُ هـذا الاختيـارَ الواضـحَ أمامَنـا دونَ حلـولٍ وسـطيَّةٍ أو مسـاوَمةٍ؛ فعلينـا جميعًـا أنْ نقـرِّرَ كيـفَ سـنبني حياتَنـا، ومـا هي الأساسـياتُ الـتي تقـومُ عليهـا حياتُنـا؟ هـل سـنقيِّدُ أنفسَـنا بالأمـانِ غـيرِ الـكافي الذي قـد نتحصَّـلُ عليـهِ بمجهودِنـا الشـخصيِّ.

فـإنِ اعتمَـدَ كلُّ واحـدٍ منَّـا على الأمـانِ الذي يقدِّمُـه العالـمُ المؤقـتُ، فسنُشـبِهُ الرجـلَ الذي بـنى بيتَـه على الرمـلِ دونَ اسـتخدامِ أسـاسٍ مناسـبٍ. وسـيظلُّ ذلـك البيـتُ قائمًـا لبعـضِ الوقـتِ، لكـن عندمـا يتعـرَّضُ للاختبـارِ، وتـأتي عليهِ الكـوارثُ وضغوطـاتُ الحياةِ، سـينهارُ.

لاحِـظْ أن يسـوعَ كان واقعيًـا لأبعـدِ درجـةٍ، فلـم يَقُـل إنْ "وَقَعَتْ عَـلَى ذلِـكَ الْبَيْـتِ..."، بـل في واقـعِ الأمرِ قـالَ: "ووَقَعَتْ عَـلَى ذلِكَ الْبَيْـتِ..." إليـك الحقيقـةُ المؤلمـةُ الـتي تحـدَّثَ يسـوعُ عنهَـا: سـنتعرضُ لضغـوطٍ واختبـاراتٍ، وسـتُمتَحَنُ حيـاةُ كلِّ واحـدٍ منـا عنـدَ مرحلـةٍ مـا بـكلِّ أنـواعِ الضغـوطِ. وليـس لدينـا أيُّ أمـلٍ في الهـروبِ مـن هـذهِ الضغوطِ أو تجنُّبِهـا. والحـلُّ الوحيـدُ هـو أنْ نبـنيَ على أسـاسٍ يتحمـلُ الضغـوطَ الـتي حتمًـا سـتأتي لكـنْ دونَ أن نستسـلمَ لهـا أو نتراجـعَ.

كمـا يذكـرُ يسـوعُ بوضـوحٍ في هـذا المَثـلِ، أنَّ أسـاسَ البنـاءِ هـو كلمـةُ اللهِ والحكمـةُ المعلنـةُ فيـهِ؛ إذْ تكشـفُ حكمـةُ اللهِ عـن طبيعتِـهِ الأبديَّـةِ، وتحتضـنُ مشـورتَه الأبديَّـةَ وتُرينـا الطريـقَ الـتي مـن خلالِهـا نتحـولُ عـن رمـالِ الزمـانِ الحـاضرِ لنسـتندَ على صخـرِ الدهـورِ الأبـديّ الذي يمكِنُنـا أن نبـنيَ عليـه الأسـاس بـكلِّ ثقـةٍ كاملـةٍ. إننـا نعلـم أن هـذا الأسـاس يسـتطيع أن يتحمـل كل الضغـوط الـتي قـد تجلبهـا هـذه الحيـاة. فهـل اخـترت ذلـك الصخـر الأبـدي لتضـع أسـاس حياتـك عليـه في بحثـك عـن الأمـان؟

الفصلُ الثالثُ

صَخرُ الدهورِ الأبديّ

في هـذا الفصـلِ سنتوسَّـعُ في التأمـلِ عـن طبيعـةِ الصخـرِ الأبديّ. إنَّـهُ الصخـرُ الوحيـدُ الذي يمكِنُنـا أنْ نضـعَ أسـاسَ حياتِنـا عليـهِ بـكلِّ أمـانٍ كامـلٍ، سـواء للزمـانِ الحـاضرِ أو للأبديَّـةِ. ولا يوجـدُ أيُّ أسرارٍ عـنْ هويَّـةِ هـذا الصخـرِ (حجـر الزاويـة) إذْ يتَّضِـحُ لنـا وضـوحَ الشـمسِ في الكتـابِ المقـدَّسِ. يكتـبُ بولـسُ في كورنثـوس الأولى ٣: ١١: "فَإِنَّـهُ لاَ يَسْـتَطِيعُ أَحَـدٌ أَنْ يَضَـعَ أَسَاسًـا آخَـرَ غَـيْرَ الَّـذِي وُضِـعَ، الَّـذِي هُـوَ يَسُـوعُ الْمَسِـيحُ."

كلمـاتُ بولـسَ واضحـةٌ جـدًا وعمليَّـةٌ على حـدٍّ سـواء. الأسـاسُ الوحيـدُ الذي سـيدومُ إلى الأبـدِ هـو يسـوعُ المسـيحُ. الأسـاسُ الذي وضعَـهُ اللهُ هـو ربُّنـا ومخلِّصُنـا يسـوعُ المسـيحُ. ولا يمكِنُنـا تغيـيرُ هذه الحقيقـةِ المجـرَّدةِ، ولا يمكنُنـا أنْ نجـدَ أساسًـا آخـرَ نبـني عليـهِ ويلاقي قبـولًا لدى الله. ولا يمكنُنـا الاعتمـادُ إلا على الأسـاسِ الذي قدَّمـه لنـا اللهُ في يسـوعَ المسـيح.

يكتبُ الرسولُ بطرسُ عن أساسِ البناءِ الوحيدِ فيقولُ:

"الَّذِي إِذْ تَأْتُونَ إِلَيْهِ [يسوع]، حَجَرًا حَيًّا مَرْفُوضًا مِنَ النَّاسِ، وَلكِنْ مُخْتَارٌ مِنَ اللهِ كَرِيمٌ، كُونُوا أَنْتُمْ أَيْضًا مَبْنِيِّينَ كَحِجَارَةٍ حَيَّةٍ بَيْتًا رُوحِيًّا، كَهَنُوتًا مُقَدَّسًا، لِتَقْدِيمِ ذَبَائِحَ رُوحِيَّةٍ مَقْبُولَةٍ عِنْدَ اللهِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ. لِذلِكَ يُتَضَمَّنُ أَيْضًا فِي الْكِتَابِ: «هنَذَا أَضَعُ فِي صِهْيَوْنَ حَجَرَ زَاوِيَةٍ مُخْتَارًا كَرِيمًا، وَالَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لَنْ يُخْزَى»" (١بطرس ٢: ٤-٦).

على غرار ما قاله بولسُ، قدّم بطرسُ يسوعَ "كَحِجَارَةٍ حَيَّةٍ"، و"حجر زَاوِيَةٍ مُخْتَارًا كَرِيمًا". وعلاوةً على ذلكَ، أوضحَ بطرسُ أنَّه إذا كنا سنأتي إلى يسوعَ واضعين ثقتَنا بهِ، فسنصبحُ "كَحِجَارَةٍ حَيَّةٍ بَيْتًا رُوحِيًّا"، على أساسِ البِناءِ الذي هو المسيح. وهذَا "البيتُ الروحيُّ" سيوفِّرُ لنا الأمانَ الكاملَ. لاحِظوا قولَ بطرسَ، إنَّ الشخصَ الذي يؤمنُ بيسوعَ "لَنْ يُخْزَى". الكلمةُ "لنْ" تغطّيَ الزمانَ الحاضرَ والأبديَّ على حدٍّ سواء. والذي يؤمنُ بهذا الأساسِ للبناءِ، أبدًا لنْ يخيبَ ولن يُخذَلَ ولن يواجِهَ ظروفًا لا يستطيعُ يسوعُ أنْ يصنَعَ تدبيرًا لها.

خطواتُ وضعِ الأساسِ على صخرِ الدهورِ الأبديِّ

هناك خطوتانِ واضحتانِ في غايةِ البساطةِ لكنَّهما مهمَّتان جدًا للبناءِ على هذا الأساسِ وهو يسوعُ المسيحُ:

١) يجبُ أنْ تتخلَّى عن وضعِ ثقتِكَ في كلِّ ما هو زمنيّ ووقتيّ، فلا

تضَـعْ ثقتَـكَ في حكمتِك البشريةِ ولا في أيِّ جهدٍ أو حكمةٍ إنسـانيَّةٍ.

٢) يجـبُ أن تكـرسَ ذاتَـكَ وحياتَـكَ تكريسًـا كامـلًا غـير متحفِّظٍ؛ فـكلُّ مـا تملـكُ أو تفعـلُ -سـواء في الزمـانِ الحـاضرِ أو الأبـديِّ- هـو ليسـوعَ المسـيح.

قـد تكـونُ متديِّنًـا بالفعـلِ ولديـك أخلاقيـاتٌ حميـدةٌ و"تعيـشُ حيـاةً صالحـةً" لكـن في نهايـةِ المطـافِ، فـإنَّ أفضـلَ مـا يمكنُـكَ أن تقدِّمَـه ليـس سـوى "رمـال"، مجـرَّد مجهـودٍ بـشريٍّ. ولـكي تبـنيَ على صخـرِ الدهـورِ، يجب أنْ تتخـلَّ عـن بـرِّكَ الذاتيِّ وصلاحِـكَ وفضائِلِكَ الإنسـانيةِ الذاتيـةِ كأسـاسٍ لبنـاءِ الأمـانِ الدائـمِ، وأنْ تـأتيَ إلى يسـوعَ لطلـبِ هـذا الأمـانِ.

لقـد وعـدَ يسـوعُ بنفسِـه هـذا الوعـدَ قائـلًا: "مَـنْ يُقْبِـلْ إِلَيَّ لاَ أُخْرِجْـهُ خَارِجًـا [لا أرفضه]" (يوحنـا ٦: ٣٧). فـإنْ أتيـتَ إليـهِ سـيقبَلُك. إنْ تداركـتَ الخطـأَ بأنـكَ كنـتَ تبـني على أسـاسِ البنـاءِ الشـخصيِّ، يمكنُـكَ إذًا أنْ تـأتيَ ليسـوعَ الآن بمجـردِ أن تصـليَ هـذه الصـلاةَ:

يسوعُ، إني آتي أليكَ، وأؤمنُ بكَ مخلِّصًا شخصيًا لحياتي. وبالإيمانِ أستقبِلُ منكَ عطيةَ الحياةِ الأبديةِ. والآنَ أضَعُ حياتي كاملةً ودنَ أيّ تحفظٍ بينَ يديكَ. آمينْ.

هاتـان الخطوتانِ البسـيطتانِ اللتانِ سـتغيرانِ حياتَكَ همـا الطريقُ الـتي تبـدأُ منهَـا البنـاءَ على صخـرِ الدهـورِ الأبـديِّ، يسـوع المسـيح.

علاقةٌ شخصيَّةٌ مع المسيحِ

إنَّ تكريـسَ حياتِـكَ ليسـوعَ المسـيحِ يخلـقُ علاقـةً شـخصيةً مبـاشرةً معَـهُ لا يحـلُّ محلَّهـا أيُّ علاقـةٍ أخـرَى. وتصـفُ الكثـيرُ مـنَ المقاطـعِ الكتابيـةِ هـذهِ العلاقـةَ. واحـدةٌ مـنْ أكـثرِ هـذه المقاطـعِ شـيوعًا الـتي تعـبِّر عـنْ هـذا المعـنى هـو مزمـور ٢٣، "مزمـور الـراعي" الذي كتبَـه الملـكُ داود. وتعكـسُ الآيـاتُ الأربـعُ الأولى طبيعـةَ هـذه العلاقـةِ انعكاسًـا رائعًـا فتقـولُ:

"الـرَّبُّ رَاعِـيَّ فَـلاَ يُعْوِزُنِـي شَـيْءٌ. فِـي مَـرَاعٍ خُضْـرٍ يُرْبِضُنِـي. إِلَـى مِيَـاهِ الرَّاحَـةِ يُورِدُنِي. يَـرُدُّ نَفْسِـي. يَهْدِينِـي إِلَـى سُـبُلِ الْبِـرِّ مِـنْ أَجْـلِ اسْـمِهِ. أَيْضًـا إِذَا سِـرْتُ فِـي وَادِي ظِـلِّ الْمَـوْتِ لاَ أَخَـافُ شَـرًّا، لأَنَّـكَ أَنْـتَ مَعِـي. عَصَـاكَ وَعُكَّازُكَ هُمَـا يُعَزِّيَانِنِـي" (مزمـور ٢٣: ١-٤)

تعـبِّرُ الآيـةُ الأولى عـن كلِّ مـا يمكـنُ أن يقـالَ عـنِ الأمـانِ. إنها تسـتَنِدُ إلى علاقـةٍ شـخصيةٍ مـع الـربِّ: "الـرَّبُّ رَاعِـيَّ فَـلاَ يُعْـوِزُنِي شَيْءٌ." كمـا ستسـددُ تلـك العلاقـةُ كلَّ احتيـاجٍ سـواءَ في الزمـانِ الحـاضرِ أو في الأبديَّـةِ. ويسـتكملُ دوادُ قائـلًا: "الـربُّ... فِي مَـرَاعٍ خُـضْرٍ يُرْبِضُـنِي. إِلَى مِيَـاهِ الرَّاحَـةِ يُـورِدُنِي. يَـرُدُّ نَفْسِـي. يَهْدِينِي إِلَى سُـبُلِ الْبِـرِّ مِـنْ أَجْـلِ اسْـمِهِ. أَيْضًـا."

في الأساسِ، بمجردِ أن نكرِّسَ حياتَنا للربِّ يتحمَّلُ هو مسؤوليتَنا كاملةً في كلِّ موقفٍ أو ظرفٍ "مِنْ أَجْلِ اسْمِهِ." فالربُّ لا يتحمَّلُ مسؤوليَّتَنا بسببِ صلاحِنا أو استحقاقِنا لرعايتِه، لكنَّهُ يمنحُنَا الأمانَ الكاملَ لأنَّهُ أمينٌ على اسمِهِ. وسيحفظُ عهدَهُ والتزامَه تجاهَنا لا لشيءٍ إلا لمجدِ اسمِهِ وكرامتِهِ.

في الآيةِ الرابعةِ، يواصلُ داود فيقولُ: "أَيْضًا إِذَا سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ لاَ أَخَافُ شَرًّا، لأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي. عَصَاكَ وَعُكَّازُكَ هُمَا يُعَزِّيَانِنِي."

تصفُ هذه الكلماتُ الأمانَ الذي يتخطَّى حدودَ الزمانِ الحاضرِ ويذهبُ بنا إلى ما هو أبديّ. عندما تحينُ آجَالُنا، وهو أمرٌ لا بدَّ منْ حدوثِه لكلِّ واحدٍ، سنودِّعُ العالمَ الزمنيَّ ونخرجُ منْهُ. وعندما يحدثُ هذا لنْ نخشَى أيَّ شرٍّ. فالربُّ معنا حتى في "وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ". فهو حاضرٌ لكي ما يسنِدَنا ويقوِّيَنا ويعزِّيَنا ويقبَلَنا.

كخادمٍ، كانت المسؤوليةُ التي أواجِهُها مواجهةً مستمرةً تجاه من تقتربُ آجالُهم هي أنْ أقرِّبَهم بقدرِ استطاعتي بالقربِ منْ مدخلِ وادي ظلِّ الموتِ. تلك نقطةُ البدايةِ التي فيها، كخادمٍ بشريٍّ، أسلِّمُ الراعيَ الصالحَ الأبديّ هذا الشخصَ الذي سلّمَ له حياتَه، وأشاهدُ الربَّ وهو يتولَّى مسؤوليَّةَ هذا الشخصِ. لقد اختبرتُ هذا الأمرَ مع زوجتي ليديا، التي كانتْ مؤمنةً

مسيحيةً رائعةً وخادمةً أمينةً للربِّ؛ إذْ كنتُ بجانبِها عندما ماتتْ، وقُدتُها مباشرةً إلى هذا الوادي. لكنْ في مرحلةٍ معينةٍ، لم أستطِعْ أنْ أستمرَّ، لكنَّ الربَّ كانَ أمينًا لعهدِهِ؛ إذْ رقدتْ بسلامٍ في محضرِهِ. وسيفعلُ الربُّ الأمرَ ذاتَهُ مع كلِّ واحدٍ سلّمَ له حياتَهُ دونَ تحفُّظٍ؛ فهو يظلُّ أمينًا سواء في الحياةِ أو المماتِ، في الزمانِ الحاضرِ أو الأبديِّ. ولا يوجدُ أيُّ قوةٍ شريرةٍ في هذا الكونِ قد تُفسِدُ العلاقةَ بينَ الربِّ وبينَ مَنْ سلَّمَ حياتَهُ لهُ.

عبَّر بولسُ عن هذه الفكرةِ تعبيرًا بليغًا إذْ يقولُ:

"فَإِنِّي مُتَيَقِّنٌ أَنَّهُ لاَ مَوْتَ، وَلاَ حَيَاةَ، وَلاَ مَلاَئِكَةَ، وَلاَ رُؤَسَاءَ وَلاَ قُوَّاتِ، وَلاَ أُمُورَ حَاضِرَةً وَلاَ مُسْتَقْبَلَةً، وَلاَ عُلْوَ وَلاَ عُمْقَ، وَلاَ خَلِيقَةً أُخْرَى، تَقْدِرُ أَنْ تَفْصِلَنَا عَنْ مَحَبَّةِ اللهِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا" (رومية ٨: ٣٨-٣٩).

لا يوجدُ شيءٌ في الكونِ المخلوقِ بأَسْرِه يمكنُ أن يكسرَ العلاقةَ المقدسةَ بينَ الربِّ والنفسِ التي سلَّمتْ حياتَها إلى يسوعَ، هذه الحياةُ التي وضعتْ أساسَهَا على صخرِ الدهورِ الأبديِّ، وهو الربُّ يسوعُ المسيحُ. وفوقَ كلِّ هذا، يقدِّم هذا الأساسُ أمانًا حقيقيًا وكاملًا ودائمًا.

الفصلُ الرّابعُ

"فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ..."

بعـدَ أنْ رأينـا أنَّ الأمـانَ الحقيـقيَّ والدائـمَ لا يمكـنُ بلوغُـه إلا مـنْ خـلالِ علاقـةٍ مـعَ يسـوعَ المسـيحِ، سيسـاعدُنا كثـيرًا الآنَ اسـتعراضُ كيـفِ جِئنـا إلى المسـيحِ كجـزءٍ مـنْ خطـةِ اللهِ ذاتِ السـيادةِ لـكلِّ واحـدٍ منَّـا. كمـا سـنفهمُ مـن خـلالِ الأسـفارِ المقدَّسـةِ أنَّ اختيـارَ اللهِ لنـا هـو الأمـانُ الكامـلُ.

أدعـوكَ للانضمـامِ مـعي في رحلـةٍ رائعـةٍ تبـدأُ مـنَ الأزمنـةِ الأزليَّـةِ، وتقودُنـا عـبرَ مراحـلَ زمنيـةٍ متعـددةٍ، ثـمَّ تعـودُ بنـا إلى الأزمنـةِ الأزليَّـةِ مـرةً أخـرى. إذا كنـتَ سـتتبعُني في الطريـقِ الذي سـأقودُكَ إليـهِ في هـذا الفصـلِ، فسـتنعمُ بالأمـانِ الكامـلِ في اللهِ.

سـنبدأُ رحلتَنـا عنـدَ أولِ آيـةٍ ذُكِـرت في الكتـابِ المقـدَّسِ: "فِي الْبَـدْءِ خَلَـقَ اللهُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ" (تكويـن ١: ١).

في كلِّ التاريـخِ البـشريِّ تقريبًـا، حـاولَ البـشرُ التكهُّـنَ بمـا وراءِ الكـونِ وسرِّ اسـتمراريَّتِه. وجـرى تقديـمُ إجابـاتٍ كثـيرةٍ مختلفـةٍ؛ حيـث اسـتخدمَ بعـضُ الفلاسـفةِ عبـارةَ مثـل "المُسَـبِّبُ الأوّل"

، عالمين أنَّ شيئًا ما يجبُ أنْ يكونَ وراءَ أصلِ كلِّ الخليقةِ. فهلِ الخليقةُ كلُّها صُدْفَةٌ أو "انفجارٌ كبيرٌ" كما يدَّعي بعضُ الفيزيائيين؟ هل هي عمليَّةٌ فيزيائيَّةٌ طائشةٌ لا يعرفُ أحدٌ أصلَها، ولماذا تستمرُّ عفويًّا، أو كيف ستنتهي؟ وهل يستحيلُ تمامًا فهمُ هذا الكونِ أو تفسيرُه؟

أبونا الخالقُ يوضِّحُ لنا القصدَ

يجيب الكتابُ المقدسُ على تلك الأسئلةِ إجابةً واضحةً ودقيقةً للغايةِ؛ إذْ إنَّها تعلنُ أنَّ خلفَ هذا الكونِ يوجدُ خالقٌ شخصيٌّ وهو أبٌ أيضًا. هذا الإعلانُ يتضمَّنُ ثلاثةَ مفاهيم مهمة. خلفَ هذا الكونِ يوجدُ شخصٌ. ذلك الشخصُ هو خالقٌ. ثم أنَّ ذلك الخالقَ هو أبٌ.

يا لأهميَّةِ هذهِ الحقيقةِ أنَّ الخالقَ هو أيضًا أبٌ. ما سببُ أهميَّةِ هذا الأمرِ؟ إنَّ وجهةَ نظرِكَ حول أصلِ الكونِ ستحدِّدُ وجهةَ نظرِك تجاهَ نفسِك وحياتِك؛ فإذا كنتَ تعتقدُ أنَّ حياتَكَ مجردُ صدفةٍ عابرةٍ، وأنَّ وجودَكَ غيرُ قابلٍ للتفسيرِ، وأنكَ مجرَّدُ ضحيةٍ لقُوى ماديةٍ لا يمكنُ إيقافُها ولا يمكِنُك السيطرةُ عليها لكنَّها تتحكَّمُ فيكَ، فما هو إذَن سببُ وجودِكَ هُنا؟

لكن إنْ كنتَ تؤمنُ بما يقولُهُ الكتابُ المقدَّسُ، إذنْ يوجدُ

خالـقٌ يقـفُ وراءَ كلِّ مـا يحـدثُ في الكـونِ. بـل هـو أكـثرُ مـن ذلـك، هـو شـخصٌ يمكنـكَ أنْ تتواصـلَ معَـهُ. فضـلًا عـن ذلـك، فهـو ليس شـخصًا فقـط، بـل أبٌ أيضًـا. فـإنْ صحَّـتْ تلـك العبـاراتُ فلديـكَ إذنْ سـببٌ وهـدفٌ مـن وجـودِكَ على الأرضِ. وسـتغيِّرُ هـذه المعرفـةُ نظرتَـكَ للحيـاةِ بكاملِهَـا.

ذاتَ مـرةٍ، أخـبَرَني صديـقٌ خـادمٌ للـربِّ باختبـارٍ أسردُهُ لـكَ في السـطورِ التاليـةِ. لقـد كان يخـدمُ في اجتمـاعٍ في وسـطِ واحـدةٍ مـنَ المـدنِ الأمريكيَّـةِ الكـبرى. انتـهى الاجتمـاعُ عنـدَ وقـتِ الغسـقِ (في الظَّـلامِ الدَّامـسِ). كانَ الجـوُّ في هـذا المسـاءِ بـاردًا وعاصفًـا، وكان الخـادمُ يمـشي وحيـدًا على الرَّصيـفِ، وكانـت الأجـواء رماديـة ورتيبـة وغـير مبهجـة وأقـل قبـولًا مـن أي وقـتٍ مـضى. في تلـك الظـروف القاتمـة والمزعجـة المحيطـة بـه شـعر بالوحـدة الشـديدة والإحبـاط والاكتئـاب. ثـم خطـرت له فكـرة فبـدأ يهمـس بكلمـة واحـدة مـرارًا وتكـرارًا: "أبي... أبي... أبي... أبي."

لعـدةِ دقائـق، ظـلَّ يـردِّدُ كلمـةَ "أبي" ولـم يَقُـل شـيئًا آخـرَ سـوى تلـكَ الكلمـة. مـع إصرارِهِ في ترديـدِ الكلمـةِ، تغـيَّرَتْ حالتُـهُ بالكامـلِ. فبـدا الظـلامُ وكأنـه يفقـدُ قوَّتَـه ويتقهقَـرُ، وشـعرَ بحضـورِ هـذا الواحـدِ الذي أحبَّـهُ ويسـهرُ على حمايـةِ كلِّ خطواتِـهِ.

وقـد تختـبرُ مشـاعرَ الأمـانِ هـذهِ إذا مـا أدركـتَ أنَّ وراءَ هـذا

الكـونِ أبًـا قـد خلقَـكَ ويحبُّـكَ ولديـهِ قصـدٌ مـن حياتِـك.

أبونا الخالقُ منذُ الأزلِ

إذ نسـتمرُّ في تناولِنـا لشـخصِ اللهِ الأبِ الخالـقِ، سـنرى لاحقًـا أنّ الله سرمـديٌّ (ليـس له بدايـة ولا نهايـة):

"مِـنْ قَبْـلِ أَنْ تُولَـدَ الْجِبَـالُ، أَوْ أَبْـدَأْتَ الأَرْضَ وَالْمَسْـكُونَةَ، مُنْـذُ الأَزَلِ إِلَـى الأَبَـدِ أَنْـتَ اللهُ" (مزمـور ٩٠: ٢).

لاحـظ أن كاتـب المزمـور لـم يقـل: "... كنـت الله،" أو "... سـتكون الله"، بـل قـال: "... أَنْـتَ اللهُ". إنَّ اللهَ يعيـشُ في حضـورٍ سرمـديٍّ. فليس له بدايـةٌ ولا نهايـةٌ، هـو كائـنٌ إلى الأبـدِ، وهـو مصـدرُ كلِّ مـا جـاءَ إلى الوجودِ.

الأَلِفُ وَالْيَاءُ

الإلهُ الأبـديُّ هـو البدايـةُ والنهايـةُ، ونقـرأ في سـفرِ الرؤيـا هـذه الكلمـاتِ:

"أَنَـا هُـوَ الأَلِـفُ وَالْيَـاءُ، الْبِدَايَـةُ وَالنِّهَايَـةُ" يَقُـولُ الـرَّبُّ الْكَائِـنُ وَالَّـذِي كَانَ وَالَّـذِي يَأْتِـي، الْقَـادِرُ عَلَـى كُلِّ شَـيْءٍ." (رؤيـا ١: ٨).

حـرف الألـف- أول حـرف مـن الأبجديـة اليونانيـة بينمـا اليـاء

هو الحرف الأخير. يقول الله: "أنا حيث بدأ كل شيء وحيث سينتهي كل شيء. أنا الألفا والأوميجا". هذا هو القول ذاته في اللغة العربية: "أَنَا هُوَ الأَلِفُ وَالْيَاءُ."

الربُّ الكائنُ والذي كان والذي يأتي. ويتقابل الماضي والحاضرُ والمستقبلُ في كينونةِ الله الأبديَّة. تتكرَّرُ الفكرةُ ذاتُها في نهايةِ سفرِ الرؤيا.

[قال يسوع] "أَنَا الأَلِفُ وَالْيَاءُ، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ، الأَوَّلُ وَالآخِرُ." (رؤيا ٢٢: ١٣).

لا يمكنُكَ مطلقًا أن تخرجَ خارجَ دائرةِ وجودِ اللهِ؛ فهو كائنٌ قبلَكَ، وسيظلُّ كائنًا إلى كلِّ الأزمنةِ حتَّى إلى الأبدِ.

رَئِيسُ الإِيمَانِ وَمُكَمِّلُهِ

إنَّ الله ليسَ مجردَ البداية لكنَّهُ يأخذُ على عاتقِه أيضًا مسؤوليَّةَ كلِّ شيءٍ يأتي به إلى الوجودِ. لا يبدأُ اللهُ أبدًا شيئًا لنْ يتابِعَهُ حتى نهايتِه. ولا يترك أبدًا واحدًا من مقاصدِه غيرَ مكتملٍ. ولم يتوقَّفْ أبدًا في منتصفِ خطةٍ قد وضَعَهَا قائلًا: "أنا حقًا لا أعرفُ ماذا أفعلُ بدايةً من هذهِ المرحلةِ." وبالمِثل، لم يُضْطَرّ أبدًا أنْ يقولَ: "لا يمكِنُني أنْ أنجزَ ما قررتُ أنْ أفعلَهُ منَ البدايةِ." هذه الكلماتُ غيرُ موجودةٍ في مُفرداتِ اللهِ.

تُشجِّعُنا الرسالةُ إلى العبرانيين ١٢: ٢، أنْ ننظرَ إلى يسوعَ "رَئِيسِ الإِيمَانِ وَمُكَمِّلِهِ." فإيمانُنا يبدأُ معَهُ ويتوَّجُ معَهُ ولم يبدَأْ عملًا في حياتِنا يعجَزُ عنْ أنْ يكمِلَهُ أو لم يرغَبْ في تتميمِهِ. فكما نؤمنُ بأنَّهُ يبدأُ عملًا في حياتِنا نؤمنُ أيضًا بأنَّه يحملُنا لننجزَهُ للنهايةِ.

أكَّدَ بولسُ على هذا الضمانِ الذي عبَّرَ عنْهُ للمؤمنينَ في رسالةِ فيلبّي؛ إذْ يقولُ:

"وَاثِقًا بِهذَا عَيْنِهِ أَنَّ الَّذِي ابْتَدَأَ فِيكُمْ عَمَلًا صَالِحًا يُكَمِّلُ إِلَى يَوْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (فيلبي ١: ٦).

لقد ابتدأَ اللهُ عملَهُ في حياةِ كلِّ واحدٍ منَّا، وسيكمِلُهُ للنهايةِ، وعندَما ينتهي منْ هذا العملِ سيكونُ على أكملِ وجهٍ. ولن تكونَ هناكَ أيُّ وسيلةٍ منْ شأنِها أنْ تعملَ عملَ اللهِ بشكلٍ أفضلَ. إذا فهمْنَا أنَّ اللهَ يتحمَّلُ المسؤوليَّةَ الكاملةَ عن حياتِنا، فعندَها سنمتلئُ بالثقةِ. ولم يَعُد علينا أنْ نشعرَ بالضعفِ كرقائقِ الثلجِ الهشَّةِ التي تنجرفُ. قلتُ لكثيرينَ مراتٍ عديدةً: "أنتَ لستَ حادثةً يُنتظرُ حدوثُها. لقد بدأَ اللهُ عملًا في حياتِكَ وهو سيكمِلُهُ، فلا داعيَ للقلقِ؛ لأنَّ كلَّ ما تحتاجُ إليهِ هو أنْ تضعَ ثقتَكَ فيهِ."

أبونا الخالقُ هو خلاصُنَا

بالإضافةِ إلى كلِّ ما فهمْنَاه حتى الآنَ، فهذَا الإلهُ الرائعُ، اللهُ بذاتِه، خالقُنا وأبونَا هو خلاصُنا أيضًا. من المهمِّ جدًّا أنْ ندركَ أنَّ الخلاصَ في اللهِ ذاتِه. ولا أحدَ أقلَّ منَ اللهِ يمكنُ أنْ يكونَ خلاصَنا. شهدَ إشعياءُ بهذا الحقِّ قائلًا:

"هُوَذَا اللهُ خَلاَصِي فَأَطْمَئِنُّ وَلاَ أَرْتَعِبُ، لأَنَّ يَاهَ يَهْوَهَ قُوَّتِي وَتَرْنِيمَتِي وَقَدْ صَارَ لِي خَلاَصًا" (إشعياء ١٢: ٢).

أشعرُ بالحزنِ على منْ يحاولونَ أنْ يجدوا خلاصَهم في حضورِ كنيسةٍ ما، أو في الناموسِ، أو في عقيدةٍ، أو حتى في طائفةٍ. كمْ هي واهيةٌ هذه البدائلُ التي تعكسُ مدى عجزِهَا عنْ توفيرِ الخلاصِ الذي نحتاجُهُ. في المقابلِ، عندما ندركُ أنَّ خلاصَنا هو في اللهِ ذاتِهِ، عندَهَا يمكِنُنا أنْ نردِّدَ قولَ إشعياءَ النبيِّ: "فَأَطْمَئِنُّ وَلاَ أَرْتَعِبُ." إنَّ معرفةَ أنَّ اللهَ هو خلاصُنا تمنحُنَا الثقةَ والأمانَ، وتزيلُ الخوفَ والقلقَ.

مشكلتُنا اليومَ في الكنيسةِ المسيحيةِ هي أننا نميلُ إلى التمركزِ الشديدِ حولَ الذاتِ والأمورِ الأرضيَّةِ. في واقعِ الأمرِ، لا سلامَ ولا أمانَ ولا ثقةَ لمنْ تتمركزُ حياتُهُم وأفكارُهُم وأهدافُهُم بالكاملِ على ذواتِهم.

هنالك فترةٌ في تاريخ علمِ الفَلَكِ كانَ يُعتَقَدُ فيها أنَّ الأرضَ هي مركزُ الكونِ، وأنَّ الشمسَ والنجومَ والكواكبَ الأخرى تدورُ حولَ الأرضِ. ثم جاءَ عالمُ فَلَكٍ اسمُه كوبرنيكوس (ولاحقًا كبلر وجاليليو) وأعلنَ أنَّ الأرضَ ليست مركزَ الكونِ؛ لكنَّ الشمسَ هي مركزُ نظامِنا الشمسيِّ. وصارَ هذا المفهومُ معروفًا بـ"الثورةِ الكوبرنيكانيَّةِ" لأنَّهُ أحدثَ ثورةً كبيرةً في طريقةِ تفكيرِ البشرِ تجاهَ الكونِ.

إننا نحتاجُ لثورةٍ مماثلةٍ في طريقةِ تفكيرِنا اليومَ؛ فنحنُ متمركزون حولَ كلِّ ما هو أرضيّ. لكننا بحاجةٍ لأنْ نرى أننا لسنا مَركَزًا للكونِ. فيسوعُ المسيحُ، شمسُ البرِّ (انظر ملاخي ٤: ٢) هو المركزُ ونحن ندورُ حولَهُ.

فإذا كنَّا على استعدادٍ للاعترافِ بهذهِ الحقيقةِ، سيزيلُ هذا الاعترافُ إحساسَنَا بعدمِ الأمانِ وعدمِ الاستقرارِ. لكنْ طالما اعتمدْنَا على جهودِنَا وقدراتِنَا الخاصَّةِ، لن ننعمَ أبدًا بالأمانِ. ولن نجدَ الأمانَ الحقيقيَّ إلا عندما يكونُ بمقدورِنا أنْ نستريحَ في هذا الحقِّ القائلِ بأنّ اللهَ هو المصدرُ الوحيدُ لخلاصِنا.

الفصل الخامس

اللهُ صاحبُ اليدِ العُليا

بعد أنْ أدرَكْنا أنَّ اللهَ وراءَ هذا الكونِ المخلوقِ، فلنستمرّ في فحصِ حقيقةٍ ذاتَ صلةٍ بهذا الأمرِ، وهي أنَّ كلَّ شيءٍ له مصدرٌ ولا يكتملُ إلا في اللهِ. لخَّصَ بولسُ هذه الحقيقةَ تلخيصًا بسيطًا لكنْ بشكلٍ عميقٍ في رسالتِهِ إلى أهل رومية. فكتبَ مشيرًا إلى اللهِ: "لأَنَّ مِنْهُ وَبِهِ وَلَهُ كُلَّ الأَشْيَاءِ. لَهُ الْمَجْدُ إِلَى الأَبَدِ." (رومية ١١: ٣٦).

يُدهِشُني أنَّ هذه الآيةَ بأكملِها باللغةِ الإنجليزيةِ، لا توجدُ بها كلمةٌ واحدةٌ لها أكثرُ من مقطعٍ لفظيٍّ. فهناكَ اثنتَا عشرة كلمةً تتكونُ كلٌّ منها منْ مقطعٍ لفظيٍّ واحدٍ، ومع ذلك، لا يمكِنُكَ قولُ شيءٍ أكثرَ عمقًا وبلاغةً من تلكَ الكلماتِ. "لأَنَّ مِنْهُ وَبِهِ وَلَهُ كُلَّ الأَشْيَاءِ. لَهُ الْمَجْدُ إِلَى الأَبَدِ." كلُّ شيءٍ يأتي منَ اللهِ ومنْ خلالِ اللهِ، وكلُّ شيءٍ يتحققُ ويكتملُ في اللهِ.

من هذهِ الآيةِ، هل تستطيعُ أنْ تلمحَ سيادةَ اللهِ العليا على الكونِ بأَسْرِهِ؟ لا يوجدُ شيءٌ في الكونِ ليسَ تحتَ سلطانِ اللهِ، منْ أكبرِ الأشياءِ فيهِ إلى أصغرِها. فلنتأملْ إذًا بعضَ العباراتِ في الكتابِ المقدَّسِ التي توضِّحُ هذه الحقيقةَ.

اللهُ يتحكَّمُ في النجومِ

"[الله] يُحْصِي عَدَدَ الْكَوَاكِبِ. يَدْعُو كُلَّهَا بِأَسْمَاءٍ. [نحنُ نعرفُ أنهُ يوجدُ مليارات النجوم] عَظِيمٌ هُوَ رَبُّنَا، وَعَظِيمُ الْقُوَّةِ. لِفَهْمِهِ لاَ إِحْصَاءَ" (مزمور ١٤٧: ٤-٥).

لا حدودَ لمعرفةِ اللهِ وفهمِه. ولا يوجدُ شيءٌ يسقُطُ منَ اهتمامِهِ، قالَ النبيُّ إشعياءُ:

"ارْفَعُوا إِلَى الْعَلاَءِ عُيُونَكُمْ وَانْظُرُوا، مَنْ خَلَقَ هذِهِ [جند السماء]؟ مَنِ الَّذِي يُخْرِجُ بِعَدَدٍ جُنْدَهَا، يَدْعُو كُلَّهَا بِأَسْمَاءٍ؟ لِكَثْرَةِ الْقُوَّةِ وَكَوْنِهِ شَدِيدَ الْقُدْرَةِ لاَ يُفْقَدُ أَحَدٌ" (إشعياء ٤٠: ٢٦).

يا لهُ من شيءٍ يثيرُ إعجابي! إنَّ اللهَ يتعاملُ معَ مليارات النجومِ بشكلٍ فرديٍّ، وينادي كلًّا منها باسمِها. وهو لا يعرفُها بأسمائِها فقطْ، بل بسلطانِه ومعرفتِه وقوتِه يحافظُ أيضًا على وجودِها في مكانِها. أودُّ أنْ أقتبسَ هنا من أحدِ كتبي السابقةِ، بعنوانِ "من المزامير مع ديريك برنس". في هذا العملِ، قدَّمتُ الشرحَ التاليَ حولَ مزمور١٤٧: ٤-٥، وبالأخصِّ عبارة "[الله] يُحْصِي عَدَدَ الْكَوَاكِبِ." إليكَ ما كتبتُه:

يقدمُ لنا كاتبُ المزمورِ معيارًا موضوعيًا وعلميًا يمكِنُنا من خلالِه قياسُ معرفةِ الربِّ وسلطانِهِ. ولن يجرؤَ علماءُ الفَلَكِ البشريُّونَ على إحصاءِ عددِ النجومِ في الكونِ. لكنهم معَ ذلكَ،

يخبرونَنَا بأنَّ النجومَ قد تصلُ إلى ملياراتِ المليارات في أعدادِهَا، لكنَّ الربَّ وحدَهُ يعلمُ العددَ الفعليَّ لها، فهو على اتصالٍ مباشرٍ بكلِّ نجمٍ ويتحكَّمُ في تحرُّكاتِهَا.

على الجانبِ الآخرِ، دعونا لا ننسبُ هذهِ الدقةَ أبدًا إلى قوةٍ أو" قانونٍ" غيرِ شخصيٍّ طائشٍ؛ فخلفَ ذلك كلِّهِ تكمنُ الحكمةُ اللامتناهيةُ لخالقٍ يمتدُّ اهتمامُه إلى أبعدِ ركنٍ في الكونِ.

علاوةً على ذلكَ، يخبِرُنا كاتبُ المزمورِ كيفَ يتحكَّمُ اللهُ في النجومِ؛ إذ "يَدْعُو كُلَّهَا بِأَسْمَاءٍ" (مزمور ١٤٧: ٤). في الكتابِ المقدَّسِ، يعبِّرُ الاسمُ عنِ السمةِ الفرديةِ الأساسيةِ للشخصِ أو الشيءِ الذي يأخذُ اسمًا. بالنسبةِ إلى اللهِ، حتى النجوم ليستْ مجردَ أشكالٍ طائشةٍ للمادةِ لا يمكنُ معرفتُها إلا من خلالِ الموقعِ أو الحجمِ؛ فكلُّ نجمٍ له اسمٌ خاصٌّ، وكلٌّ منها يتجاوبُ مع هذا الاسمِ عندما يدعوها اللهُ.

اللهُ يتحكمُ في مسارِ التاريخِ البشريِّ

كانَ هناكَ حاكمٌ أمميٌّ عظيمٌ، هو نبوخذنصر ملكُ بابلَ، الذي تواجَهَ معَ قوةِ اللهِ وحكمتِهِ مواجهةً مباشرةً. فعندما أعلنَ نبوخذنصر عنْ عظمتِه واكتفائِهِ الذاتيِّ، أذلَّهُ اللهُ حتى أُجبِرَ على التصرُّفِ كواحدٍ منْ وحوشِ البرّيةِ. كما يخبِرُنا الكتابُ المقدسُ

أنَّ نبوخذنصر خرجَ عاريًا إلى الحقولِ وصارَ يأكلُ العشبَ وأنَّ شعرَهُ نما مثلَ ريشِ الطيورِ وأظافره كالمخالبِ. فيما بعد، وبعدَ أنْ تعلَّمَ نبوخذنصر الدرسَ، أعادَ اللهُ لهُ عقلَهُ ومملكتَهُ. (انظر دانيال ٤: ٤-٣٧) إليكم كيفَ لخَّصَ نبوخذنصر الدرسَ الذي تعلَّمَهُ عنِ الإلهِ الحقيقيِّ، الربِّ، إذْ يقولُ:

"وَعِنْدَ انْتِهَاءِ الأَيَّامِ، أَنَا نَبُوخَذْنَصَّرُ، رَفَعْتُ عَيْنَيَّ إِلَى السَّمَاءِ، فَرَجَعَ إِلَيَّ عَقْلِي، وَبَارَكْتُ الْعَلِيَّ وَسَبَّحْتُ وَحَمَدْتُ الْحَيَّ إِلَى الأَبَدِ، الَّذِي سُلْطَانُهُ سُلْطَانٌ أَبَدِيٌّ، وَمَلَكُوتُهُ إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ. وَحُسِبَتْ جَمِيعُ سُكَّانِ الأَرْضِ كَلاَ شَيْءَ، وَهُوَ يَفْعَلُ كَمَا يَشَاءُ فِي جُنْدِ السَّمَاءِ وَسُكَّانِ الأَرْضِ، وَلاَ يُوجَدُ مَنْ يَمْنَعُ يَدَهُ أَوْ يَقُولُ لَهُ: «مَاذَا تَفْعَلُ؟»" (دانيال ٤: ٣٤-٣٥).

في هذا الإعلانِ، أقرَّ نبوخذنصر بالحقيقةِ التاليةِ: أنَّ اللهَ صاحبُ السيادةِ الكاملةِ في شؤونِ البشرِ. وجميعُ الممالكِ والأممِ والحكوماتِ مسؤولةٌ أمامَهُ. ويتصرَّفُ فيها كيفما يشاءُ بحكمتِه. هو يرفَعُها ويذلُّها، يوسِّعُ تخومَها ثمَّ يعودُ فيصغّرُها.

إنَّ التاريخَ البشريَّ ليسَ سلسلةً منَ الأحداثِ العشوائيةِ التي لا يفهَمُها ولا يتحكَّمُ فيها أحدٌ؛ فالمسؤولُ عنهُ هو ذاتُ الشخصِ المسؤولِ عنِ الكونِ: إنَّهُ اللهُ خالقُ النجومِ وخالقُ الإنسانِ. قال نَبُوخَذْنَصَّرُ: "لاَ يُوجَدُ مَنْ يَمْنَعُ يَدَهُ أَوْ يَقُولُ لَهُ: «مَاذَا تَفْعَلُ؟»". فلا يمكنُ لأحدٍ أن يفسِدَ مقاصدَ اللهِ.

تنطبقُ هذهِ الحقيقةُ ذاتُها على الأممِ في مزمور ٣٣:

"الـرَّبُّ أَبْطَـلَ مُؤَامَـرَةَ الأُمَـمِ. لاَشَـى أَفْـكَارَ الشُّـعُوبِ. أَمَّـا مُؤَامَـرَةُ الـرَّبِّ فَإِلَـى الأَبَـدِ تَثْبُـتُ. أَفْـكَارُ قَلْبِـهِ إِلَـى دَوْرٍ فَـدَوْرٍ" (مزمـور ٣٣: ١٠-١١).

في نهايـةِ المطـافِ، سـيبرهنُ التاريـخُ كلُّـه على إتمـامِ قصـدِ اللهِ الأبـديِّ؛ إذ لا توجـدُ قـوةٌ في تاريـخِ البشريَّـةِ يمكنُهـا أنْ تقـاومَ خطـةَ اللهِ أو تحبِطَهَـا.

اللهُ يتحكمُ في مصائرِ الأشخاصِ

يـسري سـلطانُ اللهِ بـكلِّ مـا تحمِـلُ الكلمـةُ مـنْ معـانٍ إيجابيـةٍ على الأشـخاصِ. في سـفرِ أيـوب، قرأنَـا كيـفَ سـمحَ اللهُ أنْ يجتـازَ أيـوبُ في تجـاربَ مروِّعـةٍ وأشـكالٍ مختلفـةٍ مـنَ الألـمِ. ولكـنْ في النهايـةِ، نـالَ أيـوبُ إعلانًـا شـخصيًا عـنِ الإلهِ الـحيِّ، فـكانَ ذلك أغلى مـنْ كلِّ الـثروةِ الـتي فقدَهَـا. في الحقيقـةِ، إنَّ معانـاةَ أيـوبَ وآلامَـهُ تبـدو ضئيلـةً مقارنـةً بذلـكَ الإعـلانِ الشـخصيِّ. فبعدَمَـا اسـتقبَلَ أيـوبُ ذلـكَ الإعـلانَ، اعـترفَ للـربِّ قائـلًا: "قَـدْ عَلِمْـتُ أَنَّـكَ تَسْـتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلاَ يَعْـسُرُ عَلَيْـكَ أَمْـرٌ" (أيـوب ٤٢: ٢).

إذا اختبرْنَـا مثـلَ هـذا الإعـلانِ الذي اختـبَرَهُ أيـوبُ؛ حيـثُ ندركُ إدراكًا حقيقيًـا بـأنَّ اللهَ قـادرٌ على كلِّ شيءٍ، ولا يمكـنُ لأيِّ شيءٍ أنْ

يُفسِدَ خطةَ اللهِ أو يعرقِلَها، عندها لنْ يَكونَ هناك مجالٌ للقلقِ أو الخوفِ.

"الَّذِي فِيهِ [يسوع المسيح] أَيْضًا نِلْنَا نَصِيبًا، مُعَيَّنِينَ سَابِقًا حَسَبَ قَصْدِ [الله] الَّذِي يَعْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ حَسَبَ رَأْيِ مَشِيئَتِهِ" (أفسس ١: ١١).

أرجو أنْ تتمسَّكَ بهذهِ العبارةِ: "حَسَبَ قَصْدِ [الله] الَّذِي يَعْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ حَسَبَ رَأْيِ مَشِيئَتِهِ." فلا شيءَ خارجَ نطاقِ سيطرتِه، وما منْ شيءٍ يفلتُ أو يضيعُ من يدَيهِ، وهو لا ينسَى ولا يتغافلُ ولا يحتارُ، ولم يكنْ لديهِ حالةُ طوارئ؛ إذْ إنَّ كلَّ شيءٍ تحتَ سيطرتِهِ.

إضافةً لذلك، إنْ كنتَ تؤمنُ بيسوعَ المسيحِ، فكلُّ شيءٍ في حياتِكَ قد صُمِّمَ ليتمِّمَ قصدَ اللهِ الأبديَّ والسياديَّ.

"وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعًا لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ، الَّذِينَ هُمْ مَدْعُوُّونَ حَسَبَ قَصْدِهِ" (رومية ٨: ٢٨).

لا يهمُّ ما يحدثُ من أمورٍ في حياتِكَ، فقدْ تواجِهُكَ خيبةُ الأملِ، والإحباطاتُ، والتجاربُ، والمخاطرُ. رغمَ ذلكَ، يمكِنُك أن تمتلئَ يقينًا بأنَّ اللهَ يعملُ كلَّ شيءٍ لخيرِكَ.

كثيرونَ يستخدمونَ هذهِ الآيةَ الشائعةَ على أنَّها تَعني بوجهٍ عامٍّ أنَّ كلَّ شيءٍ يتحوَّلُ دائمًا للخيرِ، غيرَ أنَّ ذلكَ ليسَ صحيحًا

تمامًا إلا عندما تتوفَّرُ فينا هذه الشروطُ الثلاثةُ:

١) لا بدَّ أنْ نحبَّ اللهَ؛ إذ إنَّ هذا الوعدَ لا ينطبقُ إلا على من يحبُّونَ اللهَ.

٢) لا بدَّ أنْ نكونَ مدعوِّينَ منَ اللهِ؛ فهذا الأمرُ يَعني أننا يجبُ أنْ نعرفَ ما دعانا اللهُ لكي نفعَلَهُ وما نصيرُ عليهِ.

٣) يجبُ أنْ نسيرَ في خطةِ اللهِ التي أعدَّهَا لنا.

والخبرُ السارُّ الذي أزفُّه إليكمْ، أنَّهُ إذَا وفَّيْنَا بهذهِ الشروطِ الثلاثةِ، سندركُ أنَّ اللهَ يعملُ كلَّ شيءٍ يحدثُ لنا لخيرِنَا.

خلاصةُ القولِ: اللهُ يتحكَّمُ في النجومِ وفي التاريخِ البشريِّ ويتحكَّمُ في حياةِ الأشخاصِ. وفوقَ كلِّ شيءٍ، يحقِّقُ مقاصدَهُ في حياةِ الذينَ يحبُّونَهُ ويؤمنونَ بيسوعَ المسيحِ.

لدى اللهِ خطةٌ صالحةٌ لكلِّ واحدٍ منَّا، وسيظلُّ يعملُ لتحقيقِهَا حتى النهايةِ، فلا يمكنُ لأحدٍ أنْ يُحبِطَ تلكَ الخطةَ، وهذا هو الأمانُ الكاملُ في اللهِ!

ربما تعاني في حياتِكَ كنتيجةٍ لعدمِ فهمِكَ أنَّ اللهَ صاحبُ اليدِ العليا، وهو المتحكِّمُ في الأمورِ، وربَّما لم تدركْ حتى الآنَ أشواقَ الله تجاهَ إدارةِ شؤونِ حياتِكَ ومسارِهَا. وربَّما لم

تعـترفْ بهـذهِ الحقائـقِ مطلقًـا، لكنـكَ ترغـبُ في الاعـترافِ بهـا الآن. اســتجابةً لذلـكَ، هـل تصـلِّي مـعي الآنَ هـذه الصـلاةَ البسـيطةَ.

«يا ربّ، اعترافًا بالحقائـقِ التـي قرأتُهـا، أريـدُ أنْ أعلـنَ لـكَ وأشـهدَ أنـكَ صاحـبُ السيادةِ علـى الكـونِ والتاريـخِ البشـريّ، وأنكَ المتحكِّمُ في أحـداثِ العالمِ الحاليةِ، وفوقَ كلِّ شـيءٍ أنتَ المتحكِّمُ فـي حياةِ كلِّ شـخصٍ خلقتَـهُ بمـن فيهـم أنا.»

«إنـي أعتـرفُ فـي هـذه الصلاةِ بحبِّـكَ ورعايتِـكَ وإرشـادِكَ لحياتي. وأُعيدُ تكريسي ليسوعَ المسيحِ كربٍّ ومخلِّصٍ لحياتي. وأقـرُّ بكلمتِـكَ دسـتورًا لـي كمؤمـنٍ. إنـي أحبُّـكَ ربِّـي، وأؤمـنُ بأنّـكَ دعوتَنِـي، وأعلـنُ أمامَـكَ عـنْ صـدقِ قلبـي فـي أنْ أسـيرَ فـي مقاصدِكَ التي أعددَتْهَـا لي. ولصدقِ هـذا الوعـدِ، فأنتَ تعملُ كلّ الأشـياءِ فـي حياتـي لخيـرِ تحقيـقِ مقاصـدِكَ لـي.»

«إني أرفـعُ يـدي عن مقاليدِ حياتي وأسلِّمُها لك كاملةً. يا ربّ، أشـكرُكَ لأنـكَ الآن تتحكـمُ فـي كلِّ جانـبٍ مـن جوانـبِ حياتـي. آميـنْ.»

الفصلُ السادسُ
المراحلُ السبعُ في خطةِ اللهِ

في الفصلِ السابقِ، تمكَّنَّا من فهمِ أنَّ كلَّ شيءٍ في حياتِنا يعملُ لتحقيقِ خطةِ اللهِ من نحوِنا، ما دُمْنا نلبِّي الشروطَ الثلاثةَ. لذا لنرجعَ مرةً أخرى إلى رومية ٨: ٢٨، لا لشيءٍ إلا للتأكيدِ على هذا الحقِّ. "وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعًا لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ، الَّذِينَ هُمْ مَدْعُوُّونَ حَسَبَ قَصْدِهِ". في الآيتين اللتين تتبعان رومية ٨: ٢٨، يصفُ بولسُ كيفَ يعملُ اللهُ على تحقيقِ خطتِهِ في حياةِ كلِّ واحدٍ منَّا. كما يوضِّحُ لنا أنَّ تحقيقَ مقاصدِ اللهِ يستلزمُ سبعَ مراحل متتاليةٍ:

"لأَنَّ الَّذِينَ سَبَقَ فَعَرَفَهُمْ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ لِيَكُونُوا مُشَابِهِينَ صُورَةَ ابْنِهِ، لِيَكُونَ هُوَ بِكْرًا بَيْنَ إِخْوَةٍ كَثِيرِينَ. وَالَّذِينَ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ، فَهؤُلاَءِ دَعَاهُمْ أَيْضًا. وَالَّذِينَ دَعَاهُمْ، فَهؤُلاَءِ بَرَّرَهُمْ أَيْضًا. وَالَّذِينَ بَرَّرَهُمْ، فَهؤُلاَءِ مَجَّدَهُمْ أَيْضًا" (رومية ٨: ٢٩-٣٠).

هذه إذنْ هي المراحلُ السبعُ المتتاليةُ لمفهومِ خطةِ اللهِ وتحقيقِهَا.

- الله عرفنا
- الله اختارنا
- الله عيّننا
- الله دعانا
- الله خلَّصنا
- الله برَّرنا
- الله مجَّدنا

الصورةُ الكاملةُ

سنحتاجُ إلى دمجِ المقطعِ الذي ذكرناهُ سابقًا من رسالةِ رومية مع جزأينِ آخرين منَ الكتابِ المقدَّسِ في العهدِ الجديدِ للحصولِ على فكرةٍ أكثرَ اكتمالًا عن هذهِ المراحلِ في خطةِ اللهِ وكيفَ تتصلُ مع بعضِها البعضِ. وعندما نضعُ كلَّ هذه الآياتِ معًا سنفهمُ من خلالِها أهميةَ المراحلِ السبعِ المتتاليةِ في خطةِ اللهِ الكاملةِ.

لذا دعونا نبدأُ في التعرفِ على صورةٍ أكثر اكتمالًا بالبحثِ في

أحـدِ المقاطـعِ مـن رسـالةِ أفسـس:

"مُبَـارَكٌ اللهُ أَبُـو رَبِّنَـا يَسُـوعَ الْمَسِـيحِ، الَّـذِي بَارَكَنَـا بِـكُلِّ بَرَكَـةٍ رُوحِيَّـةٍ فِـي السَّـمَاوِيَّاتِ فِـي الْمَسِـيحِ، كَمَـا اخْتَارَنَـا فِيـهِ قَبْـلَ تَأْسِـيسِ الْعَالَـمِ، لِنَكُـونَ قِدِّيسِـينَ وَبِـلاَ لَـوْمٍ قُدَّامَـهُ فِـي الْمَحَبَّـةِ، إِذْ سَـبَقَ فَعَيَّنَنَـا لِلتَّبَنِّـي بِيَسُـوعَ الْمَسِـيحِ لِنَفْسِـهِ، حَسَـبَ مَسَـرَّةِ مَشِـيئَتِهِ" (أفسـس ١: ٣-٥).

يسـتعرضُ هـذا المقطـعُ نفـسَ الحقائـق الـتي رأيناهـا سـابقًا، فيوضـحُ أنَّ اللهَ لديـهِ خطـةٌ وعازمٌ على تحقيقِهـا، وأننـا نحـنُ المؤمنـينَ في قلـبِ هـذه الخطـةِ ومحورِهـا. قـد يبـدو الأمـرُ مثيرًا للعجـبِ، إلا أننـا محـورُ تصميـمِ خطـةِ اللهِ الأبديـةِ. وفي وصـفِ تتميـمِ تلـكَ الخطـةِ، أضـافَ بولـسُ مرحلـةً لـم يذكرْهَـا في رومية الإصحـاح الثامـن. في أفسـس ١: ٤ نقـرأ: "كَمَـا اخْتَارَنَـا [الله] فِيـهِ [المسيح] قَبْـلَ تَأْسِـيسِ الْعَالَـمِ..".

لقـد اختارَنـا اللهُ في المسـيحِ. ومـن المهـمِّ لنـا أنْ نـدركَ أنّ هـذا الاختيـارَ لـم يحـدثْ داخـلَ حـدودِ الزمـنِ، أو في نقطـةٍ زمنيـةٍ معينـةٍ مـنَ التاريـخِ البـشريِّ؛ إذ قـد اختارَنـا قبـلَ تأسـيسِ العالمِ. إنهـا فكرةٌ مذهلـةٌ سنكتشـفُ أبعادَهـا بمزيـدٍ مـنَ التفصيـلِ لاحقًـا. وفي القائمةِ الـتي أشرتُ إليهـا سـابقًا، سـجلتُ هـذهِ الحقيقـةَ في المرتبـةِ الثانيـةِ بـين المراحـلِ السـبع، لأنهـا كالنقطـةِ الأولى حدثـتْ أيضًـا في الأزلِ.

توجـدُ نقطـةٌ أخـرى في الكتـابِ المقـدسِ تضيـفُ إلينـا بُعـدًا

آخـرَ في تكويـنِ الصـورةِ الكاملـةِ عـنِ المراحـلِ السـبع لخطـةِ اللهِ الكاملـةِ. في المقطـعِ التـالي مـن رسـالة تيموثـاوس الثانيـة نفهـمُ أنَّ خلاصَنـا هـو جـزءٌ مـن خطـةِ اللهِ (في التسلسـل الطبيـعي، وضعـت ترتيـب "خـلاص الله لنـا" في المرتبـة الخامسـة).

"[الله] الَّـذِي خَلَّصَنَـا وَدَعَانَـا دَعْـوَةً مُقَدَّسَـةً، لاَ بِمُقْتَضَـى أَعْمَالِنَـا، بَـلْ بِمُقْتَضَـى الْقَصْـدِ وَالنِّعْمَـةِ الَّتِـي أُعْطِيَـتْ لَنَـا فِـي الْمَسِـيحِ يَسُـوعَ قَبْـلَ الأَزْمِنَـةِ الأَزَلِيَّـةِ" (٢تيموثـاوس ١: ٨-٩).

مثلمـا ركَّـز بولـسُ على هـذه الفكـرةِ في الآياتِ الـواردةِ في رسـالةِ أفسـس، أكـدَ بولـسُ لتيموثـاوسَ أنَّ خطـةَ اللهِ لـم تبـدأْ في زمـنٍ معـينٍ، لكنهـا منـذُ الأزلِ. ولـم تكـنْ خطـةُ الله كاسـتراتيجيةِ إعلانِ الطـوارئِ، أي كفكـرةٍ طارئـةٍ ابتكرَهـا عندمـا بـدأتِ البشريـةُ في مواجهـةِ المشـاكلِ الـتي تسـبَّبتْ فيهـا. لكنَّهـا قـد تصـوَّرتْ واسـتقرَّتْ في ذهـنِ اللهِ مـن قَبـلِ أن يدشِّـنَ التاريـخُ سـجلَّاتِه.

إننـا في احتيـاجٍ لتكويـنِ منظـورٍ جديـدٍ، منظـورٍ داخـليٍّ عـن ذواتِنـا وعـن الظـروفِ المحيطـةِ بنـا. لذا يجـبُ ألا نمعِـنَ النظـرَ في مشـكلاتِ الزمـانِ الحـاضرِ وأمـورِهِ المربِكـةِ والمزعِجـةِ. نحـن بحاجـةٍ إلى أن نقـولَ مـع إشـعياءَ: "ارْفَعُـوا إِلَى الْعَـلاَءِ عُيُونَكُـمْ وَانْظُـرُوا... مَـنِ الَّـذِي يُخْـرِجُ بِعَـدَدٍ جُنْدَهَـا." (إشـعياء ٤٠: ٢٦). فنحـن إذًا بحاجـةٍ إلى التأمـلِ في الشـخصِ الذي خلـقَ الكـونَ ويسـيطرُ عليـهِ. ونحـنُ بحاجـةٍ لفهـمِ

أنَّ الإلهَ الذي يحكمُ هذا الكونَ هو الإله ذاتُهُ الذي لديهِ خطةٌ ليتمِّمَها في حياتِنا. فكم نحتاجُ أنْ ندركَ لطفَ اللهِ ورحمتَه وروعتَه، حتى أنهُ من خلالِ كلمتِهِ الثمينةِ يكشفُ لنا عن الطريقِ التي سيتمِّمُ بها هذه الخطةَ.

المراحلُ السبع

إذا جمعنا كلَّ مقاطعِ الكتابِ المقدسِ المختلفةِ التي درسناها للتوِّ، يمكنُنا أنْ نفهمَ المراحلَ السبعَ المتتاليةَ لخطةِ اللهِ بترتيبِها الطبيعيِّ. لذا دعونا نستعرضُ هذه المراحلَ تمهيدًا لاستكشافِها ودراستِها بمزيدٍ من التفصيلِ في الفصولِ القادمةِ.

١) الله عَرَفَنَا

أولُ كلِّ شيءٍ، اللهُ سَبَق فعرفنَا، فهو لديهِ المعرفةُ الكاملةُ التي سنفحصُها عنْ قربٍ في الفصلِ التالي. يبني اللهُ كلَّ شيءٍ بناءً على معرفتِهِ. وقد تتساءلُ فيما يتعلَّقُ بظرفٍ معيَّنٍ، كيف علمَ اللهُ أنَّ كلَّ الأحداثِ ستعملُ بهذهِ الطريقةِ؟ اللهُ كليُّ المعرفةِ، فالماضي والحاضرُ والمستقبلُ معروفٌ لديهِ على حدٍّ سواء. ومنَ المهمِّ للغايةِ أنْ نفهمَ أنَّ كلَّ شيءٍ ينبعُ من معرفةِ اللهِ المسبقةِ. ولا يوجدُ في طرقِ اللهِ شيءٌ عشوائيٌّ أو متهورٌ أو عَرَضيٌّ، إذ إنه يتصرف من واقعِ معرفةٍ كاملةٍ.

٢) الله اختارَنَا

ثانيًا، اختارَنَا اللهُ على أساسِ علمِهِ المسبقِ. لقد اختارَنَا لنكونَ ملكًا لقصدٍ معيَّنٍ.

"مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بَارَكَنَا بِكُلِّ بَرَكَةٍ رُوحِيَّةٍ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ، كَمَا اخْتَارَنَا فِيهِ قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، لِنَكُونَ قِدِّيسِينَ وَبِلاَ لَوْمٍ قُدَّامَهُ فِي الْمَحَبَّةِ" (أفسس ١: ٣-٤).

٣) الله عيَّنَنا

بعدَ أنِ اختارَنَا اللهُ، عَيّنَنَا. قد لا يحبُّ البعضُ كلمةَ "عيَّننا" أو يرونها كلمةً مخيفةً. ولكنْ، بلغةٍ واضحةٍ وبسيطةٍ، إليك معنى الكلمةِ في سياقِ هذه المراحلِ السبعِ لخطةِ اللهِ. "وضعَ اللهُ مسارَ حياتِنا الذي من المفترضِ أنْ تسلَكُه حتى تتحقَّقَ مقاصدُه."

وأعتقدُ أنكَ تستطيعُ فهمَ خطةِ اللهِ وتتميمَها فهمًا مباشرًا ومنطقيًا. ويجبُ أنْ تسيرَ كلَّ هذه الخطواتِ معًا، وبهذا الترتيبِ. لقد عرفْنا اللهَ، وعلى أساسِ معرفتِهِ المسبقةِ اختارَنَا فيهِ. ولتفعيلِ اختيارِهِ سبقَ فعيَّنَنا، فحدَّدَ لنا مسبقًا مسارَ حياتِنَا الذي علينَا أن نسلُكَه. كلُّ واحدةٍ من هذهِ المراحلِ حدثتْ منذُ الأزلِ قبلَ تأسيسِ الخليقةِ. وقبلَ أنْ يأخذَ التاريخُ مسارَهُ، صمَّمَ اللهُ هذهِ المقاصدَ، وأعدَّ مسبقًا طرقَ تحقيقِهَا وإتمامِهَا.

٤) الله دَعانَا

الآن ننتقلُ من الأبديِّ إلى ما هو زمنيّ. وفي حياةِ كلِّ واحدٍ منَّا نتواجَهُ مع لحظةٍ مهمةٍ جدًّا، وهي المرحلةُ التي فيها تؤثرُ مقاصدُ اللهِ الأبديةُ علينا بصفةٍ فرديةٍ. فعندَ دعوةِ اللهِ لنا تنتقلُ مقاصدُهُ الأبديةُ من الواقعِ الأزليِّ والأبديِّ إلى واقعِ زمانِنَا الحاضرِ وحياتِنَا التي نحياها على الأرضِ. يحملُ الفعلُ "دعا" اثنَينِ من المعاني هما: "طلبَ" أو "استدَعَى- أرسلَ في طلبِ...". إنَّ دعوةَ اللهِ هي طلبٌ، لكنهُ طلبٌ يحملُ في طياتِهِ أيضًا سطلةَ استدعاءِ الملوكِ لرعاياهم.

٥) الله خلَّصَنَا

المرحلةُ التاليةُ هي دعوتُنا للانضمامِ إلى عائلةِ اللهِ منْ خلالِ الإيمانِ بيسوعَ المسيحِ. عندما استجَبْنا لهذهِ الدعوةِ استجابةً إيجابيةً، نلنا خلاصَ اللهِ. لقد أعتَقَنَا من الخطيةِ؛ من ذنبِها وسطوتِها ودنسِها. وأعطانا اللهُ خلاصًا كاملًا بواسطةِ يسوعَ المسيحِ.

٦) الله برَّرَنَا

عندما نلنا الخلاصَ برَّرَنا اللهُ. إنَّ كلمةَ "مُبرَّر" مصطلحٌ لاهوتيٌّ تِقَنِيٌّ إلى حدٍّ ما. وتحملُ عدةَ معانٍ تتناسبُ مع بعضِها البعضِ. المعنى الأوَّلُ: أُبرِئَ من ذنبٍ ما [أنْ يُعلَنَ رسميًّا أنَّ

شخصًا ما غيرُ مذنبٍ بارتكابِ الجريمةِ التي اتُّهم بارتكابها]، المعنى الثاني، صارَ ضمنَ مَن نالوا البراءةَ؛ أي حُسِبَ غيرَ مذنبٍ. أما المعنى الثالثُ فهو صارَ مبررًا. لذلك، استنادًا إلى أننا قد نلنا الخلاصَ بالإيمانِ بيسوعَ المسيحِ نلنا براءةً منْ كلِّ ذنبٍ، فحُسِبْنَا أبرارًا ومِنْ ثمَّ صرْنَا في الوقتِ المناسبِ أبرارًا. غيرَ أنَّ التبريرَ ليسَ المرحلةَ الأخيرةَ التي نختبرُهَا في خطةِ اللهِ الأبديَّةِ.

٧) الله مجَّدَنا

كثيرون من المسيحيينَ يتوقفونَ في اعتقادي عندَ مفهومِ نوالِ التبريرِ. لكنَّ اللهَ لم يكتفِ بهذَا، بل مجَّدَنا أيضًا. يا لروعةِ المرحلةِ السابعةِ في خطةِ اللهِ الأبديةِ.

يقول الكتابُ المقدسُ إننا قد تبرَّرْنا بفضلِ قيامةِ المسيحِ، وبفضلِ صعودِهِ صِرْنا ممجَّدين. إننا نتَّحدُ مع المسيحِ في كلِّ جانبٍ منْ هذهِ الجوانبِ: في موتِهِ ودفنِه وقيامتِهِ وصعودِهِ. فكلُّ هذهِ المراحلِ تقودُنا نحوَ الهدفِ. لنتشاركَ في مجدِ المسيحِ ونأخذَ مكانَنَا معَهُ على عرشِهِ إلى الأبدِ. وغايةُ رحلتِنَا أنْ نتشارَكَ في مجدِ اللهِ على العرشِ مع يسوعَ المسيحِ إلى أبدِ الآبدينَ.

فلنتأملِ الآنَ في كلِّ مرحلةٍ منْ مراحلِ خطةِ اللهِ المتتاليةِ بالتفصيلِ.

الفصل السابع

المرحلةُ الأولى: الله عَرفَنَا

المرحلــةُ الأولى في خطــةِ اللهِ هي أنَّــهُ "قــد عرَفنــا" وفهِمْنَــا أنَّ اللهَ، منــذُ الأزلِ، قــد ســبقَ فعرَفَنَــا واختارَنَــا وعيَّنَنَــا حســبَ قصــدِهِ. وتبــدأُ خطتُــهُ دائمًــا بعلمِــهِ المســبقِ؛ إذْ كتــبَ الرســولُ بولــس:

"لأَنَّ الَّذِيـنَ سَـبَقَ [الله] فَعَرَفَهُـمْ سَـبَقَ فَعَيَّنَهُـمْ لِيَكُونُـوا مُشَـابِهِينَ صُـورَةَ ابْنِـهِ" (رومية ٨: ٢٩).

عــبَّرَ الرســولُ بطــرسُ عــنِ الإعــلانِ ذاتِــهِ، لكنَّــهُ اســتخدَمَهُ بالأخــصِّ على اختيــارِ اللهِ لنَــا.

"بُطْرُسُ، رَسُـولُ يَسُـوعَ الْمَسِيحِ، إِلَى الْمُتَغَرِّبِيـنَ مِنْ شَـتَاتِ بُنْتُـسَ وَغَلاَطِيَّةَ وَكَبَّدُوكِيَّــةَ وَأَسِــيَّا وَبِيثِينِيَّــةَ، الْمُخْتَارِيــنَ بِمُقْتَضَــى عِلْــمِ اللهِ الآبِ السَّــابِقِ..." (١بطـرس الأولـى ١: ١-٢).

يؤكــدُ هــذانِ المقطعــانِ الكتابيَّــانِ على أنَّ معرفــةَ اللهِ المســبقةَ تــأتي دائمًــا أولًا. إنَّ اختيــارَ اللهِ ينبــعُ مــنْ معرفتِــهِ المســبقةِ، ومــن اختيــارِهِ ينبــعُ تعييننُــا. فالمعرفــةُ المســبقةُ تعــني ببســاطةٍ أنَّ اللهَ يعلــمُ مســبقًا. هــذهِ المعرفــةُ جــزءٌ مــنْ معرفتِــهِ الكاملــةِ. وفي اعتقــادي أنَّــهُ

لا توجدُ صفةٌ للهِ أكثرُ روعةً منْ معرفتِهِ الكاملةِ. وعندما نتأمَّلُ بعمقٍ في صفاتِ اللهِ علينا أنْ ننحنيَ بكلِّ وقارٍ وإجلالٍ.

اللهُ كليُّ المعرفةِ

لنلخِّصْ بإيجازٍ نطاقَ معرفةِ اللهِ. أولُ كلِّ شيءٍ وببساطةٍ شديدةٍ، هو يعرفُ كلَّ شيءٍ! ولا يجبُ أنْ نغفلَ تلكَ الحقيقةَ. كتبَ يوحنَّا: "اللهُ أَعْظَمُ مِنْ قُلُوبِنَا، وَيَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ." (١ يوحنا ٣: ٢٠).

هل تعلمُ أنَّ كلمةَ "كُلَّ شَيْءٍ" تَعني حرفيًّا وضمنيًّا "كُلَّ شَيْءٍ". فلا يوجدُ شيءٌ على الإطلاقِ في الماضي أو الحاضرِ أو المستقبلِ، سواءَ على الأرضِ أو في أقصى الكونِ لا يعرفُهُ اللهُ. إنهُ يعرفُ الكلَّ، منْ أكبرِ الأشياءِ إلى أصغَرِها. وفيما يلي نستعرضُ بعضَ هذه الأشياءِ التي يعرفُها اللهُ دونَ سِواه.

اللهُ يعرفُ النجومَ

في وقتٍ سابقٍ رأيْنَا أنَّ اللهَ لديهِ معرفةٌ عميقةٌ ودقيقةٌ وشخصيةٌ بالنجومِ. فيقولُ مزمور ١٤٧: ٤: "يُحْصِي عَدَدَ الْكَوَاكِبِ. يَدْعُو كُلَّهَا بِأَسْمَاءٍ." وفي إشعياء ٤٠: ٢٦ يؤكدُ الفكرةَ ذاتَهَا فيقولُ: "مَنِ الَّذِي يُخْرِجُ بِعَدَدٍ جُنْدَهَا، يَدْعُو كُلَّهَا بِأَسْمَاءٍ؟" ورغمَ وجودِ مليارات ومليارات منَ النجومِ، فإنَّ اللهَ يعرفُ كلَّ واحدٍ منها بالتحديدِ.

إنـهُ يعـرفُ اسـمَ كلِّ واحـدٍ منهـا، ويدعـو كلَّ واحـدٍ منهـا باسـمِهِ، وكلُّ النجـومِ تسـتجيبُ لصـوتِ ندائِـهِ. مـا أروعَ هـذا المشـهدِ!

الله يعرفُ العصافيرَ

لا تقتـصرُ معرفـةُ اللهِ على النجـومِ فحسـبْ، بـل تتنـازلُ إلى معرفـةِ العصافـيرِ أيضًـا؛ فـهي أكـثرُ الطيـورِ شـيوعًا في الخليقـةِ. توجدُ العصافـيرُ في جميـعِ مناطـقِ العالـمِ تقريبًـا. وفي رحـلاتي إلى العديـدِ مـن الدولِ، لا أتذكـرُ ولا بـلدًا واحـدًا لـم أرَ فيـهِ عصافـيرَ. وهـذهِ النوعيـةُ مـن الطيـورِ لا تحظَـى إلا بتقديـرٍ ضئيـلٍ للغايـةِ؛ فـلا أحـدَ يهتـمُّ كثـيرًا بهـا. فـإذا عُـثرَ على عصفـورٍ ميـتٍ في بالوعـةٍ أو مـزرابِ صرفٍ للميـاهِ، فبضعـةُ أشـخاصٍ قـد يهتمـونَ لأمـرِهِ. لكـن مـاذا عـنْ رأيِ يسـوعَ في العصافـيرِ؟ قـالَ يسـوعُ: "أَلَيْسَ عُصْفُـورَانِ يُبَاعَـانِ بِفَلْـسٍ؟ وَوَاحِـدٌ مِنْهُمَـا لاَ يَسْـقُطُ عَـلَى الأَرْضِ بِـدُونِ أَبِيكُـمْ." (متى ١٠: ٢٩).

تشـيرُ الآيـةُ السـابقةُ إلى أنَّ عصفورَيْـنِ يُبـاعَانِ بفلـسٍ واحـدٍ، لكـنْ في موضـعٍ آخـرَ قـالَ يسـوعُ: "أَلَيْسَـتْ خَمْسَـةُ عَصَافِـيرَ تُبَـاعُ بِفَلْسَـيْنِ، وَوَاحِـدٌ مِنْهَـا لَيْـسَ مَنْسِـيًّا أَمَـامَ اللهِ؟" (لوقـا ١٢: ٦).

لاحـظِ العمليـةَ الحسـابيةَ لهاتَـيْنِ العبارتَـيْنِ. إذا كانَ بإمكانِـكَ الحصـولُ على عصفورَيْـن بفلـسٍ واحـدٍ، فعندئـذٍ، وبنفـسِ المبـدأ الحسـابيِّ، سـتحصلُ على أربعـةِ عصافـيرَ مقابـلَ فلسَـيْنِ. لكـن على

ما يبدو عندما استثمرتَ فلسَين حصلتَ على خمسةِ عصافيرَ؛ أيْ أنَّ العصفورَ الخامسَ كانَ بالمجَّانِ. قالُ يسوعُ إنَّ هذا العصفورَ الخامسَ ليسَ منسيًّا أمامَ اللهِ.

سمعتُ مرةً من أحدِ الأشخاصِ العبارةَ التاليةَ التي جعلَتْنِي أبكي، قالَ: "يخصِّصُ اللهُ وقتًا لجنازةِ عصفورٍ." ولأننا نعتبرُ العصافيرَ ليستْ ذاتَ أهميةٍ، لا نُبدِي لها اهتمامًا. لكنَّ اللهَ يعرفُ كلَّ واحدٍ منها، ولا يسقُطُ واحدٌ منها على الأرضِ بدونِ علمِ الآبِ.

اللهُ يعرفُ عددَ شعورِ رؤوسِنَا

هناك حقيقةٌ أخرى يعلمُ اللهُ تمامًا أننا لسنا على علمٍ بها، وهي عددُ شعورِ رؤوسِنا؛ إذ يقولُ: "وَأَمَّا أَنْتُمْ فَحَتَّى شُعُورُ رُؤُوسِكُمْ جَمِيعُهَا مُحْصَاةٌ." (متى ١٠: ٣٠؛ انظر أيضًا لوقا ١٢: ٧). ليس أحدٌ يستطيعُ أنْ يحسبَ بدقةٍ عددَ شعرِ رأسِهِ. البعضُ منَّا لديهِ شعرٌ غزيرٌ، والبعضُ الآخرُ لا يمتلكُ إلا القليلَ منهُ، لكن حتَّى هؤلاءِ لا يمكِنُهُم إحصاءُ جميعِ خصلاتِ شعورِهِم خصلةً خصلةً. ومع ذلكَ، تشهدُ العبارةُ التي قالَها يسوعُ على أنَّ اللهَ يعرفُ عددَ شعيراتِ رأسِ كلِّ إنسانٍ في العالمِ اليومَ.

اللهُ يعرفُنا معرفةً كاملةً

إنَّ اللهَ يعرفُ أيضًا كلَّ واحدٍ منا بجملتِنا، ويوجدُ مقطعٌ رائعٌ في المزمور ١٣٩ عبَّرَ فيه الملكُ داودُ عنْ دهشتِهِ من معرفةِ اللهِ بهِ؛ حيثُ ارتفعتْ شهقاتُ تعجُّبِ داودَ من هذهِ المعرفةِ فقالَ:

"يَا رَبُّ، قَدِ اخْتَبَرْتَنِي وَعَرَفْتَنِي. أَنْتَ عَرَفْتَ جُلُوسِي وَقِيَامِي. فَهِمْتَ فِكْرِي مِنْ بَعِيدٍ. مَسْلَكِي وَمَرْبَضِي ذَرَّيْتَ، وَكُلَّ طُرُقِي عَرَفْتَ. لأَنَّهُ لَيْسَ كَلِمَةٌ فِي لِسَانِي، إِلاَّ وَأَنْتَ يَا رَبُّ عَرَفْتَهَا كُلَّهَا. مِنْ خَلْفٍ وَمِنْ قُدَّامٍ حَاصَرْتَنِي، وَجَعَلْتَ عَلَيَّ يَدَكَ. عَجِيبَةٌ هذِهِ الْمَعْرِفَةُ، فَوْقِي ارْتَفَعَتْ، لاَ أَسْتَطِيعُهَا. أَيْنَ أَذْهَبُ مِنْ رُوحِكَ؟ وَمِنْ وَجْهِكَ أَيْنَ أَهْرُبُ؟" (مزمور ١٣٩: ١-٧).

تأمَّلْ فيما قالَه داودُ، إنَّ اللهَ يعرفُ أفكارَنا من بعيدٍ. وسمعتُ ذاتَ مرةٍ رجلًا قد تلقَّى هذا الإعلانَ منَ اللهِ: "كصوتِ الإنسانِ على الأرضِ، هكذا يُسْمَعُ صوتُ أفكارِ قلبِهِ في السماءِ." وكانَ هذا الإعلانُ بمثابةِ صدمةٍ لي. لكنَّ هذا ما كانَ يشيرُ إليهِ داودُ في هذا المزمورِ؛ إذ يقولُ: "فَهِمْتَ فِكْرِي مِنْ بَعِيدٍ. مَسْلَكِي وَمَرْبَضِي ذَرَّيْتَ." بمعنى آخر: "أنت تعرفُ الطريقَ التي أسلكُ فيها، لذلكَ فأنتَ تعرفُ أينَ تجِدُني في أيِّ لحظةٍ." ثم يقولُ: "وَكُلَّ طُرُقِي عَرَفْتَ. لأَنَّهُ لَيْسَ كَلِمَةٌ فِي لِسَانِي، إِلاَّ وَأَنْتَ يَا رَبُّ عَرَفْتَهَا كُلَّهَا." إنَّ اللهَ يعرفُ ما سنتفوَّهُ بهِ قبلمَا ننطقُ بهِ. ثم يردفُ قائلًا: "مِنْ خَلْفٍ وَمِنْ قُدَّامٍ حَاصَرْتَنِي، وَجَعَلْتَ عَلَيَّ يَدَكَ." وبكلِّ تأكيدٍ، حينَ نتأمَّلُ هذا

الإعـلانَ الحقيـقيَّ فلابـدَّ أنْ نـردِّدَ صـدى كلمـاتِ داودَ: "عَجِيبَـةٌ هـذِهِ الْمَعْرِفَـةُ، فَـوْقِي ارْتَفَعَـتْ، لاَ أَسْـتَطِيعُهَا."

ثـم قـال داودُ: "أَيْـنَ أَذْهَـبُ مِـنْ رُوحِـكَ؟" إنَّ روحَ اللهِ هـو مفتـاحُ تفسـيرِ معرفـةِ اللهِ لـكلِّ شيءٍ في الكـونِ كلِّـه، وهـو يتغلغـلُ في أرجـاءِ الكـونِ كلِّـهِ. ولا يوجـدُ مـكانٌ لا يوجـدُ فيـهِ روحُ اللهِ، الذي مـنْ خلالِهِ يعـرفُ اللهُ كلَّ تفصيلـةٍ مـنْ تفاصيلِ هـذهِ القائمـةِ التي كنَّـا نفحَصُهَا.

اللهُ يعرفُنا معرفةً شخصيةً

نـرى في مزمـور ١٣٩ مـا هـو أبعـدَ مـنْ ذلـكَ، إذْ نجـدُ داودَ يتحـدثُ عـنْ معرفـةِ اللهِ الشـخصيةِ بـهِ:

"لأَنَّكَ أَنْتَ اقْتَنَيْتَ كُلْيَتَيَّ. نَسَجْتَنِي فِي بَطْنِ أُمِّي" (مزمور ١٣٩: ١٣).

قـالَ داودُ إنـهُ قبـلَ أنْ يـولدَ في هـذا العالـمِ، كانَ اللهُ يشـكِّلُ فيـهِ داخـلَ بطـنِ أمِّـه.

"أَحْمَـدُكَ مِـنْ أَجْـلِ أَنِّي قَـدِ امْتَـزْتُ عَجَبًـا. عَجِيبَـةٌ هِـيَ أَعْمَالُـكَ، وَنَفْسِـي تَعْـرِفُ ذلِـكَ يَقِينًـا. لَـمْ تَخْتَـفِ عَنْـكَ عِظَامِـي حِينَمَـا صُنِعْـتُ فِـي الْخَفَـاءِ، وَرُقِمْـتُ فِـي أَعْمَـاقِ الأَرْضِ" (مزمـور ١٣٩: ١٤-١٥).

عنـد رؤيـةِ تجـاوبِ داودَ مـع هـذهِ الحقيقـةِ، يجـبُ أنْ أعـترفَ

بأنـني أشـعرُ بـذاتِ المشـاعرِ. عندمـا أتأمـلُ في معرفـةِ اللهِ، تغمُـرُني مشـاعرُ الحمـدِ والتسـبيحِ والخشـوعِ.

مـنَ المدهـشِ أنْ نتأمـلَ أنَّ اللهَ قـد خلـقَ الإنسـانَ مـنْ تـرابٍ (انظـر تكويـن ٢: ٧). لكـنَّ مـا يزيـدُ الدهشـةَ إدراكُنـا أنَّ اللهَ قـدْ شـكَّلَ هـذا الـترابَ في أعمـاقِ الأرضِ قبـلَ أن يسـتخدِمَه في خلـقِ الإنسـانِ. فلـم يبـدأ اللهُ بالـترابِ فحسـبْ، بـلْ بـدأَ بالعمليـاتِ الكيميائيَّـةِ في الأرضِ الـتي أنتجـتْ في النهايـةِ الـترابَ الذي خَلَقَنـا بهِ.

قال داودُ، مواصلًا التعليقَ على هذهِ العمليةِ المدهشةِ:

"رَأَتْ عَيْنَـاكَ أَعْضَائِي، وَفِـي سِـفْرِكَ كُلُّهَـا كُتِبَـتْ يَـوْمَ تَصَـوَّرَتْ، إِذْ لَـمْ يَكُـنْ وَاحِـدٌ مِنْهَـا" (مزمـور ١٣٩: ١٦).

كان داودُ يقـولُ للـربِّ: "لقـد عرفـتَ كلَّ مرحلـةٍ يمـرُّ بهـا جسـدي، وكنـتَ تعـرفُ مـتَى سيتشـكَّلُ كلُّ عضـوٍ مـنْ أعضـائي. وقـدْ عرفـتَ مـتى يحـدثُ كلُّ حـدثٍ مـن أحـداثِ حيـاتي. ولا يوجـدُ شيءٌ في حيـاتي لـمْ تعرفْـهُ لا في الحـاضرِ، ولا في المسـتقبلِ."

معرفةُ اللهِ أزليةٌ

إذا جَمَعْنَـا مـا بـينَ إعـلانِ داودَ مـعَ كلمـاتِ بولـسَ وبطـرسَ في بدايـةِ هـذا الإصحـاحِ، سـنرى أنَّ معرفـةَ اللهِ هي منـذُ الأزلِ.

وبروحِـهِ يعـرفُ اللهُ المـاضيَ والحـاضرَ والمسـتقبلَ. إنـهُ يعـرفُ أكـبرَ الأشـياءِ وأصغرَهَـا، الأشـياءَ المهمـةَ وغـيرَ المهمـةِ. كمـا يعـرفُ طبيعتَنَـا الداخليـةَ والخارجيـةَ، ويعـرفُ طبيعتَنَـا الجسـديَّةَ وتركيبتَنَـا الوجدانيَّـةَ. اللهُ كليُّ العلـمِ والمعرفـةِ وعلمُـهُ مسـبقٌ. كلُّ شيءٍ في خطـةِ اللهِ مـنْ نحوِنَـا ومـنْ نحـوِ الكـونِ مبـنيٌّ على علمِـهِ المسـبقِ. ومـن علمِـهِ المسـبقِ تنبثـقُ كلُّ جوانـبِ مقاصـدِهِ.

الفصل الثامن

المرحلةُ الثانية: الله اختارَنَا

المرحلـةُ الثانيـةُ في خطـةِ اللهِ "اختارنـا". أولًا عرَفَنـا، ثـمَّ اختارَنَـا. بينمـا نتنـاولُ النقـاشَ مـنَ الفصـولِ السـابقةِ لنسـترجعَ معًـا بعـضَ المقاطـعِ مـنَ الكتـابِ المقـدسِ.

اللهُ هو المسؤولُ

أولًا، لنتذكرْ هذهِ الكلماتِ في رسالةِ أفسسَ:

"مُبَـارَكٌ اللهُ أَبُـو رَبِّنَـا يَسُـوعَ الْمَسِـيحِ، الَّـذِي بَارَكَنَـا بِـكُلِّ بَرَكَـةٍ رُوحِيَّـةٍ فِـي السَّـمَاوِيَّاتِ فِـي الْمَسِـيحِ، كَمَـا اخْتَارَنَـا فِيـهِ قَبْـلَ تَأْسِـيسِ الْعَالَـمِ، لِنَكُـونَ قِدِّيسِـينَ وَبِـلاَ لَـوْمٍ قُدَّامَـهُ فِـي الْمَحَبَّـةِ" (أفسـس ١: ٣-٤).

تركِّـزُ هـذهِ الآيـاتُ على حقيقـةِ اختيـارِ اللهِ لنـا وعلى خطتِـهِ الـتي تعمـلُ فينـا المبنيـةِ على اختيـارِهِ. وحسـبَ مـا قـالَهُ بولـسُ، اختارَنَا اللهُ "لِنَكُـونَ قِدِّيسِـينَ وَبِـلاَ لَـوْمٍ قُدَّامَـهُ." ويجـبُ أنْ أعـترفَ أنـه إنْ لـم يكـنِ اللهُ قـدِ اختارَنـا، لـم يكـنْ لي أنْ أؤمـنَ بـأنَّ القداسـةَ الـتي يتكلـمُ عنهـا بولـسُ قـد تحـدثُ يومًـا مـا. لذا فإيمـاني مبـنيٌّ على الحقيقـةِ القائلـةِ بـأنَّ اللهَ (ليـسَ أنـا) هـوَ مَـن قـرَّرَ أن يختارَنَـا. فـإذا كانَ اللهُ

نفسُه هو الذي أسسَ هذا الاختيارَ فيُمكِنُني إذنْ أنْ أقولَ بكلِّ احترامٍ وخشوعٍ: "إنها مسؤوليتُه أن يرَى القداسةَ تتحقَّقَ".

اللهُ هو المبادرُ

بالنسبةِ للنقطةِ التاليةِ، لنلقِ نظرةً ثانيةً على المقطعِ التالي من رسالةِ بطرسَ الأولى ١: ١:

"بُطْرُسُ، رَسُولُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، إِلَى الْمُتَغَرِّبِينَ مِنْ شَتَاتِ بُنْتُسَ وَغَلاَطِيَّةَ وَكَبَّدُوكِيَّةَ وَأَسِيَّا وَبِيثِينِيَّةَ، الْمُخْتَارِينَ بِمُقْتَضَى عِلْمِ اللهِ الآبِ السَّابِقِ، فِي تَقْدِيسِ الرُّوحِ لِلطَّاعَةِ، وَرَشِّ دَمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ: لِتُكْثَرْ لَكُمُ النِّعْمَةُ وَالسَّلاَمُ" (١بطرس ١: ١-٢).

كما أشرتُ سابقًا، فاللهُ عرفَنَا ثم اختارَنَا، واختيارُهُ دائمًا مبنيٌّ على علمِهِ المسبقِ. يجبُ أنْ تُريحَنَا هذهِ المعرفةُ من مشاعرِ القلقِ. إنْ كانَ اللهُ قدِ اختارَنَا لننجزَ عملًا ما، فاختيارُهُ هذا لأنهُ يعلمُ أننا بنعمتِهِ سنتمكَّنُ منْ أنْ نتمِّمَ العملَ الذي قدْ سبقَ فعيَّنَهُ لنا. منَ المهمِّ جدًّا أنْ ندركَ أنَّ اللهَ يحتفظُ دائمًا بزمامِ المبادرةِ في جميعِ معاملاتِهِ معَ البشريةِ، ومعَ الكونِ كلِّهِ. في الحقيقةِ لا تفلتُ أبدًا أيُّ مبادرةٍ من يدَيِ اللهِ.

أريدُ أنْ أوضحَ هذهَ الحقيقةَ منْ عملِ اللهِ المسجَّلِ في العهدِ

الجديدِ مـنْ عـدةِ جوانـبَ. ومـنَ المهـمِّ أنْ نتطـرقَ إلى هـذهِ الحقيقـةِ ونركـزَ عليهـا؛ لأنَّ مؤمنـينَ كثيريـنَ اليـومَ نـادرًا مـا يتركـونَ زمـامَ المبـادرةَ في يـدِ اللهِ. على العكـسِ نميـلُ للاعتقـادِ بـأنَّ كلَّ شيءٍ يعتمـدُ على مـا نفعَلُـهُ حـتى لدرجـةِ الاعتقـادِ بأنَّنـا إنْ لـم نفعـلْ شـيئًا فلـنْ يحـدثَ أيُّ فـرقٍ. إلى حـدٍّ مـا قـدْ يصـحُّ هـذا الأمـرُ لكنَّهـا ليسـتِ الحقيقـةَ الكاملـةَ.

الحقيقـةُ الفعليَّـةُ والصادقـةُ، أنَّ اللهَ قـدْ خلـقَ كلَّ شيءٍ وأخرَجَـهُ إلى حـيِّزِ الوجـودِ. على سـبيلِ المثـالِ، في الـولادةِ الجديـدةِ أو الخـلاصِ تكـونُ المبـادرةُ مـنَ اللهِ، بينمـا يعتقـدُ كثـيرونَ أنهـم قـدْ وُلِدُوا ثانيـةً بسـببِ اتخاذِهِـم للقـرارِ. إلَّا أنَّ ذلـكَ الاعتقـادَ ليسَ كلَّ الحقيقـةِ. نحنُ نـولدُ مـنْ جديـدٍ لأنَّ اللهَ قـد قـرَّرَ ذلـكَ الأمـرَ. وعلينـا أنْ نتجـاوبَ مـعَ قـرارِ اللهِ، فبـدونِ قـرارِهِ لـمْ يكـنْ لنـا أنْ نـولَدَ ثانيـةً مـنْ تلقـاءِ أنفسِنَا.

"شَاءَ فَوَلَدَنَا بِكَلِمَةِ الْحَقِّ لِكَيْ نَكُونَ بَاكُورَةً مِنْ خَلاَئِقِهِ" (يعقوب ١: ١٨).

لاحـظْ أنْ النصـفَ الأوَّلَ مـنَ الآيـةِ يقـولُ: "شَـاءَ فَوَلَدَنَـا بِكَلِمَـةِ الْحَـقِّ." نحـن وُلِدنـا ثانيـةً لأنَّ اللهَ اتخـذَ ذلـكَ القـرارَ. وفي ترجمـةٍ أخـرى، هـذا الجـزءُ يَعـني أنَّ اللهَ قـد **اختـار** أنْ نـولدَ بكلمـةِ الحـقِّ. إذنْ لا بـدَّ أنْ نتذكـرَ أنَّ الـولادةَ الجديـدةَ لا تنبُـعُ مـنَ اختيارِنَـا، بـلْ مـن اختيـارِ اللهِ.

وينطبقُ الأمرُ ذاتُهُ على الخلاصِ الذي يُعَدُّ جانبًا من جوانبِ اختبارِ اختيارِ اللهِ لنا. ويكتبُ بولسُ إلى المسيحيينَ في تسالونيكي:

"وَأَمَّا نَحْنُ فَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَشْكُرَ اللهَ كُلَّ حِينٍ لأَجْلِكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ الْمَحْبُوبُونَ مِنَ الرَّبِّ، أَنَّ اللهَ اخْتَارَكُمْ مِنَ الْبَدْءِ لِلْخَلاَصِ، بِتَقْدِيسِ الرُّوحِ وَتَصْدِيقِ الْحَقِّ" (٢تسالونيكي ٢: ١٣).

لقدِ اختارَكَ اللهُ للخلاصِ، ولم تَنَلِ الخلاصَ لأنكَ قد قررتَ ذلكَ. لقد نلتَ الخلاصَ لأنَّ اللهَ اختارَ أنْ يخلِّصَكَ. فلا تحاولْ أبدًا انتشالَ زمامِ المبادرةِ منْ يدَيِ اللهِ. وكلما أدركتَ أنَّ المبادرةَ في يدِ اللهِ، يمكِنُكَ أنْ تطمئنَّ مختبرًا لمشاعرِ الثقةِ والأمانِ. في المقابلِ، إذا كنتَ تظنُّ أنَّ المبادرةَ تبدأُ من عندِكَ، لنْ تنعمَ أبدًا بسلامٍ داخليٍّ حقيقيٍّ أو بالاطمئنانِ، بل ستكونُ منزعجًا طوالَ الوقتِ.

هل اللهُ دعانا أمْ "عَيَّنَنا"

إنَّ مبدأَ [المبادرةُ تقعُ على عاتق الله] ينطبقُ أيضًا على دعوتِهِ لنا. قالَ يسوعُ لرسلِهِ:

"لَيْسَ أَنَّكُمُ اخْتَرْتُمُونِي، بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ، وَأَقَمْتُكُمْ لِتَذْهَبُوا وَتَأْتُوا بِثَمَرٍ،

وَيَدُومَ ثَمَرُكُمْ، لِكَيْ يُعْطِيَكُمُ الآبُ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ بِاسْمِي" (يوحنا ١٥: ١٦).

كما لو أنّ يسوع كَانَ يَقُولُ: "أنتُم لم تختارُوني لتكونوا رُسُلًا، بلْ أنا الذي اخترتُكُم." وينطبقُ هذا المبدأُ على كلِّ دورٍ أو عملٍ في جسدِ المسيحِ. ليس لنا أنْ نختارَ دعوتَنَا، فنحنُ لدينا دعوةٌ لأنَّ الربَّ هو مِنِ اختارَهَا لنا.

يستخدمُ بطرسُ هذهِ الحقيقةَ في اختبارِهِ الشخصيِّ متحدثًا إلى المجلسِ الذي اجتمعَ في أورشليمَ فقالَ لهُمْ:

"أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِخْوَةُ، أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْذُ أَيَّامٍ قَدِيمَةٍ اخْتَارَ اللهُ بَيْنَنَا أَنَّهُ بِفَمِي يَسْمَعُ الأُمَمُ كَلِمَةَ الإِنْجِيلِ وَيُؤْمِنُونَ" (أعمال الرسل ١٥: ٧).

ذهبَ بطرسُ إلى بيتِ كرنيليوس، قائدِ المئةِ الرومانيِّ الأمميِّ، ليسَ لأنهُ اختارَ ذلك، ولكنْ لأنَّ اللهَ اختارَ بطرسَ ليذهبَ إليهِ (انظر أعمال الرسل ١٠). كلُّ شيءٍ مهمٍّ في جسدِ المسيحِ وفي خدمةِ الربِّ هو نتيجةً لاختيارِ اللهِ، وليس بسببِ اختيارِ الإنسانِ.

يمكِنُنا أن نرى مبدأَ مبادرةِ اللهِ أيضًا في حياةِ الرسولِ بولسَ. لقد تجلَّى لهُ يسوعُ أروعَ تجلٍّ وهو في طريقِهِ لدمشقَ، بعدَهَا ذهبَ ومكثَ فيها لمدةِ ثلاثةِ أيامٍ دونَ قدرةٍ على البَصرِ. عندما قضى بولسُ ثلاثةَ أيامٍ مصابًا بالعمَى، لم يأكلْ ولم يشربْ، أرسلَ اللهُ

تلميـذًا آخـرَ، هـو حنانيـا، ليصـلِّيَ مـن أجـلِ بولـسَ حـتى يرجَـعَ له بـصرُهُ وليمتلـئَ بالـروحِ القـدسِ. وعندمـا تقابـلَ حنانيـا مـع بولـسَ قـالَ لهُ:

"إِلهُ آبَائِنَا انْتَخَبَكَ لِتَعْلَمَ مَشِيئَتَهُ، وَتُبْصِرَ الْبَارَّ، وَتَسْمَعَ صَوْتًا مِنْ فَمِهِ. لأَنَّكَ سَتَكُونُ لَهُ شَاهِدًا لِجَمِيعِ النَّاسِ بِمَا رَأَيْتَ وَسَمِعْتَ" (أعمال الرسل ٢٢: ١٤-١٥).

لـم يصبـحْ بولـسُ رسـولًا نتيجـةً لاختيـارِهِ تلـكَ الدعـوةَ مـن تلقـاءِ نفسِـه. في الواقـعِ، لـو تُـرِكَ القـرارُ بيـدِ بولـسَ، لمَـا اختـارَهُ أبـدًا. فكـرةُ أنْ يصبـحَ رسـولًا مـنْ تلقـاءِ نفسِـهِ كانـتْ أبعـدَ فكـرةٍ قـدْ تخطُـرُ على بـالِهِ. بالإضافـةِ إلى ذلـكَ، لـم يكـنْ أيُّ شـخصٍ في الكنيسـةِ الأولى ليختـارَ بولـسَ ليكـونَ رسـولًا. وكانَ ليحتـلَّ المرتبـةَ الأخـيرةَ في قائمـةِ الاختيـارِ. لكـنّ اللهَ اتخـذَ القـرارَ. قـالَ حنانيـا: "إِلـهُ آبَائِنَـا انْتَخَبَـكَ لِتَعْلَـمَ مَشِـيئَتَهُ، وَتُبْـصِرَ الْبَـارَّ، وَتَسْـمَعَ صَوْتًـا مِـنْ فَمِـهِ. لأَنَّـكَ سَـتَكُونُ لَـهُ شَـاهِدًا لِجَمِيـعِ النَّـاسِ...".

الثقةُ في اختيارِ اللهِ

إذا كانَ اللهُ هـو مـنْ يتخـذُ القـرارَ بالاختيـارِ مثلمـا فعـلَ في المثالِ الـواردِ سـابقًا مـنَ العهـدِ الجديـدِ، فحتمًـا يطلـقُ فينَـا نـوعًا معينًـا مـنَ الثقـةِ. ولـم يقـلْ حنانيـا لبولـسَ: "إنَّ اللهَ يريـدُكَ أنْ تكـونَ شـاهدًا لهُ"، لكنـهُ قـالَ: "**سَـتَكُونُ** لَهُ شَـاهِدًا" لمـاذا قـدْ يكـونُ بولـسُ

شاهدًا للهِ؟ لأنَّ اللهَ اختارَهُ. فإن كنَّا نتخذُ ذلكَ الاتجاهَ في حياتِنَا، فسيُطلِقُ فينا ثقةً هائلةً. وإنْ عرفْنَا ما قدِ اختارَهُ اللهُ لنا، بدلًا منْ محاولاتِنَا الفرديةِ لإثباتِ الذاتِ، فعندئذٍ سنشعرُ بثقةٍ تامةٍ في قلوبِنَا وأذهانِنَا. ونحنُ نعلمُ أنَّ الربَّ سيمكِّنُنَا منْ أنَ نشابهَ الصورةَ التي اختارَهَا لنَا.

مرةً أخرى، نحتاجُ للتأكيدِ على أنَّ اختيارَ اللهِ مبنيٌّ على علمِهِ المسبقِ. إنَّ المعرفةَ المسبقةَ تَعني بوضوحٍ "المعرفةَ التي تسبقُ وقوعَ الحدثِ." وحياةُ إبراهيمَ واحدةٌ منَ الأمثلةِ بالغةِ الوضوحِ على معرفةِ اللهِ المسبقةِ. قالَ الربُّ عن إبراهيمَ:

"هَلْ أُخْفِي عَنْ إِبْرَاهِيمَ مَا أَنَا فَاعِلُهُ، وَإِبْرَاهِيمُ يَكُونُ أُمَّةً كَبِيرَةً وَقَوِيَّةً، وَيَتَبَارَكُ بِهِ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ؟ **لأَنِّي عَرَفْتُهُ** لِكَيْ يُوصِيَ بَنِيهِ وَبَيْتَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يَحْفَظُوا طَرِيقَ الرَّبِّ، لِيَعْمَلُوا بِرًّا وَعَدْلًا، لِكَيْ يَأْتِيَ الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ بِمَا تَكَلَّمَ بِهِ" (تكوين ١٨: ١٧-١٩).

اختارَ اللهُ إبراهيمَ لأنهُ قدْ عرَفَهُ. لقد عرَفَ أنَّ إبراهيمَ كانَ الرجلَ الذي يستطيعُ من خلالِهِ أن يحقِّقَ مشيئتَهُ ويتمِّمَهَا. رجلٌ سيفعلُ ويتممُ ما يأمرُ الربُّ بهِ.

إنهُ أمرٌ بالغُ الأهميةِ ويعزِّي قلوبَنا أنْ نفهمَ أنَّ اختيارَ اللهِ في حياتِنا مبنيٌّ على معرفتِهِ بنَا. لذا أرجو ألا تسمحَ لنفسِكَ أبدًا

بـأنْ تتخـذَ موقفًـا أو اتجاهًـا قلبيًـا، تُـردِّدُ فيـهِ هـذا القـولَ: "لقـدِ اختـارَنِي اللهُ لأفعـلَ أمـرًا مـا، لكـنْ لا يمكِنُـني أنْ أفعلَـهُ." إنَّ اللهَ يعلـمُ أنـكَ قـادرٌ على تحقيـقِ مشـيئتِهِ. لـو لـمْ يثـقِ اللهُ في قدرتِـكَ على تحقيـقِ مشـيئتِهِ لمَـا اختـارَكَ. اختـارَكَ اللهُ على أسـاسِ معرفتِـهِ بـكَ.

مـنَ المثيرِ جـدًّا للاهتمـامِ أنَّ أحـدَ الترجمـاتِ الإنجليزيـةِ تترجِـمُ الشـاهدَ الكتـابيَّ المذكـورَ في تكويـن ١٨: ١٩ "لأنِّي عَرَفْتُـهُ" بينمـا يـرِدُ في ترجمـةٍ أخـرى "لأني **اخترتُـهُ**". وهمـا أسـلوبانِ لترجمـةِ ذاتِ الكلمـةِ العبريَّـةِ. ودونَ الخـوضِ في الأسـبابِ المتعـدِّدةِ لترجمتِهَـا بهاتَـيْنِ الطريقتَـيْنِ، فالنقطـةُ الرئيسـةُ البـارزةُ هي أنَّ معرفـةَ اللهِ المسـبقةَ هي السـببُ وراءَ اختيـارِهِ.

نحـنُ بحاجـةٍ إلى تطبيـقِ حقيقـةِ اختيـارِ اللهِ على حياتِنَـا الشـخصيَّةِ. إليـكَ واحـدةٌ مـنَ النصائـحِ: لا تحـاولْ أبـدًا أنْ تسـيرَ في اتجـاهٍ لـم يخـتَرْهُ اللهُ لـكَ. لا تتَّـكِلْ على وضـعِ خطتِـكَ الشـخصيةِ باعتمـادِكَ على أفضـلِ مـا لدَيْـكَ مـن إمكانـاتٍ؛ لأنَّ هـذا غـيرُ كافٍ. اكتشـفْ هويَّتَـكَ فيمـا اختـارَهُ اللهُ لـكَ. فاختيـارُ اللهِ قـدْ يكـونُ مختلفًـا تمامًـا عمَّـا توقَّعتَـهُ أو خططـتَ لهُ بنفسِـكَ. ولكـنْ عندَمَـا تكتشـفُ مـا هـو اختيـارُ اللهِ لـكَ، عندهـا يمكِنُـكَ أنْ تتيقَّـنَ مـنْ أنَّ معرفتَـهُ بـكَ هي أسـاسُ اختيـارِهِ لـكَ.

إنـهُ يعرفُـكَ معرفـةً كافيـةً تكفيـكَ لتتمتـعَ بالثقـةِ أنَّـهُ بنعمتِـهِ

تتشـكَّلُ هويتُـكَ الحقيقيَّـةُ وتفعـلُ كلَّ مـا اختـارَهُ لـكَ.

بالنسـبةِ لي، فـإنَّ ابنـتي جيسـيكا هي صـورةٌ جميلـةٌ تعكـسُ اختيـارَ اللهِ. لسـنواتٍ عديـدةٍ، كنـتُ وزوجـتي ليديـا مسـؤولَيْنِ عـن إحـدى الكليـاتِ الـتي تعمـلُ على تدريـبِ المعلمـينَ الأفارقـةِ في كينيـا. وكنـا مشـغولَيْنِ للغايـةِ، وكانـتْ ليديـا متقدمـةً في العمـرِ إذ كانـتْ تكـبُرُني بقليـلٍ.

مسـاءَ أحـدِ الأيـامِ، في حـوالَي السـاعةِ السادسـةِ والنصـفِ، ظهـرَت أمـامَ عتبـةِ بـابِ منزلِنَـا سـيدةٌ بيضـاءُ البـشرةِ وزوجـانِ أفريقيَّـانِ. كانـتِ السـيدةُ البيضـاءُ تحمـلُ طفلـةً أفريقيـةً رضيعـةً وملفوفـةً بمِنشـفةٍ متسـخةٍ. فسـأَلْنا: "مـا سـببَ مجيئِكُـم إلينـا؟"

أجابـوا: "لقـد توفِّيـتْ والدةُ هـذهِ الطفلـةِ الرضيعـةِ عنـدَ ولادتِها. ثـم وجَدَهـا أحـدُ الإخصائيـينَ الاجتماعيـينَ ملقـاةً على أرضيـةِ كـوخٍ فأخذَهـا إلى المستشـفى المحـليِّ. ثـم اعتَنـت بهـا المستشـفى لسـتةِ أشـهرَ، لكنهـم قالـوا: [هـذا مستشـفَى وليسـتْ دارَ رعايـةٍ للأطفـالِ ولا يمكِنُنَـا الإبقـاءُ عليهـا داخلَ المستشـفى بعـدَ الآنَ.] صِرْنَـا نتجولُ في هـذا الجـزءِ مـن كينيـا لمـدةِ ثلاثـةِ أيـامٍ بحثًـا عـنْ عائلـةٍ آسـيويةٍ أو أفريقيـةٍ أو أوروبيـةٍ لاحتضـانِ هـذهِ الرضيعـةِ. وسـمعنا أنكمـا تحتضِنـانِ الأطفـالَ."

أجابتْ زوجتي وقالتْ: "كنا نفعلُ ذلكَ منذُ سنواتٍ، ونحنُ الآن متقدمانِ في العمرِ لمثلِ ذلكَ العملِ. إلى جانبِ ذلكَ، نحنُ مشغولانِ جدًّا بالعملِ في مجالِ تعليمِ الآخرينَ وليسَ لدينا أيُّ وقتٍ لرعايةِ طفلٍ صغيرٍ ومريضٍ أيضًا".

بعد ذلكَ طلبَ هؤلاء أن يمكثوا فقالوا: "نحنُ مُنهَكون، هل تسمحانِ لنا بأنْ نجلسَ لنصفِ ساعةٍ لنستريحَ لبعضِ الوقتِ؟" فدعوناهمْ ليدخُلوا، وعندَ نهايةِ الوقتِ، نهَضُوا للذهابِ. وفي أثناءِ مغادرتِهِم مرَّتْ بجواري السيدةُ ذاتُ البشرةِ البيضاءِ وهي تحمِلُ هذهِ الطفلةَ الرضيعةَ. ثم ما أنْ مرَّتْ بجواري، مدَّتِ الطفلةُ يدَهَا نحوي، كما لو كانتْ تقولُ: "ماذا ستفعلُ بي؟" وبطبيعتي لستُ رجلًا متقلِّبَ المزاجِ لكنْ بالنسبةِ لي كانَ تصرُّفُ الطفلةِ نحوي تصرُّفًا غيرَ عاديٍّ لدرجةِ أنهُ امتلكَ مشاعري.

في تلك اللحظةِ، نظرتُ إلى زوجتِي. وعادةً يستحيلُ أنْ نتَّخِذَ أيَّ قرارٍ مثلَ ذلك دونَ أنْ نتحدثَ معًا على انفرادٍ أولًا. لكنني قلتُ: "ربما سنغيرُ رأيَنا." فأجابتْ ليديا: "امنحني مدةَ أسبوعٍ لتجهيزِ بعضِ ملابسِ الأطفالِ وسريرٍ للطفلةِ ثمَّ تحضِرُونها إليْنَا."

هكذا صارَت لدينا ابنتُنَا التاسعةُ، وهي اليومَ امرأةٌ مؤمنةٌ جميلةٌ تخدمُ الربَّ. هناك ملايينُ الصغارِ منَ الرضيعاتِ الأفارقةِ، لكنَّ اللهَ قدْ وضعَ يدَهُ على هذهِ الطفلةِ فكانتْ هي اختيارَ اللهِ

السياديَّ لنا لنعتَنِيَ بها. وكما سنرى في الفصلِ التالي، فإنَّ اختيارَ اللهِ هو نتيجةُ التعيينِ السابقِ. فقدْ عيَّنَ اللهُ لنا جيسيكا لتصيرَ ابنةً لنا. ولطالما كنتُ سعيدًا لأنَّ اللهَ قدِ اتَّخذَ ذلكَ الاختيارَ وأننا استجَبْنَا باتخاذِ القرارِ بأنْ نحتفظَ بها ونحتضِنَها.

وفي ختامِ كلمتي أودُّ أنْ أدليَ بكلمةٍ مثيرةٍ للجدلِ إلى حدٍّ ما. لماذَا قد تكونُ جدليةً؟ لأني أعتقدُ أنَّ هذهِ الكلمةَ تسيرُ في مسارٍ معاكسٍ للكثيرِ منَ الأفكارِ في الكنيسةِ المعاصرةِ. إليكَ الفكرةُ الختاميةُ: لقدِ انتخبَ اللهُ البعضَ واختارَهُم، فهوَ لا يدعو متطوِّعِينَ. كثيرونَ ممنْ يرتادونَ الكنائسَ لديهمْ فكرةٌ تقولُ إنهمْ بوسعِهِم أنْ يتطوَّعُوا لعملِ أمرٍ ما وسيقبلُ اللهُ ذلكَ. إنهُ أمرٌ غيرُ صحيحٍ. إنَّ اللهَ ينتَخِبُ ويختارُ ولا يطلُبُ متطوِّعينَ. ويطلبُ منَّا بوضوحٍ أنْ نتجاوبَ مع اختيارِهِ لنا.

ربَّما لم تستَجِبْ أبدًا لدعوةِ اللهِ لكَ. لذا ستكونُ هذهِ لحظةً مثاليةً بأنْ تفعلَ ذلكَ. فإذا كنتَ ترغبُ في أنْ تتجاوبَ معَ دعوةِ اللهِ لحياتِكَ، أرجوْ أنْ تعلنَ هذا الإعلانَ ببساطةِ إيمانٍ:

«إلهي، شكرًا لكَ؛ لأنّكَ بعلمِكَ المسبقِ واتخاذِكَ لزمامِ المبادرةِ قد دعوتَنِي. والآنَ أستجيبُ لدعوتِكَ على حياتِي. لستُ أنا مَنِ اخترتُكَ، بل أنتَ الذي اختَرتَنِي، ووضعتَ لحياتي هدفًا ولديكَ خطةٌ لتنفيذِها. أنا لستُ " حادثًا عشوائيًا بانتظارِ أنْ

يحدُثَ "، أنا خادمُكَ الذي اخترْتَهُ ودعوتَهُ ليعملَ مشيئَتَكَ. إني أعترفُ وأقبلُ بكلّ الشكرِ والامتنانِ هذهِ الحقيقةَ بأنكَ قدِ اخترتَنِي ودعوتَنِي. إلهي القديرُ، إني أشكرُكَ منْ أعماقِ قلبي، آمين»

والآنَ، بعدَ أنِ اتخذتَ هذهِ الخطوةَ المهمةَ جدًا للاعترافِ بدعوةِ اللهِ لحياتِكَ، سنمضي قُدمًا إلى المرحلةِ الثالثةِ منْ خطةِ اللهِ التي أعدَّها لنا منذُ الأزلِ.

الفصلُ التاسعُ

المرحلةُ الثالثةُ: اللهُ عيَّنَنَا

المرحلةُ الثالثةُ مِنْ خطةِ اللهِ لنا التي حدثَتْ أيضًا منذُ الأزلِ هي أنَّهُ "عيَّنَنَا". في الإنجليزيةِ تشكَّلَتْ كلمةُ عيَّنَنَا مِنَ الفعلِ يعيِّنُ. وكما أشرتُ مسبقًا، كلمةُ "عيَّنَنَا" كلمةٌ تُرعِبُ الكثيرينَ لأنَّهُم يهمِّشون معناها ويقتصرُ ذكرُها في بعضِ الإشكالياتِ اللاهوتيةِ الكبيرةِ حولَ الخلاصِ، وبالتالي يميلونَ إلى الابتعادِ عنها. على العكسِ، فمعناها في الواقعِ واضحٌ وبسيطٌ: كونُكَ "مُعيَّنًا مِنَ اللهِ سابقًا" يَعني ببساطةٍ أنَّ اللهَ أعدَّ مسبقًا مسارَ حياتِكَ الذي ستسلُكُ فيهِ. ويؤكدُ العهدُ الجديدُ كثيرًا على حقيقةِ تعيينِ اللهِ لنا منذُ الأزلِ. وفي هذا الفصلِ سنستكشفُ أربعةَ نماذجَ تعبرُ عنْ هذا الحقِّ.

تعاليمُ الكتابِ المقدسِ عنْ تعيينِ اللهِ المسبقِ

إنَّ أولَ مثالَيْنِ يعبِّرانِ عنْ حقيقةِ تعيينِ اللهِ المسبقِ لنا نجدهمَا في رومية الإصحاح الثامنِ، حيثُ كتبَ بولسُ:

"لأَنَّ الَّذِينَ سَبَقَ [الله] فَعَرَفَهُمْ **سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ** لِيَكُونُوا مُشَابِهِينَ صُورَةَ...

وَالَّذِينَ **سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ**، فَهؤُلاَءِ دَعَاهُمْ أَيْضًا. وَالَّذِينَ دَعَاهُمْ، فَهؤُلاَءِ بَرَّرَهُمْ أَيْضًا. وَالَّذِينَ بَرَّرَهُمْ، فَهؤُلاَءِ مَجَّدَهُمْ أَيْضًا" (رومية ٨: ٢٩-٣٠).

في هذا المقطعِ الكتابيِّ، ذَكَرَ بولسُ مرَّتَيْنِ أنَّ اللهَ قدْ عيَّنَ الذينَ دعاهُم. لكنْ أرجو أنْ تلاحظَ معي، ما هو الذي قد عيَّننا اللهُ لأجلِهِ، وإجابةُ هذا السؤالِ أمرٌ في غايةِ الأهميةِ، فكثيرونَ يميلونَ للتحدثِ حولَ كونِهم "معيَّنين" إمَّا للذهابِ إلى السماءِ أو للجحيمِ، وهو نهجٌ غالبًا ما يربِكُ مَنْ يستمعُونَ إليهمْ أو يُعثِرُهم. لكنَّ بولسَ قد أشارَ إلى أننا معيَّنونَ لِنكُونَ "مُشَابِهِينَ صُورَةَ ابْنِهِ [ابن الله]" يسوعَ المسيح.

إذا أخبرَني أحدُهُم أنهُ معيَّنٌ للدخولِ إلى السماءِ، ومعَ ذلكَ لا أرى ثمرًا في حياتِهِ ولا أثرًا للتقوَى، فقدْ أشكِّكُ في صحةِ ما يدَّعيهِ. ولكنْ، إذا رأيتُ شخصًا أصبحَ مشابهًا حقًّا في حياتِهِ وشخصيَّتِهِ لشخصِ يسوعَ المسيحِ وطبيعتِهِ، فحتمًا سأستنتجُ أنهُ لا يوجدُ سوى تفسيرٌ واحدٌ وهو أنهُ منَ البدءِ معيَّنٌ، ولا يمكنُ أنْ يتحققَ هذا الأمرُ بأيِّ طريقةٍ أخرَى.

ثمَّ في أفسسَ، قدمَ بولسُ المثالَ الثالثَ على حقيقةِ أنَّ اللهَ قد عَيّنَنا مسبقًا:

"مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بَارَكَنَا بِكُلِّ بَرَكَةٍ رُوحِيَّةٍ

فِـي السَّـمَاوِيَّاتِ فِـي الْمَسِـيحِ، كَمَـا اخْتَارَنَـا فِيـهِ قَبْـلَ تَأْسِـيسِ الْعَالَـمِ، لِنَكُـونَ قِدِّيسِـينَ وَبِـلاَ لَـوْمٍ قُدَّامَـهُ فِـي الْمَحَبَّـةِ، إِذْ **سَـبَقَ فَعَيَّنَنَـا** لِلتَّبَنِّـي بِيَسُـوعَ الْمَسِـيحِ لِنَفْسِـهِ، حَسَـبَ مَسَـرَّةِ مَشِـيئَتِهِ، لِمَـدْحِ مَجْـدِ نِعْمَتِـهِ الَّتِـي أَنْعَـمَ بِهَـا عَلَيْنَـا فِـي الْمَحْبُـوبِ [يسوع]" (أفسـس ١: ٣-٦).

لـم يكـنِ اللهُ يعيِّنُنـا لنشـابهَ صـورةَ المسـيح فقـط، بـل عيَّنَنَـا للتبـنِّي لنفسِـهِ كأولادٍ لهُ بواسـطةِ يسـوعَ المسـيح. إنَّ "مَسَـرَّةَ مَشِـيئَتِهِ" أنـهُ عيَّنَنَـا وهـوَ أمـرٌ قـد أسَّسَـهُ منـذُ الأزلِ. فـلأيِّ غـرضٍ نحـنُ بهذا القـدرِ معيَّنـونَ؟ أضـافَ بولـسُ أنَّ كلَّ ذلـكَ قـد صُمِّـمَ ليحقِّـقَ "مَـدْحَ مَجْـدِ نِعْمَتِـهِ."

لذلـكَ، في المقطـعِ المذكـورِ سـالفًا، ذكـرَ بولـسُ ثـلاثَ سـماتٍ لكونِنَـا معيَّنـين. أولًا، نحـنُ مُعيَّنـونَ لنكـونَ أبنـاءَ اللهِ بالتبـنِّي في عائلتِـهِ. ثانيًـا، يهـدفُ تعيينُنَـا إلى تمجيـدِ اللهِ. وثالثًـا، الأمـرُ كلُّـه يعتمـدُ على نعمـةِ اللهِ.

إنَّ الغايـةَ المطلقـةَ والنهائيَّـةَ لـكلِّ شيءٍ في الكـونِ هـو تمجيـدُ اللهِ. وفي هـذا الصـددِ إذنْ فـإنَّ أسـاسَ الخطيـةِ هـو الفشـلُ في تمجيـدِ اللهِ. كتـبَ بولـسُ: "الْجَمِيـعُ أَخْطَـأُوا..." (رومية ٣: ٢٣). كيـفَ للجميـعِ أنْ يُخطِئـوا؟ لأنهـمْ قـد عَجَـزُوا عـن تمجيـدِ الله "وَأَعْوَزَهُـمْ مَجْـدُ اللهِ" (رومية ٣: ٢٣). لذلـك فـإنَّ قصـدَ اللهِ مـن تعيينِنَـا هـو لاسـترجاعِ مجـدِهِ الذي سـلبَتْهُ خطيَّتُنـا. وقـد حقَّـقَ كلَّ هـذا بنعمتِـهِ وليـس بأعمالِنـا.

إنـهُ يُدخِلُنـا لعائلتِـهِ بطريقـةٍ تجعـلُ حياتَنـا تمجِّـدُه. ونحـنُ على قـدرٍ كافٍ مـن التعقُّـل لنعـترفَ بأنـهُ إنْ لـم تكـنْ أعمالُنـا الصالحـة نابعـة مـن فضـلِ نعمـةِ اللهِ لنـا، فليـسَ مـن وسـيلةٍ أخـرى لتصـادِقَ على صـلاحِ مـا نفعَلُـه.

كمـا أنـهُ في هـذهِ المسـألةِ المتعلقـةِ بالأفـكار الكتابيـةِ حـولَ تعييننـا المسـبقِ، أودُّ أنْ أضيـفَ اقتباسًـا آخـرَ مـنْ بولـسَ، وهـو المثـالُ الرابـعُ لدينـا الذي يمثِّـلُ هـذا المبـدأَ:

"الَّذِي فِيهِ أَيْضًا نِلْنَا نَصِيبًا، **مُعَيَّنِينَ سَابِقًا** حَسَبَ قَصْدِ الَّذِي يَعْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ حَسَبَ رَأْيِ مَشِيئَتِهِ، لِنَكُونَ لِمَدْحِ مَجْدِهِ، نَحْنُ الَّذِينَ قَدْ سَبَقَ رَجَاؤُنَا فِي الْمَسِيحِ" (أفسس ١: ١١-١٢)

لاحـظْ مجـددًا أننـا معيَّنـونَ سـابقًا حسـبَ قصـدِ الذي يعمـلُ كلَّ شيءٍ حسـبَ مشـيئتِهِ. هـذهِ الحقيقـةُ الواضحـةُ يجـبُ أنْ تُطمـئِنَ قلوبَنـا. فـإذَا قـرَّرَ اللهُ أنْ يفعـلَ شـيئًا مـا، فسـيعملُ على إنجـازِهِ إلى التمـامِ. وكلُّ شيءٍ يفعلُـهُ هـو لمـدحِ مجـدِهِ الذي هـو دائمًـا قصـدُهُ المطلـقُ والنهـائيُّ.

لنلخـصْ إذًا جوهـرَ كلِّ مـا وردَ في هـذهِ المقاطـعِ الكتابيـةِ في تطبيـقٍ عمـليٍّ وبسـيطٍ للغايـةِ سيشـجِّعُكَ بقـوةٍ. [أنـتَ لسـتَ حادثًـا عشـوائيًّا بانتظـارِ أنْ يحـدُثَ. أنـتَ جـزءٌ مـنْ خطـةٍ أزليـةٍ أبديـةٍ،

وقـد سـبقَ اللهُ فعيَّنَـكَ عضـوًا في عائلـةِ اللهِ. ويحـدثُ هـذا بنعمتِـهِ ولمـدحِ مجـدِهِ. هـذا في مجملِـهِ هـو الأمـانُ الكامـلُ].

لنأخذْ درسًا وعِبرةً من يونان

فيمـا يتعلَّـقُ بالجانـبِ العمـليِّ لكونِنَـا قـد سـبقَ فتَـمَّ تعيينُنَـا، نـرى أنَّ تعيـينَ اللهِ لنـا سـيتكفَّلُ أيضًـا بأخطائِنَـا. ونحـنُ نحتـاجُ لأنْ نشـكرَ اللهَ على ذلـكَ. يتوقَّـعُ اللهُ أخطاءَنـا، وقـد أعـدَّ طرقًـا عديـدةً لينقذَنـا ويخلِّصَنـا بنعمتِـهِ مـن خطيَّتِنـا. وتقـدِّمُ حيـاةُ النـبيِّ يونـان هـذا الحـقَّ بصـورةٍ واضحـةٍ.

دعا اللهُ يونـانَ مـنْ جبـالِ الجليـلِ ليذهـبَ شرقًـا إلى نينـوى. كانَ عليـهِ أنْ يحـذِّرَ تلـكَ المدينـةَ مـنَ الدمـارِ الوشـيكِ نتيجـةَ خطيـةِ شـعبِها. وبينمـا كانَ يونـانُ واحـدًا مـن شـعبِ إسرائيـلَ، وكانـت نينوى عاصمـةَ أشـور، عـدوّ إسرائيـلَ. لـم يـرِدْ يونـانُ أنْ يـرى اللهَ يحفـظُ نينـوى مـنَ الدمـارِ. لذلـك عِـوَضَ أنْ يتَّجِـهَ شرقًـا إلى نينـوى، رفـضَ دعـوةَ الله واتَّجـهَ غربًـا.

إذا درسـتَ المسـارَ الذي اتخـذَهُ يونـانُ بعـدَ رفـضِ دعـوةِ اللهِ، سـتجدُ أنَّ كلَّ خطـوةٍ اتَّخَذَهـا كانـتْ بمثابـةِ تنـحٍّ عـنْ الدعـوةِ آخـذًا خطـواتٍ للـوراءِ. لقـد نـزلَ يونـانُ مـنَ الجبـالِ إلى سـفوحِها، ومـنَ السـفوحِ إلى السـهلِ، ومـن السـهلِ إلى الميـنـاءِ، ومـن الميـنـاءِ إلى المرفـأ،

ومـن المرفـأ إلى السـفينةِ، ومـن السـفينةِ إلى أعمـاقِ البحـرِ.

يجـبُ أنْ يكـونَ المسـارُ المنحـدرُ الذي اتخـذهُ يونـانُ تحذيـرًا لـكلِّ واحـدٍ منَّـا بعـدمِ رفـضِ دعـوةِ اللهِ في حياتِنـا. ومـعَ ذلـكَ، أتـمَّ اللهُ خطتَـهُ: "فَأَرْسَـلَ الـرَّبُّ رِيحًـا شَـدِيدَةً إِلَى الْبَحْـرِ، فَحَـدَثَ نَـوْءٌ عَظِيـمٌ فِي الْبَحْـرِ حَـتَّى كَادَتِ السَّـفِينَةُ تَتَكَسَّرُ." (يونان ١: ٤). أوقـفَ اللهُ مسـارَ يونـانَ بعاصفـةٍ، وفي النهايـةِ رمى البحَّـارةُ يونـانَ في البحـرِ. لكـنَّ هـذا الإصحـاحَ، يقـولُ لاحقًـا، "وَأَمَّـا الـرَّبُّ فَأَعَـدَّ حُوتًـا عَظِيمًـا لِيَبْتَلِـعَ يُونَـانَ. فَـكَانَ يُونَـانُ فِي جَـوْفِ الْحُـوتِ ثَلاَثَـةَ أَيَّـامٍ وَثَـلاَثَ لَيَـالٍ" (يونـان ١: ١٧).

أعـدَّ اللهُ حوتًـا. فكِّـرْ في الأمـرِ: لـو كانـتْ تلـكَ السـمكةُ الكبيرةُ تحتـاجُ لأنْ تَسـبَحَ لحـوالَي ثمانـين مـترًا لـكي تصـلَ إلى يونـانَ لـكانَ في عـدادِ المـوتى عنـدَ وقـتِ وصولِهـا إليـهِ. إلا أنَّ الحـوتَ كانَ منتظـرًا ليونـانَ؛ لأنَّ اللهَ قـد جهَّـزَهُ بالفعـلِ. ذلـك مـا سـبقَ اللهُ فعيَّنَـهُ.

بعـدَ أنْ قـضَى يونـانُ ثلاثـةَ أيـامٍ وثـلاثَ ليـالٍ في بطـنِ الحـوتِ غـيَّرَ رأيَـهُ فرجـعَ إلى نينَوى وكـرزَ برسـالةِ اللهِ الـتي أعطاهـا لهُ، وتابَتِ المدينـةُ كلُّهـا. رغـمَ هـذا النجـاحِ اغتـاظَ يونـانُ؛ لأنَّـه لـم يكـنْ يريـدُ أنْ يـرى خـلاصَ أعدائِـهِ وإنقـاذَ اللهِ لهـمْ. فمـاذا كانَ ردُّ فعلِـهِ؟ خـرجَ مـن تلقـاءِ نفسِـهِ عابسًـا، ثـم جلـسَ في العـراءِ، في منطقـةٍ مكشـوفةٍ تطـلُّ على مدينـةِ نينـوى. كانَ الجـوُّ حـارًّا جـدًّا، وكانـت تُسـمَّى هـذه الريـاحُ في إسرائيـل بالسـيروكو (وهي ريـاحٌ صحراويـةٌ

عاتيـةٌ وعنيفـةٌ وجافـةٌ وحـارةٌ) ريـاحٌ شـديدةُ الحـرارةِ تجعـلُ الجميـعَ في شـقاءٍ وبـؤسٍ. ولحمايـةِ يونـانَ مـنْ الشـمسِ ومـنْ هـذهِ الأجـواءِ "أَعَـدَّ الـرَّبُّ الإِلـهُ يَقْطِينَـةً فَارْتَفَعَـتْ فَـوْقَ يُونَـانَ لِتَكُـونَ ظِـلاً عَـلَى رَأْسِـهِ، لِـكَيْ يُخَلِّصَـهُ مِـنْ غَمِّـهِ. فَفَـرِحَ يُونَـانُ مِـنْ أَجْـلِ الْيَقْطِينَـةِ فَرَحًـا عَظِيمًـا" (يونـان ٤: ٦).

كان يونـانُ سـعيدًا بهـذهِ اليقطينـةِ. لكنَّـه مـا زالَ غـيرَ سـعيدٍ بخـلاصِ اللهِ لأهـلِ نينـوى. لذلـكَ، جعـلَ اللهُ اليقطينـةَ تذبـلُ ليعطـيَ يونـانَ درسًـا وعـبرةً. "ثُـمَّ أَعَـدَّ اللهُ دُودَةً عِنْـدَ طُلُـوعِ الْفَجْـرِ فِي الْغَـدِ، فَضَرَبَـتِ الْيَقْطِينَـةَ فَيَبِسَـتْ" (يونـان ٤: ٧).

أريـدُ منـكَ أنْ تلاحـظَ مـعي كلمـةَ "فَأَعَـدَّ" في الآيـةِ السـابقةِ، بالإضافـةِ إلى يونـان ١: ١٧. أعـدَّ اللهُ ريحًـا، وأعـدَّ حوتًـا عظيمًـا، وأعدَّ يقطينـةً، ثـم أعـدَّ دودةً لتـأكلَ اليقطينـةَ. كلُّ هـذه الأحـداثِ سـبقَ أنْ رتَّبَهـا اللهُ. إنَّ اللهَ يعـرفُ مـا كانَ يونـانُ سـيفعلُ مـنْ أولِ مـرةٍ عندمـا دعاهُ للذهـابِ إلى نينـوى. ولـم يستحسـنِ اللهُ مـا فعلَـهُ يونـانُ، لكـنْ بسـببِ أنَّ اللهَ قـد سـبقَ فعـيَّنَ يونـانَ، أتـمَّ اللهُ مشـيئتَهُ رغـمَ عرقلـةِ يونـانَ لهـا.

ينبـغي لذلـكَ الأمـرِ أنْ يشـجِّعَنا. ولا يَعـني ذلـكَ أننـا يجـبُ أنْ نكـونَ غـيرَ طائعـينَ لصـوتِ اللهِ، إنَّمـا يَعـني أنـهُ، حـتى لـو ارتكَبْنَـا أخطـاءً أو اتَّخذْنـا مسـارًا خاطئًـا، فتعيـينُ اللهِ المسـبقُ قـدْ وَضَـعَ في الاعتبـارِ أخطاءَنَـا مسـبقًا. وكمـا فعـلَ مـعَ يونـانَ سـيعدُّ اللهُ

العاصفــةَ، والحــوتَ واليقطينــةَ والدودةَ أوْ أيَّ شيءٍ تقتضيــهِ الحاجــةُ لإعادةِ توافُقِنــا واتســاقِنَا مــع خطتِــهِ. هــذا يعــودُ بنــا إلى الهــدفِ الأصــليِّ مــن تعيــينِ اللهِ المســبقِ لنــا. فمــا هــو ذلــكَ الهــدفُ؟ الهــدفُ أننــا نتمِّــمُ خطــةَ الله الــتي سَــبَقَ فأعدَّهَــا لحياتِنَــا، حــتى ولو لــمْ نكــنْ نريدُهــا، فهــو يعمَلُهــا بطريقــةٍ تضمــنُ في نهايــةِ الأمــرِ إعــلاءَ مجــدِهِ.

الفصل العاشر

المرحلةُ الرابعةُ: اللهُ دَعَانا

إنَّ أولَ ثلاثِ مراحلَ في خطةِ اللهِ لنا "عرفنَا، اختارَنَا وعيَّنَنَا" تنتمي إلى العالمِ الأزليِّ الأبديِّ. جميعُ هذه المراحلِ كمُلتْ قبلَ بدءِ الأزمنةِ. وإني أؤمنُ بأهميةِ فهمِ هذا الأمرِ، حيثُ إنهُ يعطينا منظورًا آخرَ عنْ هويَّتِنَا الحقيقيَّةِ في الزمانِ الحاضرِ، ومن أينَ بدأنَا في الماضي، وإلى أينَ سنذهبُ في المستقبلِ. إننا لسنا مجرَّدَ مخلوقاتٍ لها زمانٌ محدَّدٌ؛ إذْ إنَّ جذورَنَا مثبتةٌ في الأبديةِ، في عقلِ اللهِ وقلبِهِ ومشورتِهِ الأزليةِ.

التحوُّلُ منَ الأزليِّ إلى الزمنيِّ

تختلفُ المرحلةُ الرابعةُ "دعانا" عنْ أولِ ثلاثِ مراحلَ. في هذهِ المرحلةِ، خرجتْ خطةُ اللهِ منَ الإطارِ الأبديِّ إلى الإطارِ الزمنيِّ. وعندما تحقَّقَ ذلكَ الأمرُ لكلِّ واحدٍ منَّا تحقَّقَ معَهُ تأثيرُ اللهِ على حياةِ كلِّ فردٍ. لهذا السببِ ربما تكونُ اللحظةُ الأكثرُ أهميةً في حياتِنَا هي لحظةَ دعوةِ اللهِ لنا، وعندَها تُحدِّدُ استجابتُنا لدعوةِ اللهِ مستقبَلَنا.

أستطيعُ أنْ أتذكرَ بوضوحٍ شديدٍ تلكَ اللحظةَ التي دُعِيتُ فيها من اللهِ. كانَ ذلك في شهرِ تموز- يوليو ١٩٤١، ولم تكنْ لديَّ أيُّ معرفةٍ كتابيةٍ أو فهمٍ روحيّ. كنت واحدًا ممَّن انسحبوا تمامًا من حضورِ الكنيسةِ. كنتُ ما يمكنُ تسميتُه بالمسيحيِّ الاسميِّ. لكنَّ دعوةَ اللهِ تعاملتْ معي وأحاطَتْني بصورةٍ مفاجئةٍ وغيرِ متوقَّعةٍ. وفي وسطِ كلِّ جهلي والظلماتِ التي كنتُ أعيشُ فيها، اتَّضَحَتْ أمامي حقيقةٌ واحدةٌ مُعلَنَةٌ، وهي أنني لا يُمكِنُني أنْ أتوقَّعَ أوْ أطالبَ اللهَ بأن يدعوني مرةً ثانيةً بعدَ ذلك. لقد فهمتُ كمْ كانتْ لحظةً فارقةً في مسارِ حياتي كلِّها. وكان عليَّ أنْ أقررَ كيفَ سأتجاوبُ مع دعوةِ اللهِ. ومنْ أعماقِ قلبي، أشكرُ اللهَ الذي بنعمتِهِ قد أرشَدَني لاتخاذِ القرارِ الصحيحِ.

أرجو أنْ تلاحظَ ما سأقولُهُ لكَ بعنايةٍ شديدةٍ. إنْ رَاوَدَكَ إحساسٌ عميقٌ بينَمَا تقرأُ هذهِ السطورَ بأنَّ اللهَ يدعوكَ، وإنْ كانَ ما قرأتَهُ يجيبُ على أمرٍ ما يحدثُ في حياتِكَ الآنَ، فأريدُ أنْ أخبرَكَ بصورةٍ ملحةٍ أنَّ هذهِ هي اللحظةُ الأكثرُ أهميةً في حياتِكَ. لذا أرجو أنْ تلتفتَ جيدًا لا لصوتي، بل لصوتِ اللهِ بينما يتحدثُ إليكَ.

دعوةٌ واستدعاءٌ

كلمةُ دعوة هي إلى حدٍّ ما كلمةٌ إنجليزيةٌ قديمةٌ، على الأقلِّ

بالطريقةِ المُستَخدَمةِ بها في الكتابِ المقدَّسِ. كما ذكرتُ قبلًا، تحملُ هذهِ الكلمةُ معنَيَيْن موافقَيْنِ لبعضِهِمَا البعضِ: "طلب" أو "استدعى- أرسلَ في طلبِ". عندما تتلقَّى دعوةً، فهذا يَعني أنهُ يُطلبُ منكَ المشاركةُ في مناسبةٍ لطيفةٍ. لكنْ عندما تتلقَّى استدعاءً، فإنهُ يمثلُ دائمًا تفويضًا من سلطةٍ ما. ودعوةُ الله تحملُ كلا المعنَيَيْن. إنها دعوةٌ لنوالِ كلِّ بركةٍ أُعطِيَتْ لنا منَ اللهِ في يسوعَ المسيحِ، لكنها أيضًا أمرُ استدعاءٍ من سيدِ الكونِ ومثبِّتِ أركانِهِ. عندما نتلقَّى دعوةَ اللهِ، لا يمكِنُنا أنْ نهزَّ أكتافَنا استهجانًا ونتغاضَى عن دعوتِهِ قائلينَ: "أنا لا أشعرُ برغبةٍ في قبولِ هذهِ الدعوةِ." على العكسِ، يجبُ أنْ ندركَ بوعيٍ كاملٍ أننا نتعاملُ مع اللهِ القديرِ.

ولا يزالُ اللهُ يحتفظُ بزمامِ المبادرةِ في كلِّ ما يتعلقُ بموضوعِ الدعوةِ هذا. هو يدعونا، ونحنُ نتجاوبُ مع دعوتِه. ولا يزالُ منَ المهمِّ أنْ ندركَ في هذهِ المرحلةِ الحرجةِ والمهمةِ أنَّ دعوتَهُ دائمًا تنتظرُ استجابةً منَّا. مرةً أخرى، عِلْمُهُ المسبقُ واختيارُهُ وتعيينُه لنا كانتْ أحداثًا حدثتْ في الأبديةِ بعيدًا عن أيِّ تدخُّلٍ من جانبِنَا. لكنْ عندما نوضعُ في مواجهةٍ مع دعوةِ اللهِ، فمنَ الضروريِّ أنْ نقدِّمَ ردًّا على هذهِ الدعوةِ. أريدُ أنْ أكررَ أنَّ استجابَتَنا لدعوةِ اللهِ ستحدِّدُ كلَّ ما سيتبعُ ذلكَ القرارَ في حياتِنَا.

الخلاصُ هو دعوةٌ

إنَّ إعـلانَ الإنجيـلِ هـو دعـوةُ اللهِ، وقبـولَ الدعـوةِ يـؤدي إلى الخـلاصِ. يـشرحُ بولـسُ هـذا الأمـرَ فيقـولُ:

"وَأَمَّـا نَحْـنُ فَيَنْبَغِـي لَنَـا أَنْ نَشْـكُرَ اللهَ كُلَّ حِيـنٍ لأَجْلِكُـمْ أَيُّهَـا الإِخْـوَةُ الْمَحْبُوبُـونَ مِـنَ الـرَّبِّ، أَنَّ اللهَ اخْتَارَكُـمْ مِـنَ الْبَـدْءِ لِلْخَـلاَصِ، بِتَقْدِيـسِ الـرُّوحِ وَتَصْدِيـقِ الْحَـقِّ. الأَمْـرُ الَّـذِي دَعَاكُـمْ إِلَيْـهِ بِإِنْجِيلِنَـا، لاقْتِنَـاءِ مَجْـدِ رَبِّنَـا يَسُـوعَ الْمَسِـيحِ" (٢تسـالونيكي ٢: ١٣-١٤).

يؤكـدُ بولـسُ مُجـدَّدًا على حقيقـةِ اختيـارِ اللهِ لنـا، وفي سـياقِ هـذا النَّـصِّ كتـبَ عـن اختيـارِ اللهِ لنـا مـن أجـلِ الخـلاصِ. قـال بولـسُ إنَّ اللهَ قـد دعانـا للخـلاصِ بإعـلانِ الإنجيـلِ. فعندمـا يُكـرَزُ إلينـا بالإنجيـلِ تتحقـقُ دعـوةُ اللهِ لنـا. إنهـا دعـوةُ اللهِ أو بالأحـرى طلـبُ اسـتدعاءٍ لنـوالِ الخـلاصِ. اختتـمَ بولـسُ المقطـعَ المذكـورَ أعـلاه بالكلمـاتِ التاليـةِ: "لاقْتِنَـاءِ مَجْـدِ رَبِّنَـا يَسُـوعَ الْمَسِـيحِ." مـن فضلِـكَ تذكَّـرْ أنَّ كلَّ مـا يفعلُـهُ اللهُ في موضـوعِ تعيينِـهِ لـكَ هـو لهـدفِ تمجيـدِهِ.

إنَّ اختيارَ اللهِ لنا يتجسَّدُ في حياتِنَا من خلالِ قبولِ دعوتِه.

ولـنْ نعـرفَ أنـهُ قـدِ اختارَنـا حـتى يدعونَـا أولًا. ولكـنْ منـذُ اللحظـةِ الـتي يدعونـا فيهـا فصاعـدًا، نواجـهُ حقيقـةً جليلـةً ومهيبـةً مفادَهـا أنَّ اللهَ قـدِ اختارَنـا.

نحن دُعِينا لننالَ الخلاصَ، وقبولُ الدعوةِ يحقِّقُ هذا الخلاصَ. وعندما نختبرُ الخلاصَ، نكتشفُ (أو هكذا يجبُ أن نكتشفَ) أنَّ الخلاصَ يفتحُ البابَ لتحقيقِ ما دعانا اللهُ من أجلِهِ. هذه النقطةُ مهمةٌ للغايةِ. كثيرونَ لا يدركونَ أنهم عندما نالوا الخلاصَ، تلقَّوا أيضًا دعوةَ اللهِ على حياتِهِم.

ثلاثةُ جوانبَ مهمةٍ لدعوتِنَا

ربما لم تشعرْ بعد بأنكَ اكتشفتَ دعوةَ اللهِ لكَ، حتى لو كانَ ذلك صحيحًا، إلا أنكَ مدعوٌّ منَ اللهِ. كتبَ بولسُ لتلميذِهِ تيموثاوس:

"[الله] الَّذِي خَلَّصَنَا وَدَعَانَا دَعْوَةً مُقَدَّسَةً، لاَ بِمُقْتَضَى أَعْمَالِنَا، بَلْ بِمُقْتَضَى الْقَصْدِ وَالنِّعْمَةِ الَّتِي أُعْطِيَتْ لَنَا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ قَبْلَ الأَزْمِنَةِ الأَزَلِيَّةِ" (٢تيموثاوس ١: ٩).

نحنُ بحاجةٍ إلى فهمِ الجوانبِ الثلاثةِ التاليةِ لطبيعةِ دعوةِ اللهِ لنا.

١. إنَّها دعوةٌ مقدَّسةٌ

أولُ كلِّ شيءٍ، إنَّ دعوتَنَا هي دعوةٌ مقدسةٌ. دعوةٌ ينبغي أنْ نعطيَهَا كلَّ تركيزِنا، وتحظى بأولويَّةٍ كاملةٍ في كلِّ جانبٍ من جوانبِ حياتِنا. فهي دعوةٌ مقدسةٌ يجبُ أنْ نتناولَهَا بذاتِ القدرِ

مـنَ القداسـةِ. ولا يجـبُ أنْ تـدَعَ شـيئًا يحـولُ بينَـكَ وبـينَ قصـدِ اللهِ ودعوتِـهِ في حياتِـكَ.

٢. إنـها دعوةٌ مُقدَّمةٌ بالنعمةِ

ثانيًـا، قـالَ بولـسُ إنَّ دعوتَنَـا ليسـتْ حسـبَ أعمالِنَـا "بَـلْ بِمُقْتَـضَى الْقَصْـدِ وَالنِّعْمَـةِ." بمعـنى آخـر، لا تعتمـدُ دعوتُنـا أو قدرتُنـا في تحقيقِهـا على قدراتِنَـا الطبيعيـةِ. ومـن الـضروريِّ فهـمُ هـذه الحقيقةِ.

ربمـا تقـولُ: "كيـف يمكـنُ للهِ أنْ يدعـوني لفعـلِ هـذا أو ذاكَ؟ ليسـتْ لديَّ قـدرةٌ" إنَّ دعوتَـهُ تتعلـقُ بنعمتِـهِ ولا تقـفُ عنـدَ حـدودِ قدرتِـكَ. وفي الحقيقـةِ، إنَّ نعمـةَ اللهِ تبـدأُ مـن حيـثُ تنتـهي قدرتُـكَ. فطالمـا يمكنُـكَ التـصرفُ في أمـرٍ مـا بنفسِـكَ، فأنـتَ لسـتَ بحاجـةٍ إلى نعمـةِ اللهِ.

لا ترفـضْ أبـدًا دعـوةَ اللهِ لأنـكَ تشـعرُ بالعجـزِ. لقـد شـعرَ تقريبًـا كلُّ الذيـن دعاهـم اللهُ في الكتـابِ المقـدسِ بأنهـم عاجـزونَ عـن إتمـامِ دعوتِـهِ. فشـعورُكَ بالعجـزِ ربمـا يكـونُ علامـةً جيـدةً لقبـولِ الدعـوةِ وتحقيقِهَـا. وأشـكُّ في الشـخصِ الذي يسـتقبلُ دعـوةَ الله إنْ قـالَ هـذا القـولَ: "حسـنًا، يمكِنُـني بالطبـعِ أنْ أفعـلَ بالضبـطِ مـا يقـولُهُ اللهُ لي." إنَّ أولَ ملاحظـةٍ قـد تتدارَكُهـا عنـدَ دعـوةِ اللهِ لـكَ هي إدراكُ لـكلا المحكمتـين

عجـزِكَ الشـخصيِّ عـنْ تحقيـقِ تلـك الدعـوةِ. هـذا الإدراكُ يدفعُـكَ بـكلِّ وضـوحٍ إلى أنْ تلـقيَ بنفسِـكَ على نعمـةِ اللهِ وعلى ورحمتِـهِ.

دَعْـني أشـارِكُكَ باختبـارٍ شـخصيٍّ. كنـتُ الابـنَ الوحيـدَ لعائلتي، فلـم يكـنْ لي إخـوةٌ أو أخـواتٌ. وتلقيـتُ تعليـمي داخـلَ جـدرانِ المـدارسِ الداخليـةِ؛ حيـثُ لا توجـدُ فتيـاتٌ. ثـم التحقـتُ بجامعـةِ كامبريـدج؛ حيـثُ كانـتِ الفتيـاتُ في موضـعٍ يتجنَّـبُ جـذبَ الانتبـاهِ إلى حـدٍّ كبـيرٍ. في بدايـةِ الحربِ العالميـةِ الثانيـةِ، اسـتُدعِيتُ للانضمامِ إلى الجيـشِ البريطـانيِّ، الذي يغلـبُ عليـه الطابـعُ الذكـوريُّ. وفي قصـدِ اللهِ وبتعيينِـهِ المسـبقِ، وضعـني الجيـشُ في أرضِ فلسـطينَ، ثـم لاحقًـا في مدينـةِ أورشـليمَ.

قبيـلَ أنْ أتـركَ الخدمـةَ في الجيـشِ، كنـتُ قـد تزوجـتُ مـن ليديا وهي امـرأةٌ دنماركيـةٌ، كانـتْ مرسـلةً تديرُ إحـدى دورِ رعايـةِ الأطفالِ. في هـذا الوقـتِ كانَ لديهـا ثمـاني فتيـاتٍ في دورِ الرعايـةِ، سـتُّ فتيـاتٍ إسرائيليـاتٍ، وفتـاةٌ عربيـةٌ وواحـدةٌ إنجليزيـةٌ. ومـن واقـعِ الخلفيـةِ والخـبرةِ الـتي وصفتُهـا للتـوِّ، مـا كانَ لأحـدٍ تصـوُّرُ شـخصٍ غـيرِ مناسـبٍ أكـثرَ مـني لأنْ يصبـحَ أبًـا لثمـاني فتيـاتٍ بالتبـنِّي. فلـو وضعـتُ قائمـةً بأسـماءِ المرشَّـحينَ المحتمَلـينَ لقبـولِ هـذهِ المهمَّـةِ لـم يكـنْ اسـمي ليوضـعَ فيهَـا.

لكنَّ اللهَ لم يستَشِرْ آخرينَ حولَ قبولِ هذه الدعوةِ ولا حتى استشارَني. كان اختيارًا إلهيًّا، وبحكمةٍ إلهيةٍ. لقد حمَّلَ لي هذا الاختبارُ بمجملِه الكثيرَ منَ الخيرِ. كانَ عليَّ أنْ أتعلمَ أنَّ هناك أشخاصًا آخرين في العالمِ غيرَ ديريك. المغزى هو أنَّ اللهَ قد منحني نعمةً لإنجازِ أمرٍ لم أكنْ مناسبًا له تمامًا بطبيعتي التي أنا عليها.

٣. إنها دعوةٌ قبلَ الأزمنةِ الأزليَّةِ

الجانبُ الثالثُ لدعوةِ اللهِ هو أننا مدعوُّونَ لتحقيقِ قصدِ اللهِ الذي صوَّرَهُ وأبدَعَهُ قبلَ بدايةِ الزمنِ. هذهِ الحقيقةُ تثيرُ دهشَتي. وأرى كثيرينَ اليومَ منجرفينَ في بحرِ الزمنِ بلا هدفٍ. ليس لهم مرساةٌ ولا ماضٍ ولا مستقبلٌ. كأنهم مثلُ سدادةٍ منَ الفلِّينَ تتمايلُ صعودًا وهبوطًا على الأمواجِ. فما السببُ؟ لأنهم لم يدركوا أبدًا هذهِ الرؤيةَ لإلهٍ سرمديٍّ أعدَّ لهم خطةً قبل بدايةِ الزمنِ، وفي الوقتِ المناسبِ سيضعُهُم أمامَ خطتِهِ عندما يدعوهم.

وصفَ الرسولُ بطرسُ الردَّ المناسبَ لدعوةِ اللهِ قائلًا: "ذلِكَ بِالأَكْثَرِ اجْتَهِدُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ تَجْعَلُوا دَعْوَتَكُمْ وَاخْتِيَارَكُمْ ثَابِتَيْنِ" (٢بطرس ١: ١٠). فعندما دُعيتَ، كانَ الله قد أتمَّ عملَهُ بخصوصِ هذهِ الدعوةِ وعليكَ الآنَ أنْ تتجاوبَ معَهَا. قالَ بطرسُ إنهُ ينبغي أنْ نتجاوبَ بحرصٍ شديدٍ واجتهادٍ على تثبيتِ دعوتِنَا واختيارِنا. وأودُّ أنْ ألخِّصَ التجاوبَ

مع الدعوةِ في هذا التعبيرِ: (تصميمُ النفسِ وتكريسُها لهدفٍ واحدٍ). يجبُ أنْ تكونَ لديكَ بؤرةُ تركيزٍ واحدةٌ ولديكَ هدفٌ واحدٌ. يجبُ أنْ تقولَ كما قالَ بولسُ: "وَلكِنِّي أَفْعَلُ شَيْئًا وَاحِدًا... أَسْعَى نَحْوَ الْغَرَضِ لأَجْلِ جَعَالَةِ دَعْوَةِ اللهِ الْعُلْيَا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ." (انظر فيلبي ٣: ١٣-١٤).

لماذا لا تقضي بعضَ الوقتِ الآنَ لتردِّدَ تلكَ الكلماتِ إلى الربِّ بخصوصِ دعوتِكَ؟ من فضلِكَ كرِّرْ ما أكَّدَ عليهِ بولسُ بصوتٍ عالٍ كاستجابةٍ لدعوةِ اللهِ على حياتِكَ:

«يا ربّ إني أردّدُ صدَى ما قالَهُ بولسُ بخصوصِ دعوتِكَ لي: "وَلكِنِّي أَفْعَلُ شَيْئًا وَاحِدًا... أَسْعَى نَحْوَ الْغَرَضِ لأَجْلِ جَعَالَةِ دَعْوَةِ اللهِ الْعُلْيَا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ." ولن أسمحَ لنفسي بالابتعادِ عن دعوةِ اللهِ لي. آمين»

الفصلُ الحادي عَشَر
المرحلةُ الخامسةُ: اللهُ خَلَّصَنَا

بينما نصلُ إلى المرحلةِ الخامسةِ في خطةِ اللهِ لنا وهي أنَّ اللهَ "خلَّصَنَا"، يلزَمُنا أنْ نتأمَّلَ فيما يَعنيه أنْ ننالَ الخلاصَ كنتيجةٍ لدعوةِ اللهِ. يجبُ علينا أولًا أنْ نفهمَ المتطلباتِ الواضحةَ للخلاصِ الواردةَ في العهدِ الجديدِ التي ذكرها بولسُ في رسالتِهِ إلى أهلِ رومية:

"لأَنَّكَ إِنِ اعْتَرَفْتَ بِفَمِكَ بِالرَّبِّ يَسُوعَ، وَآمَنْتَ بِقَلْبِكَ أَنَّ اللهَ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، خَلَصْتَ" (رومية ١٠: ٩).

استنادًا إلى تلك الآيةِ، ستحتاجُ إلى إنجازِ أمرَيْنِ فقطْ: الأولُ أنْ تؤمنَ بقلبِكَ ما سجَّلَهُ العهدُ الجديدُ بأنَّ اللهَ قد أقامَ يسوعَ من بينِ الأمواتِ. لكنَّ ذلكَ الإيمانَ القلبيَّ غيرُ كافٍ في حدِّ ذاتِهِ. وكيما تقبلَ ما قالهُ اللهُ وتقرَّ بهِ، عليكَ أنْ تسلِّمَ حياتَكَ بقوةٍ لربوبيةِ يسوعَ وسيادتِهِ. هذا يَعني أنكَ يجبُ أنْ تعترفَ اعترافًا شخصيًا بيسوعَ ربًا وسيدًا على حياتِكَ. هذَانِ المُتطلَّبان معًا، الإيمانُ بالقلبِ والاعترافُ بالفمِ، يقودانِكَ إلى الخلاصِ.

عمليَّةُ الخلاصِ

يقدمُ لنا الخلاصُ أربع فوائدَ على أقلِّ تقديرٍ؛ فمن خلالِ الخلاصِ تحرَّرْنَا مِنْ أربعةِ آثارٍ سلبيةٍ كانتْ جميعُهَا مترتبةً على الخطيةِ. لقد نلنَا الخلاصَ مِنَ الخطيةِ بصورةٍ عامةٍ، لكننا خَلُصْنَا على وجهِ التحديدِ من ذنبِهَا، وإدانتِهَا، وسلطانِهَا، ودَنَسِهَا.

إنَّ عمليةَ الخلاصِ تأخذُ مسارَهَا داخلَنَا كما وردتْ في الآيةِ التاليةِ:

"لَا بِأَعْمَال فِي بِرّ عَمِلْنَاهَا نَحْنُ، بَلْ بِمُقْتَضَى رَحْمَتِهِ خَلَّصَنَا [الله] بِغُسْلِ الْمِيلاَدِ الثَّانِي وَتَجْدِيدِ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (تيطس ٣: ٥).

تتضمَّنُ عمليةُ الخلاصِ ثلاثةَ أفعالٍ: "الاغتسالُ"، "الميلادُ الثاني"، و"تجديدُ الروح."

١. الاغتسالُ

يأتي في المرتبةِ الأولى "الغُسلُ" أو التطهرُ مِنْ دنسِ الخطيةِ. فنحن متَّسِخونَ مِنَ الداخلِ، وبحاجةٍ إلى التطهيرِ. ولا يوجدُ إلا عنصرٌ واحدٌ باستطاعتِهِ أن ينقيَ الخاطئَ إلا دم الربِّ يسوعَ المسيحِ. في رسالةِ يوحنا الأولى ١: ٧، يوضح الرسولُ يوحنا أنَّ دمَ يسوعَ ابنِ اللهِ يطهِّرُنا من كلِّ خطيةٍ.

وقد أخبَرَنا يوحنا كيفَ يُمكِنُنَا أنْ ننالَ هذا التطهيرَ: "إِنِ اعْتَرَفْنَا بِخَطَايَانَا فَهُوَ أَمِينٌ وَعَادِلٌ، حَتَّى يَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَيُطَهِّرَنَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ" (١يوحنا ١: ٩). أرجو أنْ تلاحظَ أنَّ اللهَ لم يغفرْ لنا ماضِيَنَا فقطْ، وهي حقيقةٌ رائعةٌ في حدِّ ذاتِها، بل يطهِّرُنا مِنْ كلِّ دنسِ الخطيةِ.

٢. الميلادُ الثاني

المرحلةُ الثانيةُ مِنْ عمليةِ الخلاصِ هي "الميلادُ الثاني" أو الولادةُ الجديدةُ. قالَ يسوعُ هذهِ الكلماتِ المألوفةَ جدًّا لنيقوديموس: "أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللهِ»" (يوحنا ٣: ٣).

الترجمةُ البديلةُ لكلمةِ "الولادة الثانية" هي "الولادةُ من فوق." إنَّ الميلادَ الثانيَ ولادةٌ مصدرُها من فوق، مِنْ مملكةِ اللهِ. قالَ يسوعُ أيضًا: "الْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ، وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ" (يوحنا ٣: ٦). عندما ولدَتْكَ أمُّكَ، كانتْ ولادةً تضمنتِ الجسدَ الذي وُلِدتَ بهِ وطبيعتَكَ الجسديةَ. لكنْ ليس ذلك هو الميلادَ الذي يقودُكَ للخلاصِ. الخلاصُ يأتي من خلالِ ولادةِ الروحِ، وهو الروحُ القدسُ. ومن خلالِ تلكَ الولادةِ نأخذُ حياةً جديدةً بالكاملِ، وتُولَدُ فينا من فوق بروحِ اللهِ. هذا هو معنى الميلادِ الثاني أو الولادةِ الجديدةِ.

٣. تجديدُ الروحِ

المرحلةُ الأخيرةُ منَ الخلاصِ هي "تجديدُ الروحِ". في المسيحِ صِرْنَا "خليقةً جديدةً." كتبَ بولسُ: "إِذًا إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ: الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ، هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا" (٢كورنثوس ٥: ١٧). إنَّ كلمةَ "خليقة" كلمةٌ في غايةِ الأهميةِ؛ لأنَّ الوحيدَ الذي يخلقُ هو اللهُ. للإنسانِ إمكانيَّةُ التصنيعِ والتصليحِ والتحسينِ، لكنْ أنْ نخلقَ، فهذا ليسَ باستطاعتِنَا. لكنْ لا يزالُ احتياجُنا هو الخليقةَ الجديدةَ. فبسببِ تأثيرِ الخطيةِ تدنَّسَ قلبُنَا وتشوَّهَ كيانُنَا الداخليُّ لدرجةٍ تجعلُ حتى مجرَّدَ إصلاحِهما وترقيعِهما لن يجديَ نفعًا.

الخليقةُ الجديدةُ وحدُها وافيةٌ لتحقيقِ قصدِ اللهِ

واجهَ النبيُّ يوناثانُ الملكَ داودَ بشأنِ حالةِ قلبِهِ المزريةِ بعدَ أنْ سقطَ الملكُ داودُ في خطيةِ الزنا، وارتكبَ أيضًا جريمةَ قتلٍ حاوَلَ إخفاءَها. في مزمورِ ٥١: ١٠ صرخَ داودُ متألمًا إلى الربِّ: "قَلْبًا نَقِيًّا اخْلُقْ فِيَّ يَا اَللهُ" لقد علمَ أنَّ القلبَ النقيَّ الحقيقيَّ لا يأتي إلا من اللهِ الخالقِ؛ فلا يمكنُ لأيِّ وسيلةٍ بشريةٍ أن تحققَ ذلك.

في الجوانبِ الثلاثةِ لعمليةِ الخلاصِ، وهي التطهيرُ والولادةُ الثانيةُ والخليقةُ الجديدةُ، يفعلُ اللهُ شيئًا لا يستطيعُ البشرُ

فعلَـهُ مطلقًـا. إنَّ هـذهِ كلَّهَـا تعكـسُ رحمـةَ اللهِ لا عـدلَه. إنـه يطبِّـقُ الخـلاصَ، ليـسَ بحسـبِ أعمـالِ الـبرِّ الـتي فعَلْنَاهـا، بـل حسـبَ رحمتِـهِ المطلقـةِ.

الخلاصُ يقودُنا لتغييراتٍ حاسمةٍ

هـذا الخـلاصُ الذي نتحـدثُ عنـهُ يـؤدي إلى تغيـيراتٍ حاسـمةٍ في حيـاةِ الإنسـانِ. أوَّلُ هـذهِ التغيـيراتِ أننـا قـدِ انتقَلْنَـا "مِـنَ الْمَـوْتِ إِلَى الْحَيَـاةِ":

[قـال يسـوع] "اَلْحَـقَّ الْحَـقَّ أَقُـولُ لَكُـمْ: إِنَّ مَـنْ يَسْـمَعُ كَلاَمِـي وَيُؤْمِـنُ بِالَّـذِي أَرْسَـلَنِي فَلَـهُ حَيَـاةٌ أَبَدِيَّـةٌ، وَلاَ يَأْتِـي إِلَـى دَيْنُونَـةٍ، بَـلْ قَـدِ انْتَقَـلَ مِـنَ الْمَـوْتِ إِلَـى الْحَيَـاةِ." (يوحنـا ٥: ٢٤).

فالخلاصُ إذن هو العبورُ منَ الموتِ إلى الحياةِ الأبديةِ.

ثانيًـا، الخـلاصُ هـو الانتقـالُ مـن الظلمـةِ إلى النـورِ، كتـبَ بولـسُ: "لأَنَّكُـمْ كُنْتُـمْ قَبْـلًا ظُلْمَـةً، وَأَمَّـا الآنَ فَنُـورٌ فِي الـرَّبِّ" (أفسـس ٥: ٨).

ثالثًـا، الخـلاصُ هـو الانتقـالُ مـن كونِنـا أبنـاءَ الغضـبِ إلى كينونـةِ أبنـاءِ اللهِ. قـالَ بولـسُ: "الَّذِيـنَ نَحْـنُ أَيْضًـا جَمِيعًـا [أبناء المعصية]...، كُنَّـا [متضمّنًا نفسَه] بِالطَّبِيعَـةِ أَبْنَـاءَ الْغَضَـبِ كَالْبَاقِـينَ أَيْضًـا" (أفسـس ٢: ٣؛ وانظـر أيضًـا الآيـة ٢). ومـع ذلـك، تكلـمَ يوحنـا عـنِ الحقائـقِ

الرائعةِ التاليةِ عنْ أبناءِ الغضبِ الذين قَبِلوا يسوعَ مخلِّصًا لهم؛ إذْ يقولُ: "وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللهِ" (يوحنا ١: ١٢-١٣). إنَّ الفعلَ القاطعَ بقبولِ يسوعَ هو الذي يغيرُ الشخصَ منَ ابنٍ للغضبِ إلى ابنٍ للهِ. ولا يتحققُ هذا التحولُ بالانضمامِ لإحدى الكنائسِ، أو "بدءِ صفحةٍ جديدةٍ" أو اتخاذِك قراراتٍ جيدةٍ. إنَّ التغييرَ يتحققُ بقبولِ يسوعَ مخلصًا شخصيًا.

قرار حيوي

فيما يتعلقُ بالخلاصِ لم يتبقَّ لدينا سوى التحدثُ عنْ فئتَيْنِ منَ الأشخاصِ. وعندما نتحدَّثُ عنِ الثروةِ الماديةِ عادةً ما نشيرُ إليها بكلمتَيْنِ تعبِّرانِ عنها "مَنْ لهُ" و"مَن ليس لهُ" ينطبقُ هذا المفهومُ أيضًا على العالمِ الروحيِّ. ولخَّصَ يوحنا الوضعَ على النحوِ التالي:

"وَهذِهِ هِيَ الشَّهَادَةُ: أَنَّ اللهَ أَعْطَانَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً، وَهذِهِ الْحَيَاةُ هِيَ فِي ابْنِهِ. مَنْ لَهُ الابْنُ فَلَهُ الْحَيَاةُ، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ ابْنُ اللهِ فَلَيْسَتْ لَهُ الْحَيَاةُ" (١يوحنا ٥: ١١-١٢).

إنَّ السؤالَ الذي يطرحُ نفسَهُ: "هل قبلتَ المسيحَ؟" في المسيحِ لكَ حياةٌ أبديةٌ. لكنْ إن لم يكنْ لكَ المسيحُ، ولم تقبَلْهُ فليسَ لكَ "الْحَيَاةُ". فهلْ هو لكَ أم ليسَ لكَ؟ هذا قرارٌ حاسمٌ

على كلِّ شخصٍ أن يتَّخِذَهُ، وموضوعٌ في غايةِ الأهميةِ عليكَ أن تجدَ لهُ حلًّا بنفسِكَ.

وإذْ نختتمُ هذا الفصلَ عنِ الخلاصِ، أوجِّهُ لكَ هذا السؤالَ: لِمَ التأجيلُ؟ إن كانَ لديك أيُّ شكٍّ حولَ موقِفِكَ معَ اللهِ وترغبُ في حلِّ هذهِ المشكلةِ بصورةٍ نهائيةٍ، أدعوكَ أنْ تهتمَّ بهذهِ المسألةِ. وإذا كنتَ ترغبُ في اتخاذِ هذهِ الخطوةِ الحاسمةِ الفاصلةِ، أو حتى إذا كنتَ ترغبُ في تأكيدِ هذا الموقفِ مرةً أخرى للتأكدِ منَ الأمرِ إلى الأبدِ، فرجاءً صلِّ هذهِ الصلاةَ معي الآنَ:

«يا يسوعُ الحبيبُ، إنّي أحتاجُ لخلاصِكَ أنْ يكتملَ في حياتي، كما أنني بحاجةٍ ماسةٍ إلى أنْ تطهّرَني منْ خطاياي وآثامِي. وأحتاجُ أنْ أولَدَ الولادةَ الجديدةَ بالروحِ القدسِ، وأنْ أتجددَ كخليقةٍ جديدةٍ. وأنْ أنتقلَ منَ الموتِ إلى الحياةِ، من الظلمةِ إلى النورِ، من كَوني ابنًا للغضبِ إلى ابنٍ للهِ. لذلكَ أنا أقبلُكَ أيها الربّ يسوعُ المسيحُ في حياتي. وأؤمنُ بقلبي أنّ اللهَ قد أقامَكَ من بينِ الأمواتِ، وأعترفُ بفمِي بأنكَ ربّي وسيّدي. أشكرُكَ منْ أجلِ خلاصِكَ العظيمِ. آمينْ»

الفصلُ الثاني عشر
المرحلةُ السادسةُ: الله برَّرَنا

كما تعلَّمْنا حتى الآنَ في مناقشاتِنَا حولَ الخلاصِ، فإنَّ جوهرَ قبولِ الخلاصِ هو تلبيةُ مطلبَيْنِ واضحَيْنِ: الإيمانُ بقلبِكَ أنَّ اللهَ قد أقامَ يسوعَ منْ بينِ الأمواتِ والاعترافُ بفمِكَ بيسوعَ ربًّا. وعندما تستوفي هذَيْنِ الشرطَيْنِ، كما فعلتُ في نهايةِ الفصلِ الأخيرِ، يمكنكَ أن تقولَ، على أساسِ الكتابِ المقدسِ: "أنا قد خلُصتُ".

مع الأسفِ، مسيحيُّونَ كثيرونَ يتوقفُ اختبارُهُم الشخصيُّ وطريقةُ تفكيرِهِم عندَ هذا الحدِّ. لكنَّ الخلاصَ يقودُنا إلى المرحلةِ السادسةِ وهي أنَّ الله قدْ "برَّرَنا". كما هو الحالُ مع كلمةِ "عيَّنَنَا"، يرى البعضُ كلمةَ "التبرير" كلمةً لاهوتيةً مخيفةً يتراجعونَ عنها. إلا أنَّ التفكيرَ بهذهِ الطريقةِ هو أمرٌ مؤسفٌ للغايةِ. لأن التبريرَ أحدَ أبرزِ الحقائقِ المجيدةِ في الكتابِ المقدسِ بأكملِهِ.

ما هو "التبريرُ"؟

ما معنى أنْ تتبرَّرَ؟ وللإجابةِ على ذلك السؤالِ، سنراجعُ سلسلةً من التعاريفِ. أولًا، أنْ تتبرَّرَ يَعني "أنْ يتمَّ تبرِئَتُكَ من فعلِ

الجريمةِ." التبريرُ هو حكمُ السماءِ على حياتِكَ بأنكَ "غيرُ مذنبٍ".

أن تتبرَّرَ يعني أيضًا أنْ "تُحسَبَ بارًا" عندما تتبرَّرُ ينسِبُ اللهُ إليكَ أو يمنَحُكَ برَّهُ الشخصيَّ.

وأخيرًا، أنْ تكونَ مبررًا يعني أنْ "تصير صالحًا". لذا لا تتوقفْ أرجوكَ عن كونِكَ قدْ "حُسِبْتَ" بارًا، بل يجبُ عليكَ أنْ تكونَ بارًا.

إليكَ شرحي البسيطُ لما يَعنيهِ أنْ تكونَ مبرَّرًا: يَعني "كما لو أنني لمْ أخطئْ قطُّ" وتبررتُ ببرِّ اللهِ، ذلكَ البرِّ الذي لم يعرفِ الخطيةَ قطُّ ولا حتى ظلَّ الذنبُ، وليسَ لديه ماضٍ يحتاجُ إلى غفرانٍ. أن تتبرَّرَ ببرِّ اللهِ فهذا هو المعنَى الكاملُ للتبريرِ.

كيفَ نكونُ أبرارًا؟

التبريرُ هو إجابةٌ لسؤالٍ طرحَهُ أيوبُ في أقدمِ سفرٍ في الكتابِ المقدسِ. سألَ أيوبُ هذا السؤالَ عندما كانَ يمرُّ بضيقٍ شديدٍ فصرخَ قائلًا: "كَيْفَ يَتَبَرَّرُ الإِنْسَانُ عِنْدَ اللهِ؟" (أيوب ٩: ٢). هذا السؤالُ عميقٌ جدًّا، والإجابةُ عليه صعبةٌ. إنَّ أصدقاءَ أيوبَ، الذين لم يساعدُوه كثيرًا، بدا أنَّ جميعَهُم متَّفِقون على أنهُ لا يمكنُ لأحدٍ أنْ يتبرَّرَ أمامَ اللهِ. بالنسبةِ لهم، كانَ من السخفِ

حتى التحدثَ عن هذا الموضوعِ بهذهِ الطريقةِ. لكنْ شكرًا للهِ لتمسُّكِ أيوبَ بطرحِ سؤالِهِ. حتَّى رغمَ عدمِ امتلاكِهِ الجوابَ، إلا أنهُ لم يتخلَّ عنْ طرحِ السؤالِ.

إذا كنتَ تريدُ إجابةً لسؤالِ أيوبَ، فإنَّ أفضلَ مكانٍ تلجأُ إليهِ هو رسالةُ بولسَ إلى أهلِ رومية. في هذه الرسالةِ قدمَ بولسُ الإجابةَ الكاملةَ على المشكلةِ التي عبَّر عنها هذا السؤالُ: "كَيْفَ يَتَبَرَّرُ الإِنْسَانُ عِنْدَ اللهِ؟"

"وَأَمَّا الآنَ فَقَدْ ظَهَرَ بِرُّ اللهِ بِدُونِ النَّامُوسِ، مَشْهُودًا لَهُ مِنَ النَّامُوسِ وَالأَنْبِيَاءِ، بِرُّ اللهِ بِالإِيمَانِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، إِلَى كُلِّ وَعَلَى كُلِّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ. لأَنَّهُ لاَ فَرْقَ. إِذِ الْجَمِيعُ أَخْطَأُوا وَأَعْوَزَهُمْ مَجْدُ اللهِ، مُتَبَرِّرِينَ مَجَّانًا بِنِعْمَتِهِ بِالْفِدَاءِ الَّذِي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ" (رومية ٣: ٢١-٢٤).

أرجو أن تلاحظَ أننا مُبرَّرونَ، أي حُسبنا أبرارًا مجانًا. ولا يُمكِنُنا أنْ ننالَ التبريرَ كنتيجةٍ لعملِنَا، لكنَّنَا ننالُهُ بنعمةِ اللهِ وليس بجهودِنَا. إنَّ هذا التبريرَ ننالُهُ منْ خلالِ الفداءِ الذي قدَّمَهُ يسوعُ المسيحُ بموتِهِ كفديةٍ نيابةً عنَّا.

التبريرُ المجانيُّ بالإيمانِ

كتبَ بولسُ: "فَإِذْ قَدْ تَبَرَّرْنَا بِالإِيمَانِ لَنَا سَلاَمٌ مَعَ اللهِ بِرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (رومية ٥: ١). لقد نلنَا التبريرَ منَ اللهِ كعطيةٍ مجانيةٍ

بالإيمانِ ليسَ بالأعمالِ قطُّ، لكنْ بالإيمانِ وحدِهِ. إنْ حاولتَ أنْ تكتسبَ التبريرَ بفعلٍ أيّ شيءٍ لن تَنالَهُ مطلقًا، يجبُ أنْ تؤمنَ أنّه عطيةٌ مجانيةٌ. وتكمنُ مشكلةُ الكثيرينَ منَ المتدينينَ في أنهم يحاولونَ كسبَ برِّ اللهِ الذي لا يمكنُ لأحدٍ أنْ يربحَهُ بعملِهِ.

كما نرى هذه الحقيقةَ أكثرَ وضوحًا في الفصلِ الخامسِ منَ الرسالةِ إلى أهلِ رومية، حيثُ عقدَ بولسُ مقارنةً بينَ نتائجِ خطيةِ آدمَ وبرِّ المسيحِ:

"لأَنَّهُ إِنْ كَانَ بِخَطِيَّةِ الْوَاحِدِ قَدْ مَلَكَ الْمَوْتُ بِالْوَاحِدِ، فَبِالأَوْلَى كَثِيرًا الَّذِينَ يَنَالُونَ فَيْضَ النِّعْمَةِ وَعَطِيَّةَ الْبِرِّ، سَيَمْلِكُونَ فِي الْحَيَاةِ بِالْوَاحِدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ!" (رومية ٥: ١٧).

تحدَّثَ بولسُ عن نوالِ "فَيْضَ النِّعْمَةِ وَعَطِيَّةَ الْبِرِّ." مرةً أخرى، يمكِنُنَا أنْ نرى منْ خلالِ كلماتِهِ أنَّ اللهَ قدْ أُعطَى لنا البرَّ عطيةً مجانيةً. عندما تنالُ الخلاصَ، يعطيكَ اللهُ عطيةَ البرِّ مجانًا. وأساسُ هذهِ العطيةِ المجانيةِ هو عمليةُ المبادلةُ التي تمَّتْ عندما بذلَ يسوعُ نفسَه على الصليبِ. لقد أخذَ يسوعُ مكانَ الخاطئِ والشريرِ والأثيمِ. لقد حملَ دينونةَ الخاطئِ، وتألَّمَ آخذًا عقابَ الخاطئِ. لكنَّ الجانبَ الآخرَ منْ هذا الفداءِ العظيمِ هو المبادلةُ التي قدَّمَها اللهُ لنا. في ٢ كورنثوس، ذكرَ بولسُ باقتضابٍ

شـديدٍ وبليـغٍ طبيعـةَ هـذهِ المبادلـةِ متحدِّثًـا عـن يسـوعَ فكتـبَ: "أَنَّهُ جَعَلَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ خَطِيَّةً، خَطِيَّةً لأَجْلِنَا، لِنَصِيرَ نَحْنُ بِرَّ اللهِ فِيهِ" (٢كورنثوس ٥: ٢١).

في المبادلـةِ الـتي تمـتْ على الصليـبِ جُعِـلَ يسـوعُ خطيـةً متحـدًا بطبيعتِنـا الخاطئـةِ. فمـاتَ يسـوعُ على الصليـبِ "لأَنَّ أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ" (رومية ٦: ٢٣). لكـنَّ الجانـبَ الآخـرَ لتلـكَ المبادلـةِ الرائعـةِ، هـو أننـا قـدْ صِرْنَـا في المسـيحِ بـرَّ اللهِ.

مـن فضلِـكَ تأمَّـلْ لحظـةً في هـذهِ العبـارةِ في ٢كورنثـوس ٥: ٢١: "... لِنَصِيرَ نَحْنُ بِرَّ اللهِ فِيهِ." إن كنـتَ تشـعرُ بعـدمِ الأمـانِ أو القلـقِ أو تتملّـكُكَ مشـاعرُ الذنـبِ، أدعـوك أنْ تسـتوعبَ هـذا الحـقَّ بالإيمـانِ، وأنْ تتمسَّـكَ بـهِ وهـو أنـكَ قـدْ صرتَ بـرَّ اللهِ بالإيمـانِ بيسـوعَ. والآنْ، خـذْ لحظـةً أخـرى لتفكّـرَ مليًـا فيمـا هـو بـرّ اللهِ. البـرُّ الذي لـم يخطـئْ قـطُّ، ولا يعـرِفُ الإثـمَ أو الذنـبَ، وليـس له ظـلالُ مـاضٍ شريـرٍ. للشـيطانِ أنْ يمـزقَ بـرَّكَ الذاتيَّ بإدانتِـهِ لـكَ؛ إذْ يمكِنُـه أنْ يشـتكيَ عليـكَ. لكنـه يقـفُ عاجـزًا عـنْ قـولِ أيِّ شيءٍ ضـدَّ بـرِّ اللهِ. وفي المبادلـةِ الـتي تمـتْ على الصليـبِ صـارَ بـرُّ اللهِ لـكَ الآنَ.

رداءُ البرِّ

في العهـدِ القديـمِ يصـورُ لنـا النـبيُّ إشـعياءُ صـورةً رائعـةً عـنِ

الخـلاصِ والـبرِّ. وأودُّ أنْ أشـدِّدَ مـرةً أخـرى على أنَّـهُ لا يجـبُ أنْ تتوقـفَ عنـدَ نـوالِ الخـلاصِ. لا بـدَّ أنْ تواصِـلَ لتنـالَ التبريـرَ أيضًـا. وهـذه صـورةٌ نبويـةٌ لمـا سـيصنَعُهُ الخـلاصُ لشـعبِ اللهِ:

"فَرَحًـا أَفْـرَحُ بِالـرَّبِّ. تَبْتَهِـجُ نَفْسِـي بِإِلهِـي، لأَنَّـهُ قَـدْ أَلْبَسَـنِي ثِيَـابَ الْخَلاَصِ. كَسَـانِي رِدَاءَ الْبِـرِّ، مِثْـلَ عَرِيـسٍ يَتَزَيَّـنُ بِعِمَامَـةٍ، وَمِثْـلَ عَـرُوسٍ تَتَزَيَّـنُ بِحُلِيِّهَـا" (إشـعياء ٦١: ١٠).

في هـذهِ الآيـةِ، يُعـبِّرُ إشـعياءُ عـنِ انفعالاتِـهِ الحماسـيةِ الحقيقيَّـةِ. وأتسـاءلُ عمـا إذا كانَ الشـخصُ الذي لا ينعـمُ أبـدًا بفـرحِ الخـلاصِ سـينعمُ بفـرحٍ كثـيرٍ في طريـقِ الخـلاصِ. وأرى أنَّ مَـن عـرفَ معـنى الخـلاصِ في الكتـابِ المقـدَّسِ انتابَـهُ فـرحٌ شـديدٌ؛ إذ قـالَ إشـعياءُ: "فَرَحًـا أَفْـرَحُ بِالـرَّبِّ. تَبْتَهِـجُ نَفْسِـي بِإِلهِـي" (سـفر إشـعياء ٦١: ١٠).

إذَا ألبسـك اللهُ ثيـابَ الخـلاصِ، فرجـاءً لا ترفـضْ رداءَ الـبرِّ. الخـلاصُ هـو المرحلـةُ الأولى، والـبرُّ هـو المرحلـةُ الثانيـةُ فلِـمَ لا تمتلـكُ هـذا الـبرَّ؟ إنـه بـرُّ اللهِ الذي لا يمكـنُ كسـبُهُ بـبرِّكَ الذاتيِّ لأنـهُ عطيـةٌ مجانيـةٌ.

مـرةً أخـرى، اسـتخدمَ إشـعياءُ أجمـلَ صـورةٍ عندمـا قـالَ: "[الله] كَسَـانِي رِدَاءَ الْبِـرِّ." وكإشـعياءَ يُمكِنُنـا أنْ نقـولَ: "لقـد غطَّـى اللهُ كلَّ كيـاني ولـمْ تَعُـدْ طبيعـتي القديمـةُ الجسـديةُ الخاطئـةُ مكشـوفةً. ولـم

يَعُدْ لإبليسَ شيءٌ في ماضيَّ ليربطَني به. لقد غطاني اللهُ بالكاملِ مِن الرَّأْسِ إلَى أخْمصِ القَدمِ برداءِ برِّه".

تمِّمْ خلاصَكَ

إننا ننالُ البرَّ عطيةً مجانيةً، لكن لا يُمكِنُنا أنْ نقفَ ساكنين أمامَ هذهِ العطيةِ، فهي تتطلبُ أنْ نتجاوبَ مَعَهَا. ويجبُ أنْ نتمِّمَ ما قد بدَأَهُ اللهُ. وذكرَ بولسُ هذا الحقَّ بوضوحٍ شديدٍ في رسالةِ فيلبي: "تَمِّمُوا خَلاَصَكُمْ بِخَوْفٍ وَرِعْدَةٍ، لأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَسَرَّةِ." (فيلبي ٢: ١٢-١٣). كما أشرتُ سابقًا، يجبُ أن نتمِّمَ ما بدَأَهُ اللهُ فينا. إذا لم نتمِّمْ برَّنَا، فلنْ يُكثِرَ اللهُ منْ عملِهِ فينا. واتساعُ عملِ اللهِ فينا يتوقَّفُ على قدرِ تتميمِنَا لذلكَ العملِ. يصوِّرُ لنا سفرُ الرؤيا صورةً رائعةً لثمرِ تتميمِ البرِّ في عروسِ المسيحِ التي كشفتْ عن نفسِها في رؤيا ١٩:

"لِنَفْرَحْ وَنَتَهَلَّلْ وَنُعْطِهِ [الله] الْمَجْدَ! لأَنَّ عُرْسَ الْخَرُوفِ [يسوع] قَدْ جَاءَ، وَامْرَأَتُهُ [الكنيسة] هَيَّأَتْ نَفْسَهَا. وَأُعْطِيَتْ أَنْ تَلْبَسَ بَزًّا نَقِيًّا بَهِيًّا، لأَنَّ الْبَزَّ هُوَ تَبَرُّرَاتُ الْقِدِّيسِينَ" (رؤيا ١٩: ٧-٨).

في هذه الصورةِ البديعةِ، تخطَّتِ العروسُ البرَّ المنسوبَ إليها وانتقلتْ إلى البرِّ المتمَّم- "تَبَرُّرَاتُ الْقِدِّيسِينَ" هذا المقطعُ رسالةٌ

جيـدةٌ لنـا تذكِّرُنـا بكيفيَّـةِ عمـلِ الـبرِّ: نحـنُ لا نبـدأُ أعمَـالَ الـبرِّ؛ إذْ إنَّنـا نبـدأُ بـبرِّ اللهِ الذي نُسِـبَ إلينـا، لكـنْ بعـدَ ذلـكَ، نتمِّـمُ مـا بـدَأَهُ اللهُ فينـا، وينعكـسُ ذلـكَ في أعمـالِ الـبرِّ الـتي نعمَلُها. سـتكونُ أعمـالُ الـبرِّ هي الـرداءُ الذي سنلبسُـه كلَّ الأبديـةِ.

الفصلُ الثالث عشر

المرحلةُ السابعةُ: اللهُ مجَّدنا

في خطـةِ اللهِ لنـا لـم يتوقَّـفِ اللهُ عنـدَ حـدِّ خلاصِنَـا أو تبريرِنَـا، لكنَّـهُ ذهـبَ إلى أبعـدِ مـن ذلـكَ، لقـد مجَّدَنـا. إنـهُ أمـرٌ في غايـةِ الأهميَّـةِ أنْ نـدركَ أنَّ كلَّ هـذهِ المراحـلِ هي في زمـنِ المـاضي. إذا كنـتَ تسـتطيعُ أنْ تؤمـنَ، اسـتنادًا إلى الكتـابِ المقـدسِ، أنَّ اللهَ قـد خلَّصَك فعندئـذٍ سـيمكنُكَ أنْ تؤمـنَ على أسـاسِ كلمـةِ اللهِ أنَّ اللهَ قـد بـرَّركَ. وعلى ضـوءِ هـذا، وعلى أسـاسِ الكتـابِ المقـدسِ، يمكِنُـكَ أنْ تؤمـنَ بـأنَّ الله قـدْ مجَّـدَكَ.

التمجيدُ في الزمانِ الحاضرِ

لا يُمكِنُـكَ تأجيـلُ التمجيـدِ للمسـتقبلِ كأنـهُ شيءٌ رائـعٌ نتطلـعُ إليـهِ. فكونُنَـا ممجَّدِيـن هـو شيءٌ لنمتلِكَـهُ الآنَ في الزمـانِ الحـاضرِ وخـلالَ هـذهِ الحيـاةِ؛ فالخـلاصُ يقـودُ للتبريـرِ، والتبريـرُ يقـودُ للتمجيـدِ.

فـأنْ نكـونَ ممجَّديـن، أو أنْ ندخـلَ إلى المجـدِ، يَعني أنْ نتشـاركَ مـعَ المسـيحِ في مجـدِهِ. قبـلَ أنْ يذهـبَ يسـوعُ إلى الصليـبِ، عندما كان

يصلِّي إلى الآبِ بروحِ النبوةِ، قالَ لتلاميذِهِ: "وَأَنَا قَدْ **أَعْطَيْتُهُمُ** الْمَجْدَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي" (يوحنا ١٧: ٢٢). لاحِظْ أنَّ هذا المجدَ لم يكنْ ينتظرُ أنْ يحدثَ مستَقبَلًا، بلْ حدثَ بالفعلِ في الماضي. المجدُ الذي أعطاهُ اللهُ ليسوعَ مُنِح لتلاميذِهِ ولنا نحنُ أيضًا بموتِ يسوعَ فديةً عنَّا، وبقيامتِهِ الظافرةِ.

دعني أكرِّرُ مرةً أخرى: إذا اشتركتَ في ملءِ خطةِ اللهِ، يمكنُكَ إذنْ أنْ تعلنَ هذهِ الإعلاناتِ الروحيةَ الثلاثةَ: "اللهُ خلَّصَني"، "اللهُ برَّرَني"، "اللهُ مجَّدَني". يمكنكَ استخدامُ زمنِ الماضي لجميعِ هذهِ الإعلاناتِ الروحيةِ، وليسَ زمنَ المستقبلِ. فجميعُ هذهِ البركاتِ الروحيةِ قد حدثَتْ بالفعلِ في الماضِي. وهي لكَ الآنَ لتمتَلِكَها.

في رسالةِ رومية ٤، يوضِّحُ بولسُ أننا قد تبرَّرْنا بقيامةِ يسوعَ.

"فَآمَنَ أَبْرَامَ [إبراهيم] بِالرَّبِّ فَحَسِبَهُ لَهُ بِرًّ" (تكوين ١٥: ٦؛ انظر أيضًا رومية ٤: ٢٠-٢٢). ثم تابعَ بولسُ قائلًا:

"وَلكِنْ لَمْ يُكْتَبْ مِنْ أَجْلِهِ وَحْدَهُ أَنَّهُ حُسِبَ لَهُ [إبراهيم]، بَلْ مِنْ أَجْلِنَا نَحْنُ أَيْضًا، الَّذِينَ سَيُحْسَبُ لَنَا، الَّذِينَ نُؤْمِنُ بِمَنْ أَقَامَ يَسُوعَ رَبَّنَا مِنَ الأَمْوَاتِ. الَّذِي أُسْلِمَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا وَأُقِيمَ [قام من الأموات] لأَجْلِ تَبْرِيرِنَا" (رومية ٤: ٢٣-٢٥).

ماتَ يسوعُ ليدفعَ ثمنَ خطايانا، لكنْ عندما قامَ منْ بينِ الأمواتِ كانَ لتبريرِنا. وعندما أقامَ اللهُ يسوعَ نقضَ حُكمَي محكمَتَيْن بشريَّتَيْن هما المحكمةُ الرومانيةُ العلمانيةُ والمحكمةُ اليهوديةُ الدينيةُ. كلتا المَحكمتَيْن نطقتَا بالحكمِ أنَّ يسوعَ يستوجبُ الموتَ وقد نفَّذَ الحكمَ بموتِهِ. لكن في اليومِ الثالثِ عندما دُحرِجَ الحجرُ وأقامَ اللهُ يسوعَ منْ بينِ الأمواتِ، نقضَ اللهُ هذَيْنِ الحكمَيْنِ البشريَّيْن، وأعلنَ في الواقعِ ما يَلي: "هذا حقًّا ابني، وهذا حقًّا المسيَّا الموعودُ. لا يوجدُ فيه خطيةٌ، وهو بارٌّ بالكاملِ. ولا يمكنُ لقبضةِ الموتِ أنْ تُمسِكَ بهِ."

لقد أظهرتِ القيامةُ برَّ يسوعَ. لكنَّ قيامتَهُ أيَّدَتْ برَّنا أيضًا. لقد نُسب ذنبُنا إلى يسوعَ وماتَ من أجلِ خطيَّتِنا. لكنْ في المقابلِ عندما نؤمنُ بهِ وبقيامتهِ يُنسَبُ إلينا برُّهُ. ولأنه قد أُعلِنَتْ براءتُهُ بالقيامةِ، بالمِثلِ نحنُ قد تبرَّأْنَا ونُسِبَ إلينا برُّهُ بالقيامةِ.

بصعودِ المسيحِ تمجَّدَنا

ولكنْ يلزمُنا أنْ نتقدمَ خطوةً أخرى؛ إذْ لم يتوقَّفْ عملُ المسيحِ لخلاصِنا عندَ القيامةِ. إنَّهُ يأخذُنا إلى ما هوَ أبعد منَ القيامةِ والتبريرِ، هو يأخُذُنا إلى الصعودِ الذي نتمجَّدُ من خلالِهِ. فنحنُ إذنْ قد تبرَّرْنا بقيامةِ يسوعَ وتمجَّدْنَا بصعودِهِ.

أوضحَ بولسُ هذهِ الحقيقةَ في رسالتِهِ إلى أهلِ أفسس:

"اَللهُ الَّذِي هُوَ غَنِيٌّ فِي الرَّحْمَةِ، مِنْ أَجْلِ مَحَبَّتِهِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي أَحَبَّنَا بِهَا، وَنَحْنُ أَمْوَاتٌ بِالْخَطَايَا أَحْيَانَا مَعَ الْمَسِيحِ (بِالنِّعْمَةِ أَنْتُمْ مُخَلَّصُونَ) وَأَقَامَنَا [من الأمواتِ] مَعَهُ، وَأَجْلَسَنَا مَعَهُ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ" (أفسس ٢: ٤-٦).

لقد صنعَ اللهُ نيابةً عنَّا الأعمالَ الثلاثةَ التاليةَ، وكلُّها قد ذُكِرَت في صيغةِ الفعلِ الماضي: فهو قدْ "أَحْيَانَا مَعَ الْمَسِيحِ"، "وَأَقَامَنَا [من الأموات] مَعَهُ [المسيح]"، ثم "أَجْلَسَنَا مَعَهُ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ." إنَّ المسيحَ يجلسُ الآنَ على عرشِ اللهِ لذا فإن كنَّا نجلسُ معه فنحنُ نجلسُ على عرشِ اللهِ. في ترجمةٍ إنجليزيةٍ أخرى يُترجَم أفسس ٢: ٦ على هذا النحو "[هو] قد توَّجَنا معهُ..."

في الفصلِ السابقِ، تأمَّلْنَا في السؤالِ الذي طرحَهُ أيوبُ: "كَيْفَ يَتَبَرَّرُ الإِنْسَانُ عِنْدَ اللهِ؟" (أيوب ٩: ٢). وفي سفرِ أيوبَ، هناكَ أيضًا مقطعٌ نبويٌّ جميلٌ، وأنا متأكدٌ من أنَّ أليهو، الرجلُ الذي نطقَ بهِ، لم يفهمْهُ تمامًا:

"[الله] لاَ يُحَوِّلُ عَيْنَيْهِ عَنِ الْبَارِّ، بَلْ مَعَ الْمُلُوكِ يُجْلِسُهُمْ عَلَى الْكُرْسِيِّ أَبَدًا، فَيَرْتَفِعُونَ" (أيوب ٣٦: ٧).

لا يقتصرُ الخلاصُ على القيامةِ، إنَّما يمتدُّ أيضًا إلى التبجيلِ الذي هو التمجيدُ والتكليلُ. وتذكَّرْ أنَّ هذا يعنيكَ أنتَ أيضًا، إذْ إنَّكَ قد أصبحتَ بارًا بالإيمانِ بيسوعَ.

سرُّ الحكمةِ المكتومةِ

إنَّ عمليةَ التمجيدِ المذهلةَ التي نحنُ بصددِ التأملِ فيها هي حكمةُ اللهِ المخفيةُ والمستترةُ التي تكلَّمَ عنها بولسُ في ١كورنثوس ٢: ١-٢:

"وَأَنَا لَمَّا أَتَيْتُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ، أَتَيْتُ لَيْسَ بِسُمُوِّ الْكَلاَمِ أَوِ الْحِكْمَةِ مُنَادِيًا لَكُمْ بِشَهَادَةِ اللهِ، لأَنِّي لَمْ أَعْزِمْ أَنْ أَعْرِفَ شَيْئًا بَيْنَكُمْ إِلاَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ وَإِيَّاهُ مَصْلُوبًا".

بادئُ ذي بدءٍ، وضع بولسُ جانبًا كلَّ معرفتِهِ الطبيعيَّةِ والبشريَّةِ والفكريَّةِ والأكاديميَّةِ فتكلَّمَ بحكمةٍ مختلفةٍ عنْ كلِّ هذهِ:

"لكِنَّنَا نَتَكَلَّمُ بِحِكْمَةٍ بَيْنَ الْكَامِلِينَ، وَلكِنْ بِحِكْمَةٍ لَيْسَتْ مِنْ هذَا الدَّهْرِ، وَلاَ مِنْ عُظَمَاءِ هذَا الدَّهْرِ، الَّذِينَ يُبْطَلُونَ. بَلْ نَتَكَلَّمُ بِحِكْمَةِ اللهِ فِي سِرّ: الْحِكْمَةِ الْمَكْتُومَةِ، الَّتِي سَبَقَ اللهُ فَعَيَّنَهَا قَبْلَ الدُّهُورِ لِمَجْدِنَا" (اكورنثوس ٢: ٦-٧).

قبلَ الأزمنةِ، كانتْ لدى اللهِ هذهِ الخطةُ الرائعةُ التي تضمَّنَتْ سبعَ مراحلَ كانتْ آخرُها مرحلةَ التمجيدِ. هذه المرحلةُ الأخيرةُ تأتي من خلالِ "سِرّ الحِكمَةِ الْمَكْتُومَة". هذا الإعلانُ الإلهيُّ ليسَ مُتاحًا لقدرةِ الفهمِ الطبيعيِّ، لذلك لا يمكنُ تعلُّمُه من خلالِ قراءةِ كتابٍ. لكنَّ إعلانَ خطةِ اللهِ الكاملةِ يتكشَّفُ من

خـلالِ الصليـبِ مـنْ خـلالِ معرفـةِ "يَسُـوعَ الْمَسِيحَ وَإِيَّـاهُ مَصْلُوبًـا". فالمدخـلُ الوحيـدُ لـسرِّ حكمـةِ اللهِ المكتومـةِ هـو الصليـبُ.

سرُّ الاتحادِ بالمسيحِ

إنَّ العامـلَ الأسـاسيَّ لتفعيـلِ خطـةِ اللهِ في حياتِنـا هـو الاتِّحـادُ بالمسـيحِ. لقـدِ اتَّحَـدَ يسـوعُ بنـا ونحـنُ خطـاةٌ؛ إذْ دفـعَ بالكامـلِ ثمـنَ عقابِنـا الذي كنَّـا نسـتحقُّه. لكـنْ في المقابـلِ، عندمـا نؤمنُ بالمسـيحِ، فإننـا نتحـدُ معَـهُ في موتِـهِ ودفنِـهِ وقيامتِـهِ وصعـودِهِ. وعندمـا نـأتي إلى مرحلـةِ صعـودِهِ، فذلـكَ يَعـني أننـا ندخـلُ معـهُ إلى المجـدِ؛ فالهـدفُ النهـائيُّ مـنْ "سرِّ الحكمـةِ المكتومـةِ" هـو تمجيدُنـا الذي ينطبـقُ على حياتِنَـا هنـا والآنَ. فمـا تؤمـنُ بـهِ يحـدِّدُ اتجاهاتِـكَ ونمـطَ حياتِـكَ. لذلـك، عندمـا تُـدرِكُ أنـكَ ممجّـدٌ مـعَ يسـوعَ، سـتعيشُ حيـاةً مختلفـةً كمـا كتـبَ عنهـا بولـسُ في رسـالةِ كولـوسي:

"فَـإِنْ كُنْتُـمْ قَـدْ قُمْتُـمْ مَـعَ الْمَسِيحِ فَاطْلُبُـوا مَـا فَـوْقُ، حَيْـثُ الْمَسِيحُ جَالِـسٌ عَـنْ يَمِيـنِ اللهِ. اهْتَمُّـوا بِمَـا فَـوْقُ لاَ بِمَـا عَلَـى الأَرْضِ، لأَنَّكُـمْ قَـدْ مُتُّـمْ وَحَيَاتُكُـمْ مُسْـتَتِرَةٌ مَـعَ الْمَسِيحِ فِـي اللهِ. مَتَـى أُظْهِـرَ الْمَسِيحُ حَيَاتُنَـا، فَحِينَئِـذٍ تُظْهَـرُونَ أَنْتُـمْ أَيْضًـا مَعَـهُ فِـي الْمَجْـدِ" (كولوسي ٣: ١-٤)

مـا أشـارَ إليـهِ بولـسُ هُنـا، إضافـةً إلى الحقائـقِ الـتي كنـا نستكشِـفُها في الفصولِ السـابقةِ، هـو مكانُ الأمانِ الكامـلِ الذي في اللهِ.

في المسـيحِ، أنـت قـد مـتَّ. وعندمـا مـاتَ يسـوعُ على الصليـبِ أنـهى حيـاةَ الخطيـةِ القديمـةَ كلَّهـا. وأنـتَ لـم تقُـمْ فقـطْ معَـهُ مـن الأمـواتِ، بـل جلسـتَ معـهُ على العـرشِ أيضًـا. "وَحَيَاتُكُمْ مُسْتَتِرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللهِ."

أيُمكِنُـكَ تخيُّـلُ حالـةٍ أكـثرَ أمانًـا مـن التمتُّـعِ بحيـاةٍ مسـتترةٍ معَ المسـيحِ في اللّهِ؟ فـأيُّ ضررٍ إذنْ قـد يَلحَـقُ بـكَ! وأيُّ شرٍّ قـد يُصيبُـك! ومـا الذي في وسـعِ الشـيطانِ أنْ يفعـلَ ضـدَّكَ! لكـن إذا مـا أدركـتَ أنَّ حياتَـكَ مسـتترةٌ معَ المسـيحِ في اللّهِ، فمـا هـو إذن الـشيء المحتمـل الذي قـد يمنعـك مـن أن تصـل للأمـان الكامـل؟

ليــس عليــكَ ســوى فهــمُ الحقيقــةِ المذهلــةِ بــأنَّ "الْمَسِـيحُ حَيَاتُنَـا..." يمكــنُ لهاتــينِ الكلمتــينِ البسـيطتينِ أنْ تغـيِّرا مســارَ حياتِـكَ وطريقـةَ مواجهتِـكَ لهـا. إنهـا ذروةُ خطـةِ اللهِ الرائعـةِ. فـلا تمتنِـعْ عـنِ اسـتكمالِ خطـةِ اللهِ في حياتِـكَ؛ لأنهـا في الحقيقـةِ مصدرُ الأمــانِ الكامِــلِ.

الفصل الرابع عشر

رجاءٌ أبديٌّ

بعـدَ أنْ تناولنـا جميـعَ المراحـلِ السـبعِ لخطـةِ اللهِ لنـا، لننتقـلْ إلى تأثـيرِ الأمـانِ الذي ينبـعُ مـن خطـةِ اللهِ على حياتِنـا. أولُ كلِّ شيءٍ، تمنحُنـا معرفـةُ خطـةِ اللهِ السـياديةِ لنـا رجـاءً أبديًـا. إنَّ الرجـاءَ كلمـةٌ مـنْ أجمـلِ المفـرداتِ الموجـودةِ في كلِّ اللغـاتِ؛ إذْ يمنحُنـا في الأسـاسِ الصـبرَ والقـوةَ لاحتمـالِ المشـقاتِ والأحـداثِ المؤلمـةِ وجميـعِ أشـكالِ الضغـوطِ الـتي تواجهُنـا في الحيـاةِ. لا يجنِّبُنـا الرجـاءُ اجتيـازَ الصعوبـاتِ لكنَّـهُ يمنحُنـا القـوةَ لنعـبُرَ مـن خلالِهـا.

ملجأٌ ورجاءٌ

أنْ يكـونَ لديـك رجـاءٌ فهـذا أمـرٌ رائـعٌ، أمَّـا نظـرةُ اليـأسِ فإنَّها تسـتنزفُ الهِمَـمَ وتُجهِضُ القوةَ والرغبـةَ في العيشِ. أنْ تعيـشَ دونَ رجاءٍ في هـذهِ الحيـاةِ أمـرٌ محزنٌ، لكـنْ أنْ تعيشَ كذلكَ في المماتِ فهي مأسـاةٌ كـبرى؛ فليـس هـذا هـو مصيرَ النفـسِ الـتي كرَّسَـتْ نفسَـها ليسـوعَ.

"اَلسِّرِّيرُ يُطْرَدُ بِشَرِّهِ، أَمَّا الصِّدِّيقُ فَوَاثِقٌ عِنْدَ مَوْتِهِ" (أمثال ١٤: ٣٢).

يوجد إذًا ملجأٌ ورجاءٌ للنفسِ المُكرَّسةِ للربِّ حتى في وادي ظلِّ الموتِ.

يمكنُنا مقارنةُ هذه الكلماتِ الجميلةِ في سفرِ الأمثالِ مع ما كتبهُ بولسُ في رسالةِ أفسسَ عن أولئكَ الذينَ ليس لهم علاقةٌ بالمسيحِ. كان بولسُ يكتبُ للمؤمنينَ منَ الأممِ الذين لم يعرِفوا شيئًا عنِ الربِّ أبدًا حتى سمعوا الإنجيلَ. هؤلاء لم تكنْ لديهم خلفيةٌ عنِ الكتابِ المقدسِ ولا معرفةٌ سابقةٌ عن الإلهِ الحقيقيِّ. وهذا ما قاله بولسُ لهمْ:

"أَنَّكُمْ كُنْتُمْ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ بِدُونِ مَسِيحٍ، [انقطعتمْ عنِ المسيحِ ولا علاقةَ لكم بهِ] أَجْنَبِيِّينَ عَنْ رَعَوِيَّةِ إِسْرَائِيلَ، وَغُرَبَاءَ عَنْ عُهُودِ الْمَوْعِدِ، لاَ رَجَاءَ لَكُمْ، وَبِلاَ إِلهٍ فِي الْعَالَمِ" (أفسس ٢: ١٢).

إنَّ بعضَ أكثرِ الكلماتِ فظاعةً وبُؤسًا في الكتابِ المقدسِ: هي "لاَ رَجَاءَ لَكُمْ، وَبِلاَ إِلهٍ فِي الْعَالَمِ." فالسببُ الذي جعلَ أهلَ أفسسَ في وقتٍ من الأوقاتِ بلا رجاءٍ هو أنهم انفصلوا عنِ المسيحِ. إنَّ النفسَ التي لا تضعُ الأساسَ سوى على رمالِ الزمنِ، ولم تتكرَّسْ يومًا أبدًا إلى صخرِ الدهورِ الأبديِّ، يسوعَ المسيحِ، هي نفسٌ بدونِ مسيحٍ وبلا رجاءٍ وبدون اللهِ.

إني متيقِّنٌ من أنكَ ستصغي بقلبكَ لهذه الكلماتِ بينما تقرأُهَا. وإن لم تكنْ قدِ انتهزتَ الفرصةَ التي أُتيحتْ لك سابقًا لتسلِّمَ حياتَكَ للمسيحِ الصخرِ الأبديِّ، فإني أصلِّي ألا تستمرَّ ليومٍ آخرَ بدونِ المسيحِ وبلا رجاءٍ وبدونِ اللهِ. (أرجو

الرجـوعَ إلى الصـلاةِ الخلاصيـةِ في الجـزءِ الأولِ مـن الفصـلِ الثالـثِ أو في نهايـةِ الفصـلِ الحـادي عَـشَر.)

أساسُ رجائِنَا: الاتحادُ بالمسيحِ

بينمـا ننظـرُ لهـذا التبايـنِ في هـذهِ الحيـاةِ مـا بـينَ مَـن يرتبـطُ بالمسـيحِ والشـخصِ غـيرِ المرتبـطِ بـهِ، أريـدُ أنْ أتوسَّـعَ قليـلًا في شرحِ هـذا التبايـنِ. لننظـرْ إذنْ إلى الفـرقِ بـينَ مـوتِ مَـنْ يتحـدُ بالمسـيحِ بالإيمـانِ، والمنفصـلِ عـنِ المسـيحِ. في رسـالةِ تسـالونيكي الأولى، كانَ بولـسُ يكتـبُ إلى المؤمنـينَ الذيـن قبلـوا الـربَّ حديثًـا. فـكانَ يـشرحُ لهـم مـا هـو ردُّ الفعـلِ المناسـبِ للمؤمـنِ المسـيحيِّ عنـد مـوتِ أحـدِ الإخـوةِ المؤمنـينَ. وقـال إنَّ هـذا المـوتَ حادثـةٌ مؤسـفةٌ، لكنهـا حادثـةٌ تحمـلُ نـوعًا مـنَ الحـزنِ يختلـفُ تمامًـا عـن حـزنِ هـذا العالـمِ.

"ثُـمَّ لاَ أُرِيـدُ أَنْ تَجْهَلُـوا أَيُّهَـا الإِخْـوَةُ مِـنْ جِهَـةِ الرَّاقِدِيـنَ، لِكَـيْ لاَ تَحْزَنُـوا كَالْبَاقِيـنَ الَّذِيـنَ لاَ رَجَـاءَ لَهُـمْ" (١تسـالونيكي ٤: ١٣).

لاحـظْ أنَّ "الْبَاقِـينَ" الذيـن لـم يتَّحِـدُوا بالمسـيحِ ليـسَ لهـم رجاءٌ في موتِهِـم. في المقابـلِ، اسـتخدمَ بولـسُ في حديثِـهِ عـنِ المؤمنـينَ الذينَ يموتـونَ عبـارةً شـائعةً نجدُهـا في سـياقاتٍ كهـذِهِ في العهـدِ الجديـدِ؛ فبـدلًا مـن قـولِهِ إنَّ المؤمنـينَ قـد "ماتـوا"، قـالَ إنَّهُـم قـدْ "رَقَـدُوا".

"لأَنَّهُ إِنْ كُنَّا نُؤْمِنُ أَنَّ يَسُوعَ مَاتَ وَقَامَ، فَكَذلِكَ الرَّاقِدُونَ بِيَسُوعَ، سَيُحْضِرُهُمُ اللهُ أَيْضًا مَعَهُ" (١تسالونيكي ٤: ١٤).

لاحظْ أيضًا العبارةَ الجوهريةَ "الراقدونَ بيسوعَ" لقد رَقَدُوا في تلكَ العلاقةِ بالمسيحِ، لكنهم متَّحِدونَ بالإيمانِ بذلكَ الواحدِ الذي ماتَ وقامَ ثانيةً منَ بينِ الأمواتِ. ويضمنُ لهمْ هذا الاتحادُ قيامةً مماثلةً في الساعةِ التي عيَّنَها اللهُ. ثم يشرحُ بولسُ ما ينتظرُ أولئك الذينَ في المسيحِ.

"فَإِنَّنَا نَقُولُ لَكُمْ هذَا بِكَلِمَةِ الرَّبِّ: إِنَّنَا نَحْنُ الأَحْيَاءَ الْبَاقِينَ إِلَى مَجِيءِ الرَّبِّ، لاَ نَسْبِقُ الرَّاقِدِينَ. لأَنَّ الرَّبَّ نَفْسَهُ بِهُتَافٍ، بِصَوْتِ رَئِيسِ مَلاَئِكَةٍ وَبُوقِ اللهِ، سَوْفَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَمْوَاتُ فِي الْمَسِيحِ سَيَقُومُونَ أَوَّلًا. ثُمَّ نَحْنُ الأَحْيَاءَ الْبَاقِينَ سَنُخْطَفُ جَمِيعًا مَعَهُمْ فِي السُّحُبِ لِمُلاَقَاةِ الرَّبِّ فِي الْهَوَاءِ، وَهكَذَا نَكُونُ كُلَّ حِينٍ مَعَ الرَّبِّ. لِذلِكَ عَزُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِهذَا الْكَلاَمِ" (١تسالونيكي ٤: ١٥-١٨).

هذه كلماتٌ مشجِّعةٌ لنا جميعًا نحنُ الذينَ اتَّحَدنا بالمسيحِ؛ إذ إنَّنا لا نحزنُ كالآخرينَ الذينَ ليس لهمْ رجاءٌ. فإن ماتَ أحدُ أحبَّائِنا في المسيحِ، سنفتقدُهُ وستمتلئُ قلوبُنا بالألمِ الشديدِ، لكنْ سيكونُ ألمًا لا يخلو منَ الرجاءِ. لدينا الضمانُ عندَ مجيءِ يسوعَ ثانيةً بأننا سنلتقي مع أحبَّائِنا مرةً ثانيةً، ومعًا سنكونُ معَ الربِّ إلى الأبدِ. لذلك سيمكِنُنا أنْ نشجِّعَ بعضُنا البعضَ بهذا الرجاءِ.

مَوقِفَانِ واضحان في ذاكرتِي

أودُّ أنْ أربطَ ما بينَ مشهدَيْنِ واضحَيْنِ شهدْتُهُمَا في إفريقيا فيما يتعلقُ بموضوعِ الرجاءِ. أولُ مشهدٍ حدثَ عندَ أهراماتِ الجيزةِ في مصرَ. بينما كنتُ أمعنُ النظرَ في الأهراماتِ تصادَفَ وجودُ موكبٍ جنائزيٍّ إسلاميٍّ في إحدى المقابرِ المجاورةِ على بُعدِ أمتارٍ قليلةٍ. كانتْ مجموعةٌ كبيرةٌ منَ النساءِ، كلُّهنَّ يرتدينَ ملابسَ سوداءَ وينتحبنَ بحُزنٍ شديدٍ لا يتَّسمُ بأيِّ رجاءٍ على الإطلاقِ. اخترقَ قلبي صوتُ نحيبِهم، فصلَّيتُ أولًا في سرِّي وقلتُ: "يا إلهي، إني ممتنٌّ لكَ لأنك خلَّصْتَنا من عدمِ وجودِ رجاءٍ لنا عندَ الموتِ." ثم في اللحظةِ التاليةِ، بكيتُ من كلِّ قلبي مصليًا لأجلِ الملايينَ الذين ليسَ لديهمْ رجاءٌ عند موتِهم.

المشهدُ الثاني حدثَ في وقتٍ سابقٍ في شرقِ أفريقيا؛ حيثُ كنتُ مديرًا لكليةِ تدريبِ المعلمينَ الأفارقةِ. ذاتَ يومٍ، أصيبتْ إحدى طالباتِ الكليةِ، وكانتْ تُدعَى أجنيتا، بحمى التيفود ودخلتْ في حالةِ غيبوبةٍ. فذهبتْ وزوجتي ليديا لزيارتِها في المستشفَى. ونتيجةَ الغيبوبةِ لم تقدِرْ أجنيتا على التجاوبِ مع أيٍّ منَ الزائرينَ. فصلَّيتُ في صمتٍ، "أيُّها الربُّ أصلِّي أنْ تدعَهَا تفيقُ من تلكَ الغيبوبةِ لمدةٍ كافيةٍ تسمحُ لي بأنْ أسألَهَا سؤالًا واحدًا في غايةِ الأهميةِ." ولم أَكَدْ أنتهي من صلاتي حتى فتحتْ

عينَيْهَا ونظرتْ إليَّ فسألتُها: "أجنيتا، هل نلتِ الحياةَ الأبديةَ؟" فنظرتْ في عينيَّ وقالتْ: "نعمْ" ثم عادتْ فدخلتْ في حالةِ الغيبوبةِ مرةً أخرى. رغمَ أنه لم يكنْ لديَّ أيُّ تواصلٍ معَهَا قبلَ أنْ تذهبَ إلى الأبديةِ، إلا أنني عرفتُ كلَّ ما أردتُ معرفتَهُ. لقد عرفتُ أنها ارتبطتْ بيسوعَ بتلكَ الرابطةِ التي لا يمكنُ أنْ تنكسرَ أبدًا لا في الزمانِ الحاضرِ ولا في الأبديةِ.

رجاؤُنَا الأبديُّ

بينما نأتي لنهايةِ هذا الفصلِ، دعونا نقرأُ هذه الكلماتِ الرائعةَ من سفرِ الأمثالِ:

"أَمَّا سَبِيلُ الصِّدِّيقِينَ فَكَنُورٍ مُشْرِق، يَتَزَايَدُ وَيُنِيرُ إِلَى النَّهَارِ الْكَامِلِ" (أمثال ٤: ١٨).

بمجردِ أنْ تطأَ قدماكَ طريقَ البرِّ بتكريسِكَ للربِّ، سيزدادُ الطريقُ إشراقًا بكل خطوةٍ تخطوها. وفي نهايةِ هذا الطريقِ، سيكونُ النهارُ الكاملُ هو إعادةَ اتحادِ روحِكَ معَ الربِّ عندما تخرجُ منَ الزمانِ الحاضرِ إلى الأبديةِ.

عندَ نجاحِكَ في عبورِ ذلك الوادِي المظلمِ والطويلِ لظلِّ الموتِ، ستكونُ في قمةِ النهارِ الكاملِ والساطعِ لمحضرِ الربِّ إلى الأبدِ. هذهِ حقيقةُ الرجاءِ الأبديِّ.

الفصل الخامس عشر
الرجاءُ ملجأٌ ومرساةٌ

في هـذا الفصـلِ، بينمـا نسـتكملُ موضـوعَ الرجـاءِ سـندرسُ معًـا صورتَـيْنِ نافعتَـيْنِ لنا تعكسـانِ معنى الرجـاءِ. فالرجاءُ الصحيـحُ والثابتُ سـلعةٌ قلَّمَـا نجدُهـا في هـذا العالـمِ. إنَّ موضـوعَ الرجـاءِ ثمـينٌ للغايـةِ، وسيسـاعدُنا كثـيرًا أنْ نتنـاولَ هـذا الموضـوعَ بمزيـدٍ مـنَ التفصيـلِ.

الرجاءُ كملجأ آمنٍ

كواعـظٍ أسـتفضلُ بعـضَ الموضـوعاتِ المعينـةِ على حسـابِ موضـوعاتٍ أخـرى، وموضـوعُ الرجـاءِ بـلا شـكٍّ هـو واحـدٌ مـنْ هـذهِ الموضـوعاتِ. ويصـفُ لنـا العهـدُ الجديـدُ وصفَـيْنِ بديعَـيْنِ للرجـاءِ، نجِدُهُمـا في سـفرِ العبرانيـين الإصحـاح السـادسِ:

"فَـإِنَّ النَّـاسَ يُقْسِـمُونَ بِالأَعْظَـمِ، وَنِهَايَـةُ كُلِّ مُشَـاجَرَةٍ عِنْدَهُـمْ لأَجْـلِ التَّثْبِيـتِ هِـيَ الْقَسَـمُ. فَلِذلِـكَ إِذْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يُظْهِـرَ أَكْثَـرَ كَثِيـرًا لِوَرَثَـةِ الْمَوْعِـدِ عَـدَمَ تَغَيُّـرِ قَضَائِـهِ، تَوَسَّـطَ بِقَسَـمٍ، حَتَّـى بِأَمْرَيْـنِ عَدِيمَـيِ التَّغَيُّـرِ، لاَ يُمْكِـنُ أَنَّ اللهَ يَكْـذِبُ فِيهِمَـا، تَكُـونُ لَنَـا تَعْزِيَـةٌ قَوِيَّـةٌ، نَحْـنُ الَّذِيـنَ الْتَجَأْنَـا لِنُمْسِـكَ بِالرَّجَـاءِ الْمَوْضُـوعِ أَمَامَنَـا" (العبرانيـين ٦: ١٦-١٨).

يؤكـدُ لنـا كاتـبُ العبرانيـينَ أنَّ ثقتَنَـا في اللهِ، أو يمكنُـكَ القـولُ إنَّ أماننـا في اللهِ يقـومُ على أساسَـيْنِ راسـخَيْنِ لا يتغـيَّرانِ على الإطلاقِ: الأولُ، هـو كلمـةُ اللهِ؛ والثـاني هـو قَسَـمُ اللهِ. في الواقـعِ، لـم يكـنِ اللهُ ملزمًـا بـأنْ يمنَحَنَـا شـيئًا أكـثرَ مـن كلمتِـهِ. لكـنَّ اهتمامَـهُ كانَ شـديدًا لدرجـةِ أنَّـهُ يطمئِنُنَـا بإعطائِنَـا كلمتَـهِ ثـم يؤكـدُ عليهـا بقَسَـمٍ. "حَتَّى بِأَمْرَيْنِ عَدِيمَيِ التَّغَيُّرِ، لاَ يُمْكِنُ أَنَّ اللهَ يَكْذِبُ فِيهِمَا، تَكُونُ لَنَا تَعْزِيَـةٌ قَوِيَّـةٌ، نَحْـنُ الَّذِيـنَ الْتَجَأْنَـا لِنُمْسِـكَ بِالرَّجَـاءِ الْمَوْضُـوعِ أَمَامَنَـا."

عندمـا قـالَ الكاتـبُ: "نَحْـنُ الَّذِيـنَ الْتَجَأْنَـا لِنُمْسِـكَ بِالرَّجَـاءِ الْمَوْضُـوعِ أَمَامَنَـا" كان يسـتخدمُ صـورةً مـنَ العهـدِ القديـمِ، في إطـارِ العهـدِ الذي قطَعَـهُ مَـعَ مـوسَى، فـإذا كانَ رجـلًا يلاحقُـه "وَلِيُّ الـدَّمِ" الذي يريـدُ أنْ يأخـذَ حياتَـهُ، فهنـاكَ "مُـدُنِ المَلْجَأ" الـتي يمكـنُ الهربُ إليهـا ليسـكنَ فيهـا آمنًـا إن كانَ بريئًـا أو كانَ قـد قَتَـلَ نفسًـا عـن غـيرِ قصـدٍ. (انظـرْ على سـبيلِ المثـالِ سـفر العـدد ٣٥: ١٤-٢٥). إضافـةً إلى ذلـكَ، إذا هـربَ شـخصٌ إلى مذبـحِ اللهِ وتمسَّـكَ بقـرونِ المذبـحِ، لـم يكـنْ مسـموحًا لأحـدٍ أن يأخـذَهُ بعيـدًا عـن ذلـكَ المـكانِ حـتى يطمـئنَّ بأنـهُ سـيُحاكَمُ محاكمـةً عادلـةً. (انظـر ١ملـوك ١: ٥٠-٥١).

كمـا وضـعَ كاتـبُ سـفرِ العبرانيـينَ مقارنـةً بـين الهـروبِ بحثًـا عـن ملجـأ للإمسـاكِ بقـرونِ المذبـحِ، ورجائِنَـا الذي نضعُـهُ في كلمـةِ اللهِ وقَسَـمِهِ الثابتَـيْنِ. فعندمـا نتمسَّـكُ بتلـكَ "القـرونِ" ونتشـبَّثُ

بهـا فـلا يمكـنُ لأيِّ شيءٍ أن يجرِفَنَـا أو يقتادَنَـا بعيـدًا عنهَـا. ربمـا تلاحقُنـا ذنوبُنـا أو مخاوفُنـا أو الخـوفُ مـنَ المسـتقبلِ، أو مـنَ المـرضِ، لكـن إذا تمكَّنَّـا مـنَ الوصـولِ إلى مذبـحِ الرجـاءِ وتشـبَّثْنا بتلـكَ القـرونِ، سـنكونُ بمأمـنٍ. إنَّ كلمـةَ الله الـتي لا تتغـيَّرُ هي مـكانُ الأمـانِ الحقيـقيِّ والدائـمِ.

مفهـومُ أنَّنـا "الْتَجَأْنَا لِنُمْسِكَ بِالرَّجَاءِ" يشـيرُ إلى ضرورةِ التحـرُّكِ على وجـهِ السرعـةِ. وهـذا المفهـومُ يَعـني ضمنًـا أنَّ الضغـوطَ تتصاعـدُ، وأنَّ قـوى الخصْـمِ تجتمـعُ ضدَّنـا، وأننـا يجـبُ أنْ نتحـركَ بسرعـةٍ. فالوصـولُ إلى المذبـحِ أمـرٌ ضروريٌّ وملـحٌّ قبـلَ أنْ تجرِفَنـا تلـك القـوى بعيـدًا وتكتسِـحَنا، وتحرِمَنـا مـن الفرصـةِ الـتي منحنَـا اللهُ إيَّاهـا.

عندمـا نتعـرضُ للضغـوطِ، فمـنَ الـضروريِّ أنْ نضـعَ إيمانَنَـا ورجاءَنـا دونَ تحفُّـظٍ في أمانـةِ اللهِ وفي العهـدِ الذي ارتبـطَ بـهِ معنـا في يسـوعَ المسـيحِ. مـن الـضروريِّ أنْ نتمسـكَ بالأمـانِ الذي لنـا في كلمـةِ اللهِ قبـلَ أن تجتاحَنَـا الـشرورُ والكـوارثُ ولا نَعـودَ قادريـنَ على مـدِّ أيدِينـا ونمسـكَ بقـرونِ مذبـحِ الرجـاءِ. فرجاؤُنَـا المؤسَّـسُ على كلمـةِ اللهِ هـو ملجـأٌ حقيـقيٌّ.

الرجاءُ كمرساةٍ

يصـورُ لنـا كاتـبُ العبرانيـين صـورةً ثانيـةً للرجـاءِ تتبـعُ مبـاشرةً

الصـورةَ الأولى؛ إذْ يقـولُ:

"الَّـذِي هُـوَ لَنَـا كَمِرْسَـاةٍ لِلنَّفْـسِ مُؤْتَمَنَـةٍ وَثَابِتَـةٍ، تَدْخُـلُ إِلَـى مَـا دَاخِـلَ الْحِجَـابِ، حَيْـثُ دَخَـلَ يَسُـوعُ كَسَـابِق لأَجْلِنَـا، صَائِـرًا عَلَـى رُتْبَـةِ مَلْكِي صَـادَقَ، رَئِيـسَ كَهَنَـةٍ إِلَـى الأَبَـدِ" (العبرانيين ٦: ١٩-٢٠).

ثـاني الصـورِ الـتي يقدِّمُهـا لنـا الكاتـبُ أنَّ الرجـاءَ "كَمِرْسَـاةٍ لِلنَّفْـسِ" وهـذهِ المرسـاةُ "مُؤْتَمَنَة وَثَابِتَـة" لأنهـا تمـرُّ عـبرَ هـذا السـتارِ الذي يفصـلُ مـا بـينَ الزمـانِ الحـاضرِ والأبديـةِ. ولأنهـا تصـلُ إلى العالـمِ الأزليِّ، لـم تعُـدْ تخضـعُ لضغوطـاتِ هـذا العالـمِ الزمـنيِّ ولا تغيراتِـهِ المؤقتـةِ. إنهـا ترتبـطُ ارتباطًـا مُحكمًـا بشـخصِ الـربِّ يسـوعَ المسـيحِ وبعملِـهِ مـنْ أجلِنـا. لقـد تثبتَـتْ هـذه المرسـاةُ على صخـرِ الدهـورِ الذي لا يتغـيرُ، المسـيح.

كانَ المقطـعُ السـابقُ مـنَ الكتـابِ المقـدسِ واحـدًا مـنَ المقاطـعِ الـتي أعطـاني اللهُ إياهـا في وقـتِ تجربـتي عندمـا كنـتُ في أمـسِّ الحاجـةِ إلى فهـمِ طبيعـةِ الرجـاءِ. أنـا شـخصٌ لديـهِ عقـلٌ تحليـليٌّ، وحـينَ قـرأتُ هـذا المقطـعَ الكتـابيَّ لأولِ مـرةٍ فكـرتُ فيـهِ بطريقـةٍ معينـةٍ. لذا اسـمحوا لي بـأنْ أشـاركَ معَكـم بعـضَ تلـكَ الأفـكارِ العميقـةِ الـتي أعتقـدُ بأنهـا ستسـاعدكم على فهـمِ الرجـاءِ بطريقـة أعمـق.

فكرتُ في قرارةِ نفسي فقلتُ: "إذن الرجاءُ هو المرساةُ". وهذه الحقيقةُ رُسِمَتْ على الفورِ في ذهني صورةٌ لقاربٍ مُثَبَّتٍ ومُؤمَّنٍ بمرساتِهِ.

ثم سألتُ عنْ سببِ احتياجِ القاربِ لمرساةٍ؟ فكانتْ إجابتي؛ لأنَّ القاربَ بحكمِ طبيعتِهِ يطفو فوقَ عنصرٍ غيرِ مستقرٍّ وغيرِ آمنٍ وسريعِ الزوالِ وهو الماءُ. ولا يمكِنُكَ أنْ تُمسِكَ بالماءِ أو أنْ تحتفظَ بهِ بينَ راحةِ يديكَ. الماءُ كعنصرٍ ليس به أيُّ نوعٍ من الأمانِ.

ولكي تحققَ نوعًا منَ الأمانِ في عنصرِ الماءِ غيرِ الآمنِ، يجبُ أن تمرَّ مرساةُ القاربِ عبرَ هذا العنصرِ غيرِ المستقرِّ حتى يتمكنَ منَ الالتصاقِ بشيءٍ ثابتٍ مثلَ صخرةٍ ما أو قاعِ البحرِ ذاتِهِ.

وعندما اتَّضحتْ هذه الصورةُ في ذِهني، بدأ اللهُ يتحدثُ لي فقالَ: "إنَّ حياتَكَ تشبهُ ذلكَ القاربَ. وأنتَ تُبحرُ على مياهِ هذا البحرِ الذي يمثِّلُ العالمَ. أنتَ في وضعٍ غيرِ مستقرٍّ على الإطلاقِ. لا يوجدُ شيءٌ ثابتٌ ودائمٌ، ولا يمكنُكَ أنْ تسيطرَ على زمامِ الأمورِ. وما من شيءٍ تتشبَّثُ بهِ قد يوفرُ لك الأمانَ. فإذا كنتَ تريدُ الأمانَ الحقيقيَّ الدائمَ، يجبُ أن تفعلَ مثلما يفعلُ القاربُ. يجب أنْ تلقيَ مرساةَ الرجاءِ عبرَ الزمانِ الحاضرِ إلى العالمِ الأبديِّ. فلا يوجدُ ثباتٌ أو أمانٌ سوى في عالمِ اللهِ الأبديِّ الذي لا يتغيرُ، الذي

يحمــلُ حضــورَ اللهِ وكلمتَــهُ وطبيعــةَ وشــخصَ يســوعَ المســيحِ ذاتِــهِ وعملِــهِ لأجلِنَــا.

عندمــا أعلــنَ لي الــربُّ هــذه الرســالةَ، أجريــتُ معــهُ مقايضــةً غــيَّرتْ وجهــةَ نظــري لبعــضِ الأمــورِ. لقــد ألقيــتُ بمرســاةِ حيــاتي خــارجَ إطــارِ الزمــانِ الحــاضرِ إلى العالــمِ الأبــديِّ. وثبَّــتُّ المرســاةَ على شــخصِ يســوعَ المســيحِ وعملِــهِ لأجــلي. فامتلكــتُ منــذُ ذلــك الحــينِ الرجــاءَ الذي لا يتزعــزعُ، ونعمــتُ بالســلامِ، والأمــانِ الكامــلِ.

هــل لديــكَ رغبــةٌ في فعــلِ مثــلِ هــذا الأمــرِ الآنَ؟ وفي خِضــمِّ كلِّ مــا تواجِهُــه مــن أمــورٍ غــيرِ مســتقرةٍ، هــل تــدركُ احتياجَــكَ الحقيــقيَّ بــأنْ يكــونَ لديــك مرســاةٌ مثبتــةٌ وراســخةٌ على شــخصِ يســوعَ المســيحِ وعملِــهِ مــنْ أجلِــكَ؟

إن كانــت تلــكَ هي رغبتَــكَ وأشــواقَ قلبِــكَ، اســتقطعْ هــذا الوقــتَ الآنَ لعمــلِ مثــلِ هــذه المقايضــةِ مــن خــلالِ هــذهِ الصــلاةِ البســيطةِ وهــذا الإعــلانِ:

«أيّها الربّ يسوعُ، إني ألقي بمرساةِ الرجاءِ لحياتي خارجَ الزمانِ الحاضرِ وأضعُهَا في عالمِكَ الأبديّ. وأثبّتُ مرساةَ حياتي على ذلك العملِ الأبديّ الذي عملَهُ يسوعُ المسيحُ لأجلي، إني أسألُكَ أنْ تمنحَنِي هذا الرجاءَ الأبديّ في حياتي اعتبارًا من هذهِ اللحظةِ. آمينْ».

الفصل السادس عشر

"سترُ العليِّ"

في إطارِ تناولِنا لموضوعِ الأمانِ، نظرْنَا بصورةٍ أساسيةٍ حتى الآنَ في العالمِ الأبديِّ غيرِ المنظورِ باعتبارِهِ المصدرَ المطلقَ الوحيدَ للأمانِ الحقيقيِّ والدائمِ.

لنوجِّهْ تركيزَنا الآنَ على الأوجهِ المختلفةِ للأمانِ في هذه الحياةِ الحاضرةِ. الأمانُ في وسطِ أوقاتِ الاضطرابِ، الأمانُ المرتكزُ على الاستقرارِ الماليِّ، والأمانِ العاطفيِّ أو الوجدانيِّ. لن ننظرَ فقطْ في الطرقِ المتعددةِ التي منْ خلالِهَا يمدُّنَا اللهُ بهذهِ الأنواعِ منَ الأمانِ، بل سنتعلمُ أيضًا الشروطَ التي يجبُ توفُّرُها لنكونَ مؤهَّلين أنْ ننالَ الأمانَ الذي يمنحُنا إياه في شتى نواحي حياتِنا.

الأمانُ في وقتِ الضيقِ

سنبحثُ سويًا فيما وعدَ اللهُ بهِ في كلمتِهِ منْ جهةِ إدراكِ الأمانِ في وسطِ أوقاتِ الضيقِ والشدةِ. في هذا الجزءِ، لنْ أتحدثَ منْ مجردِ جانبٍ نظريٍّ لكنْ على أساسِ الخبراتِ الشخصيةِ التي اجتزتُ فيها. وسأستخدمُ هذه الخبراتِ والتجاربَ كأمثلةٍ عمليةٍ لمنفعتِكَ.

إنَّ مزمـور ٩١ بـه مقطـع كتـابي غايـة في الروعـةِ والقـوةِ؛ إذْ يَعِـدُ بالأمــانِ الكامــلِ في ظــروفٍ مثــلَ الحــروبِ والمجــاعاتِ والطاعــون وغيرِهــا مــنَ الظــروفِ المماثلــةِ. سُــمِّي هــذا المقطــعُ "ملجــأُ الله ضــدَّ القنابــلِ الذريــةِ". وينســبُ كثــيرٌ مــنْ شراحِ الكتــابِ المقــدسِ مزمــورَ ٩١ إلى مــوسى، بينمــا ينســبُهُ آخــرونَ إلى داودَ النــبيِّ. أيًــا كانَ كاتــبُ المزمــورِ، كانَ بإمــكانِ مــوسى أو داودَ أنْ يكتــبَ هــذه الكلمــاتِ مــنْ واقــعِ تجربتِهَــم الشــخصيةِ لأوقــاتِ الضيــقِ الــتي اجتــازوا فيهــا:

"اَلسَّــاكِنُ فِــي سِــتْرِ الْعَلِــيِّ، فِــي ظِــلِّ الْقَدِيــرِ يَبِيــتُ. أَقُــولُ لِلــرَّبِّ: «مَلْجَــإِي وَحِصْنِي. إِلهِي فَأَتَّكِلُ عَلَيْهِ». لأَنَّهُ يُنَجِّيكَ مِنْ فَخِّ الصَّيَّادِ وَمِنَ الْوَبَإِ الْخَطِرِ. بِخَوَافِيــهِ يُظَلِّلُــكَ، وَتَحْــتَ أَجْنِحَتِــهِ تَحْتَمِي. تُــرْسٌ وَمِجَــنٌّ حَقُّــهُ. لاَ تَخْشَــى مِــنْ خَــوْفِ اللَّيْــلِ، وَلاَ مِــنْ سَــهْمٍ يَطِيــرُ فِي النَّهَــارِ، وَلاَ مِــنْ وَبَــإٍ يَسْــلُكُ فِي الدُّجَــى، وَلاَ مِــنْ هَــلاَكٍ يُفْسِــدُ فِــي الظَّهِيــرَةِ. يَسْــقُطُ عَــنْ جَانِبِــكَ أَلْــفٌ، وَرِبْــوَاتٌ عَــنْ يَمِينِــكَ. إِلَيْــكَ لاَ يَقْــرُبُ. إِنَّمَــا بِعَيْنَيْــكَ تَنْظُــرُ وَتَــرَى مُجَــازَاةَ الأَشْــرَارِ. لأَنَّــكَ قُلْــتَ: «أَنْــتَ يَــا رَبُّ مَلْجَــإِي». جَعَلْــتَ الْعَلِــيَّ مَسْــكَنَكَ" (مزمــور ٩١: ١-١٠).

شروطُ التمتُّعِ بالأمانِ الكاملِ

إننــا بحاجــةٍ أنْ نضــعَ في الاعتبــارِ الــشروطَ الــتي يجــبُ أن نســتوفِيَها كيمــا نتوصــلَ لحالــةِ الأمــانِ الكامــلِ الــتي يتحــدثُ عنهــا كاتــبُ المزمــورِ.

السكنى في سترِ العليِّ

بعضُ الترجماتِ الإنجليزيةِ لمزمورِ ٩١: ١ تقولُ: "الساكنُ في سترِ العليِّ..."، بينما في ترجمةٍ أخرى، تُرجمتْ كلمةُ "ستر" إلى "قدسِ الأقداسِ أو المخبأ السرِّيِّ" وهذه ترجمةٌ ممتازةٌ لأنَّ جذورَ الكلمةِ في العبريةِ معناها "مخبأ". لذلك، أُفضِّلُ قراءةَ الآيةِ بهذهِ الطريقةِ: "الساكنُ في المخبأ السريِّ للعليِّ في ظلِّ القديرِ يبيتُ."

كلمةُ "الساكنِ" تشيرُ إلى شخصٍ له مكانةٌ مستمرةٌ عندَ اللهِ أكثرَ ممَّا إلى شخصٍ لا يركضُ إلى المخبأ السريِّ ويلجأُ إليهِ إلا في وقتِ الأزمةِ. لذلك يصورُ المزمورُ شخصًا يسكنُ في هذا المكانِ بصورةٍ دائمةٍ وحالتُه ثابتةٌ وراسخةٌ في سِتْرِ العليِّ هذا.

كثيرًا ما تُستخدمُ الكلمةُ العبريةُ التي تُرجِمت إلى "يبيت"، للتعبيرِ عن قضاءِ وقتِ الليلِ. لذلك، يشيرُ المزمورُ إلى أنهُ أثناءِ ساعاتِ الظلمةِ سيتوفَّرُ لنا مكانٌ يتمتَّعُ بكلِّ الحمايةِ.

اعترافٌ شخصيٌّ جريءٌ

يوجدُ شرطٌ آخرُ للأمانِ في مزمورِ ٩١: ٢ "أَقُولُ لِلرَّبِّ: «مَلْجَإِي وَحِصْنِي. إِلهِي فَأَتَّكِلُ عَلَيْهِ»" لقد أعلنَ كاتبُ المزمورِ عنْ إيمانِهِ باللهِ. لذا، فإنَّ هذا الشرطَ الأساسيَّ الثانيَ هو تقديمُ اعترافٍ شخصيٍّ وجريءٍ بإيمانِ الإنسانِ باللهِ وبعلاقتِهِ الشخصيةِ بهِ.

كما أشَرْنَا سابقًا في هذا الكتابِ، يجبُ ألا نؤمنَ بقلوبِنَا فقطْ، بل أيضًا أنْ نعترفَ بأفواهِنا بما نؤمنُ بهِ. "لِيَقُلْ مَفْدِيُّو الرَّبِّ، الَّذِينَ فَدَاهُمْ مِنْ يَدِ الْعَدُوِّ" (مزمور ١٠٧: ٢). ولا فاعليَّةَ لخلاصِنا حتى نتفوَّهَ بهِ ونعلنَهُ، فاعترافُنا الشخصيُّ هو ما يفعِّلُ خلاصَنا.

بعدَ أنْ فهِمْنا الشروطَ التي يجبُ توفُّرُها، دعونا الآنَ ننظرُ في الأوجُهِ المختلفةِ للمتاعبِ التي على النقيضِ منَ الحمايةِ التي وعدَ بها مزمورُ ٩١: "فَخِّ الصَّيَّاد"، "الْوَبَإِ الْخَطِرِ"، "خَوْفِ اللَّيْلِ"، "سَهْمٍ يَطِيرُ فِي النَّهَارِ"، "وَبَإٍ يَسْلُكُ فِي الدُّجَى"، "هَلاَكٍ يُفْسِدُ فِي الظَّهِيرَةِ". ثم ضمانُ الحمايةِ ضدَّ أيِّ شيءٍ منْ شأنِهِ أنْ يُسقِطَ الإنسانَ ويطرحَهُ أرَضًا "يَسْقُطُ عَنْ جَانِبِكَ أَلْفٌ، وَرِبْوَاتٌ عَنْ يَمِينِكَ. إِلَيْكَ لاَ يَقْرُبُ".

اختباراتي معَ حمايةِ اللهِ

حتى أُؤكدَ على ما ذكرتُهُ عن سترِ العليِّ، أريدُ أنْ استعرضَ بإيجازٍ بعضَ التجاربِ والخبراتِ التي تعرضتُ لها. على الصعيدِ الشخصيِّ اختبرتُ هذه الحمايةَ وهذا الأمانَ الكاملَ كجنديٍّ بريطانيٍّ في صحراءِ شمالِ إفريقيا في أثناءِ الحربِ العالميةِ الثانيةِ. في أحدِ الأيامِ، عندما كانتِ القواتُ الألمانيةُ تمطرُ القنابلَ على منطقتِنَا، كنتُ أجلسُ بكلِّ هدوءٍ في وسطِ الصحراءِ أشاهدُ القنابلَ تسقطُ من حولي منْ جميعِ الجهاتِ، لكنَّ واحدةً منها

لـم تقـتربْ إليَّ. وبينمـا كنـتُ أجلـسُ هنـاكَ، تبـادرَتْ إلى ذِهـني تلـكَ الكلمـاتُ بـكلِّ وضـوحٍ: "يَسْـقُطُ عَـنْ جَانِبِـكَ أَلْـفٌ، وَرِبْـوَاتٌ عَـنْ يَمِينِـكَ. إِلَيْـكَ لاَ يَقْـرُبُ". بـدا واضحًـا لي بـأنَّ اللهَ هـو ملجـإي وحصـنُ حيـاتي.

أثنـاءِ نشـأةِ دولـةِ إسرائيـلَ عامَ ١٩٤٨، كنـتُ أعيـشُ في أورشـليمَ مـع ليديـا زوجـتِي، والفتيـاتِ الثمـاني الـلاتي كنَّـا قـد تبنَّيْنَاهـنَّ. في ذلـكَ الوقـتِ، شـهدْنا العديـدَ مـنَ المخاطـرِ الـتي وصفَهَـا مزمـورُ ٩١؛ فبسـببِ الـصراعِ الدائـرِ بـينَ اليهـودِ والدولِ العربيـةِ المحيطـةِ، كان هنـاكَ نقـصٌ حـادٌّ في الغـذاءِ والمـاءِ بـينَ جميـعِ السـكانِ اليهـودِ، إلا أنّ اللهَ بطريقـةٍ سـياديةٍ قـدمَ لنـا باسـتمرارٍ مـا يكـفي مـن الطعـامِ والمـاءِ.

عندمـا اندلعـتِ الحـربُ بالفعـلِ في أورشـليمَ، كانَ هنـاكَ خطـرٌ مسـتمرٌّ مـنَ القصـفِ المدفـعيِّ وإطـلاقِ نـيرانِ القناصـةِ في الشـوارعِ. ذاتَ يـومٍ، بينمـا كانـتِ ابنتُنـا الكـبرى "تِكفـا" تعـبُرُ الشـارعَ أصيـبَ شـخصٌ يسـيرُ بجانبِهـا بالرصـاصِ. هـذا الشـخصُ الذي كانَ على مقربـةٍ منهـا لـقيَ حتفَـهُ، لكنهـا كانـتْ محميـةً.

عشـنا حـوالي سـتةَ أسـابيعَ في غرفـةِ الغسـيلِ أسـفلَ الطابـقِ السـفليِّ؛ حيـثُ كنـا نعيـشُ في مـنزلٍ في أورشـليمَ على بُعـدِ أقـلِّ مـن أربعمئـةِ مـترٍ مـن خـطِّ الجبهـةِ للمعركـةِ. عندمـا خرَجْنـا مـن الطابـقِ السـفليِّ اكتشـفنا أنَّ أكـثرَ مـن مئـةٍ وخمسـينَ نافـذةً زجاجيـةً

في منزِلنا قد تحطمتْ بسببِ إطلاقِ الرصاصِ. في إحدى المراتِ، ارتدَّتْ شظيةٌ إلى إحدى الغرفِ حيثُ كنا نجلسُ فانزلقتِ الشظيةُ على ساقِ ليديا، لكنَّها لم تؤذِها.

عندما أُعلِّمُ عنْ سترِ العليِّ؛ فأنا لا أعرضُ مجردَ نظريةٍ؛ إذْ إنَّ سترَ العليِّ شيءٌ قد اختبرتُهُ وبرهنتُ على صدقِهِ.

الفصل السابع عشر

البابُ المؤدِّي لسترِ العليِّ

لنستمرّ إذنْ في دراسةِ الطرقِ التي تساعدُنا على اكتشافِ الأمانِ الذي لنا في اللهِ إذا ما حقَّقْنا الشروطَ الموضوعةَ. عندَ دراسة "سترِ العليِّ" الذي تناقشْنا حولَه في الفصلِ السابقِ، فإنَّهُ يثيرُ تساؤلًا: كيفَ لنا أن نستظلَّ بسترِ العليِّ ونسكنَ فيهِ؟

منَ الواضحِ أنَّ هذا السترَ مخفيٌّ وغيرُ مُعلَنٍ على الإطلاقِ. فلا توجد أيُّ لافتةٍ معلقةٍ أمامَ هذا المخبأ لترشدَنا إليهِ. (لو كانَ هناكَ مثلُ هذهِ اللافتةِ، لما كانَ المكانُ سريًّا بالمرةِ!) لذا يجبُ البحثُ عن هذا المخبأ السري وإيجادِهِ.

العثور على سِتر العليِّ

هناك بعضُ الكلماتِ الجميلةِ في سفرِ أيوبَ، التي أعتقدُ أنها ترتبطُ باكتشافِ ستر العليِّ هذا. سألَ أيوبُ: "أَمَّا الْحِكْمَةُ فَمِنْ أَيْنَ تُوجَدُ، وَأَيْنَ هُوَ مَكَانُ الْفَهْمِ؟" (أيوب ٢٨: ١٢). أرجو أنْ تكونَ متذكرًا لما قد تعلَّمناهُ سابقًا: إنَّها حكمةُ كلمةِ اللهِ التي توفِّرُ لنا الأمانَ الكاملَ (انظر أمثال ١: ٣٣).

لـم يفكِّـرْ أيـوبُ سـوى في المخبـأ الذي أخـفَى فيـهِ اللهُ سرَّ الحكمـةِ: "الْغَمْـرُ يَقُـولُ: لَيْسَـتْ هِـيَ فِيَّ، وَالْبَحْـرُ يَقُـولُ: لَيْسَـتْ هِـيَ عِنْـدِي" (أيـوب ٢٨: ١٤). فسِـتْرُ العـالِي ليـس مخفيًـا في إحـدى بقـاعِ أعمـاقِ البحـرِ، والحيوانـاتُ والطيـورُ ووحـوشُ البـرِّ كلُّهـا لا تعـرفُ طريقَـه.

"إِذْ أُخْفِيَـتْ عَـنْ عُيُـونِ كُلِّ حَـيٍّ، وَسُـتِرَتْ عَـنْ طَيْـرِ السَّـمَاءِ. اَلْهَـلاكُ وَالْمَـوْتُ يَقُـولاَنِ: بِآذَانِنَـا قَـدْ سَـمِعْنَا خَبَرَهَـا. اَللهُ يَفْهَـمُ طَرِيقَهَـا، وَهُـوَ عَالِـمٌ بِمَكَانِهَـا" (أيـوب ٢٨: ٢١-٢٣).

معظمُنـا على درايـةٍ بقصـصِ القـلاعِ القديمـةِ ذاتِ الأبـوابِ السريـةِ الـتي انفتحـتْ على ممـراتٍ خفيـةٍ. في الغالـبِ، كان هـذا البابُ الـسريُّ مغطًّـى بـشيءٍ مثـلِ بسـاطٍ حائـطٍ مزخـرفٍ أو لوحـةٍ فنيـةٍ كبـيرةٍ. وخلـفَ هـذا الغطـاءِ، كان يوجـدُ بشـكلٍ عامٍّ أداةٌ صغـيرةٌ يجـبُ الضغـطُ عليهـا حـتى يُفتـحَ البـابُ، ويُكشَـفُ عـن الممـرِّ الـسرِّيِّ. بالنسـبةِ لي، تعكـسُ هـذه الصـورةُ المدخـلَ المـؤديَ لسِـترِ العـالِي. هـذا المدخـلُ مغطًّـى بصـورةٍ عادةً لا تتناسـبُ معَـهُ أو ترتبـطُ بـهِ. وأرى أنَّ ذلـك الغطـاءَ هـو صليـبُ يسـوعَ المسـيحِ.

الصليبُ يفتحُ الطريقَ

عندمـا نـرى الصليـبَ لأولِ مـرةٍ قـد نتراجـعُ عنـهُ فَـزَعًا؛ إذ ليـسَ فيـهِ مـن شيءٍ يثـيرُ إعجابَنَـا. لكـن خلـفَ الصليـبِ يوجـدُ

البابُ الذي يؤدي إلى سترِ العليِّ. إنّ صليبَ يسوعَ هو الطريقُ المؤدي لسترِ العليِّ المخفيِّ عن عيونِ كلِّ بهائمِ الأرضِ وكلِّ طيرِ السماءِ، بل وكلُّ الخليقةِ الطبيعيةِ المنظورةِ لا تعرفُه. ذلك لأنَّ هذا المخبأَ أساسُهُ في العالمِ الروحيِّ وليسَ في العالمِ الطبيعيِّ.

لنقرأ مرةً أخرى كلماتِ بولس في كولوسي ٣:

"فَإِنْ كُنْتُمْ قَدْ قُمْتُمْ مَعَ الْمَسِيحِ فَاطْلُبُوا مَا فَوْقُ، حَيْثُ الْمَسِيحُ جَالِسٌ عَنْ يَمِينِ اللهِ. اهْتَمُّوا بِمَا فَوْقُ لاَ بِمَا عَلَى الأَرْضِ، لأَنَّكُمْ قَدْ مُتُّمْ وَحَيَاتُكُمْ مُسْتَتِرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللهِ. مَتَى أُظْهِرَ الْمَسِيحُ حَيَاتُنَا، فَحِينَئِذٍ تُظْهَرُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا مَعَهُ فِي الْمَجْدِ" (كولوسي ٣: ١-٤).

لاحظْ مجددًا هذه الكلماتِ الرئيسيةَ: "... حَيَاتُكُمْ مُسْتَتِرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللهِ." لا تقتصرُ هذهِ الحقيقةُ على العالمِ الأبديِّ الآتي، لكنها تنطبقُ على الزمانِ الحاضرِ أيضًا. معنى كونِكَ مستترًا مع المسيحِ في اللهِ هو أنْ تسكنَ في سترِ العليِّ.

قالَ بولسُ: "لأَنَّكُمْ قَدْ مُتُّمْ..." هذا هو الصليبُ. وإليكَ السرُّ، عندما ماتَ المسيحُ لم يمُتْ لأجلِ نفسِه، بل لأجلِنا، ماتَ نيابةً عنَّا. فحملَ ذنوبَنا وإدانتَنَا ودفعَ عقوبةَ خطيتِنَا وماتَ الميتةَ التي كنَّا نستوجِبُها. وإذا ما أدركنا هذهِ الحقيقةَ، وبالإيمانِ نقبلُ ما يعلنُه الكتابُ المقدسُ، عندها سندركُ أنه

عندما ماتَ يسوعُ متنا نحنُ أيضًا معَهُ. أعادَ بولسُ التأكيدَ على هذهِ الحقيقةِ في غلاطية؛ إذ قال: "مَعَ الْمَسِيحِ صُلِبْتُ، فَأَحْيَا لاَ أَنَا، بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ" (غلاطية ٢: ٢٠).

كان بولسُ يوجهُ كلامَهُ لأهلِ كولوسي ولنا أيضًا: "لأَنَّكُمْ قَدْ مُتُّمْ..." عندما مُتَّ مع المسيحِ، عبرتَ من خلالِ الموتِ (موتِ يسوعَ على الصليبِ) إلى عالمٍ جديدٍ ليس من هذا العالمِ الطبيعيِّ المنظورِ، عالمٍ لا يمكنُ لحواسِّنا الطبيعيَّةِ أنْ تميِّزَه ولا أنْ تدركَهُ طبيعتُنا البشريةُ المحدودةُ؛ فسترُ العليِّ هذا هو عالمٌ في المسيحِ؛ إذ نختبئُ مع المسيحِ في اللهِ.

"حَيَاتُنا مُسْتَتِرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللهِ"

لنتوقفْ لحظةً كيما نفكرَ في الأمانِ الكاملِ المُمثَّلِ في كونِ "حياتِنا مستترةً مع المسيحِ في اللهِ". في مكانِ الاختباءِ، إنْ صحَّ التعبيرُ يمكنُنا قولُ إنَّ لدينا حمايةً مضاعفةً: فأنتَ في المسيحِ وفي اللهِ. لذلكَ، لا يُمكِنُ أن يصيبَكَ شيءٌ في هذا الكونِ بأسرِهِ ما لم يأتِ أولًا من خلالِ اللهِ والمسيحِ.

إن حياتنا الحقيقيةَ ليستْ في هذا العالمِ. نحنُ هنا بالجسدِ لكنَّ لدينا حياةً من نوعٍ آخرَ، حياةً مختلفةً من نبعٍ مختلفٍ. وأجسادُنا ليستْ سوى إناءً خزفيًّا يحملُ هذه الحياةَ في الزمانِ

الحاضرِ. وأشارَ بولسُ إلى أنَّ أجسادَنَا (الإناءَ الخزفيَّ) قد يتعرَّضُ إلى صعوباتٍ وضغوطٍ كثيرةٍ، وليسَ من ضمانٍ بأننا لن نواجهَ هذهِ الصعابَ. لكن في ذلك الإناءِ الخزفيِّ تسكنُ حياةٌ أبديةٌ غيرُ قابلةٍ للفسادِ أو التدميرِ، تشبهُ حياةَ اللهِ وحياةَ المسيحِ حتى إنَّهُ لا يمكنُ أنْ يحدثَ شيءٌ ما لم يكنْ في إرادةِ اللهِ والمسيحِ. (انظر ٢كورنثوس ٤: ٧-١٠، ١٦-١٨).

هذا هو الأمانُ الكاملُ، إنهُ أمانٌ في وسطِ الحروبِ، والمجاعاتِ، والأوبئةِ، والزلازلِ. وبغضِّ النظرِ عمَّا يمكنُ أنْ يحدثَ، فنحنُ في المسيحِ، في سترِ العليِّ. ونتمتَّعُ بحمايةٍ منْ كلِّ أذى ومن كلِّ خطرٍ. إنَّ صليبَ ربِّنا يسوعَ المسيحِ هو البابُ المؤدي لسترِ العليِّ الذي يكفلُ لنا الحمايةَ والسلامةَ والأمانَ.

الفصل الثامن عشر

كيف نتحصَّنُ ضدَّ الخوفِ والقلقِ

لننتقلِ الآنَ إلى جانبٍ آخرَ منْ جوانبِ الأمانِ جميعُنا في احتياجٍ إليهِ، لكنْ بكلِّ أسفٍ لا يختبرُهُ الكلُّ، إنهُ الأمانُ العاطفيُّ أو الوجدانيُّ. تزدادُ الضغوطُ النفسيةُ والعاطفيةُ بسببِ نمطِ حياتِنَا المعاصرِ. ذاتَ مرةٍ، قرأتُ واحدةً من التقديراتِ، وقد أشارتْ إلى أنهُ منْ بينِ كلِّ أربعةِ أفرادٍ في المجتمعِ الأمريكيِّ سيحتاجُ واحدٌ إلى نوعٍ منَ المساعدةِ النفسيَّةِ. هذا رقمٌ صاعقٌ، والنتيجةُ هي أنَّ معظمَ مستشفياتِ الأمراضِ النفسيةِ اليومَ تكتظُّ بالمرضَى.

عندما يحتاجُ الشخصُ إلى مساعدةٍ نفسيةٍ، بطريقةٍ أو بأخرَى يَعني أنهُ قدِ استسلمَ للضغوطِ النفسيةِ أو العاطفيةِ. وتشيرُ التقديراتُ إلى أنهُ مقابلَ كلِّ شخصٍ يدركُ بالفعلِ حاجتَهُ ويسعى للحصولِ على مساعدةٍ نفسيةٍ، فمنَ المحتملِ وجودُ ضِعفَيْ هذا العددِ منَ الذين لا يدركونَ حاجَتَهُم أو يطلبونَ المساعدةَ، رغم معاناتِهم إلى حدٍّ ما من نوعِ المشاكلِ ذاتِها.

العلاجُ

يمكنُ تلخيصُ علاجِ الضغوطِ النفسيةِ والعاطفيةِ في كلمةٍ واحدةٍ هي السلامُ. إني لا أشيرُ إلى السلامِ بمفهومِ غيابِ الحربِ، لكن بالمعنى الإيجابيِّ من تحقيقِ الشبعِ والاكتفاءِ الشخصيِّ، والشعورِ بالمعنى الكاملِ للحياةِ وراحةِ النفسِ الداخليَّةِ.

هناك عدوَّانِ أساسيَّان للسلامِ وهما الخوفُ والقلقُ. يأخذُ كلاهما العديدَ منَ الأشكالِ؛ فعلى سبيلِ المثالِ، قد نخافُ أو نقلقُ منْ آراءِ الآخرينَ أو من الإصابةِ بمرضٍ أو التعرضِ لانتكاسةٍ ماليةٍ وانكماشِ الموارِدِ. إنَّ الخوفَ يشبهُ خنجرًا يطعنُ نفوسَنا إلى الداخلِ، بينما القلقُ كدودةٍ صغيرةٍ تنخُرُ وتنهشُ فيها. لا يزالُ كلٌّ منها يعملُ كمعتَدٍ يملكُ قوةَ التدميرِ.

أنْ تتوكَّلَ على الربِّ وتضعَ ثقتَكَ فيهِ فهذهِ حمايةُ اللهِ الأساسيةُ منَ الخوفِ والقلقِ. قال النبيُّ إشعياءُ:

"ذُو الرَّأْيِ الْمُمَكَّنِ تَحْفَظُهُ سَالِمًا سَالِمًا، لأَنَّهُ عَلَيْكَ مُتَوَكِّلٌ. تَوَكَّلُوا عَلَى الرَّبِّ إِلَى الأَبَدِ، لأَنَّ فِي يَاهَ الرَّبِّ صَخْرَ الدُّهُورِ" (إشعياء ٢٦: ٣-٤).

"تَحْفَظُهُ سَالِمًا سَالِمًا" هذه حمايةٌ كاملةٌ ضدَّ الخوفِ والقلقِ.

يتحدثُ المقطعُ السابقُ أيضًا عنِ المجالِ الذي يتعرضُ فيهِ

الذهــنُ للهجــومِ بالخــوفِ والقلــقِ. "**ذُو الــرَّأْيِ الْمُمَكَّــنِ تَحْفَظُــهُ** سَــالِمًا سَالِمًا..." والعبــارةُ التاليــةُ لهــذِهِ، تذكــرُ لنــا كيــفَ يكــونُ لدينــا عقلٌ مســتقرٌ وثابــتٌ: "لأَنَّــهُ عَلَيْــكَ مُتَــوَكِّلٌ". ثــمَّ تتبــعُ ذلــك وصيــةٌ رائعــةٌ؛ إذ يحــضُّ إشــعياءُ الشــعبَ فيقــولُ: "تَوَكَّلُــوا عَــلَى الــرَّبِّ إِلَى الأَبَــدِ، لأَنَّ فِي يَــاهَ الــرَّبِّ صَخْــرَ الدُّهُــور."

إنَّ مــا يتَّصِــفُ بــهِ الــربُّ في تلــكَ الآيــاتِ يعكــسُ دراســتَنَا الســابقةَ للعبرانيــين ٦: ١٩، حيــثُ اعتبرنــا مرســاةَ النفــسِ الــتي تعــبرُ عــبرَ الزمــنِ الحــاضرِ إلى الأبديــةِ مثبتــةً على الــربِّ صخــرِ كلِّ الدهــورِ. ويقــدِّمُ لنــا المقطــعُ المذكــورُ ســابقًا صــورةً أخــرى لصخــرِ الدهــورِ الأبــديِّ.

الخطواتُ اللازمةُ للاتكالِ على اللهِ

بينمــا نتابــعُ فكــرةَ الاتــكالِ على الــربِّ، الــتي قدَّمَهــا لنــا إشــعياءُ، دعونــا نلــقي نظــرةً على خطوتَــيْنِ لتحقيــقِ ذلــك الاتــكالِ ووضــعِ ثقتِنَــا فيــهِ.

١. تجدَّدُوا بروحِ ذهنِكُم

أولًا، "تَجَــدَّدُوا بِــرُوحِ ذِهْنِكُــمْ" (أفســس ٤: ٢٣). إنَّ القــوى الروحيــةَ في نهايــةِ الأمــرِ هي مــن تحفِّــزُ أذهانَنَــا وتوجِّهُهــا وتســيطرُ عليهَــا.

لذلكَ، ولكي نضعَ ثقتَنا في اللهِ يجبُ أنْ يكونَ لدينا روحٌ مختلفٌ يتحكمُ في أذهانِنَا يختلفُ كلَّ الاختلافِ عنِ الروحِ الذي يتحكمُ في أذهانِ الناسِ في هذا العالمِ.

علينا أن نُعطيَ المجالَ لروحٍ مختلفٍ آخرَ ليتولَّى مسؤوليةَ أذهانِنَا فيعيدَ برمجةَ تفكيرِنا ويزوِّدَنا بأساليبَ فكريةٍ جديدةٍ وأهدافٍ تتماشى مع فكرِ المسيحِ وتتَّسِقُ معَه. لذا قارنَ بولسُ بينَ الروحِ الذي يعملُ في أبناءِ هذا العالمِ ونوعِ الروحِ الذي يجبُ أنْ يعملَ في أبناءِ اللهِ، قائلًا:

"لأَنَّ اللهَ لَمْ يُعْطِنَا رُوحَ الْفَشَلِ [الخوف أو الجُبن]، بَلْ رُوحَ الْقُوَّةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالنُّصْحِ" (٢تيموثاوس ١: ٧).

إنَّ "رُوحَ الْقُوَّةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالنُّصْحِ" الذي أشارَ إليهِ بولسُ هو الروحُ القدسُ، الذي يجبُ أنْ ندعوَهُ للسيطرةِ على أذهانِنا. وحين يدخلُ الروحُ القدسُ يطردُ كلَّ روحٍ للفشلِ أو الخوفِ.

٢. التركيزُ على الجانبِ الإيجابيِّ

الخطوةُ الثانيةُ لتحقيقِ الاتكالِ على اللهِ في أذهانِنَا هي التركيزُ على الجانبِ الإيجابيِّ. يمكِنُنا فهمُ هذه الحقيقةِ في المقطعِ التالي الذي كتبَهُ بولسُ إلى أهلِ فيلبِّي:

"لاَ تَهْتَمُّوا بِشَيْءٍ، بَلْ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِالصَّلاَةِ وَالدُّعَاءِ مَعَ الشُّكْرِ، لِتُعْلَمْ طِلْبَاتُكُمْ لَدَى اللهِ. وَسَلاَمُ اللهِ الَّذِي يَفُوقُ كُلَّ عَقْل، يَحْفَظُ قُلُوبَكُمْ وَأَفْكَارَكُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ" (فيلبي ٤: ٦-٧).

لا تحاولْ أبدًا تفسيرَ سلامِ اللهِ لأنَّهُ "يَفُوقُ كُلَّ عَقْل". فسلامُ اللهِ يتجاوزُ قدرتَنَا على استنتاجِ هذا السلامِ وفهمِه. إذًا كيفَ نختبرُ هذا السلامَ؟ إننا ننالُهُ منَ اللهِ.

في الآيةِ التاليةِ، وصفَ بولسُ كيفَ لنا أنْ نحتفظَ بسلامِ اللهِ في داخلِنَا:

"أَخِيرًا أَيُّهَا الإِخْوَةُ كُلُّ مَا هُوَ حَقٌّ، كُلُّ مَا هُوَ جَلِيلٌ، كُلُّ مَا هُوَ عَادِلٌ، كُلُّ مَا هُوَ طَاهِرٌ، كُلُّ مَا هُوَ مُسِرٌّ، كُلُّ مَا صِيتُهُ حَسَنٌ، إِنْ كَانَتْ فَضِيلَةٌ وَإِنْ كَانَ مَدْحٌ، فَفِي هذِهِ افْتَكِرُوا" (فيلبي ٤: ٨).

ما وصفَهُ بولسُ هنا هو الوصفةُ المستمرةُ للسلامِ. ركِّزْ على ما هو إيجابيّ، ولا تركزْ لا على الأشخاصِ الذينَ أساءوا إليكَ، ولا المشاكلِ التي قد تتعرضُ لها. لا تركِّزْ على ما هو شرِّير، لكنْ ضَعْ تركيزَكَ على كلِّ ما هو حسَن. ضعْ تركيزَكَ على اللهِ وعلى محبتِهِ وأمانتِهِ. ركِّزْ على كلمةِ اللهِ، وعلى من يهتمُّونَ بكَ ويصلُّونَ من أجلِكَ. فكِّرْ في كلِّ الخيرِ الذي تلقَّيْتَهُ منَ الناسِ، ولا تدَعْ ذهنَكَ ينشغلُ بما هو سلبيّ. قبلَ سنواتٍ، عندما كنتُ أخدمُ مع القواتِ

البريطانيةِ في مصرَ، أشارَ لي أحدُهُم إلى أنَّ هناك نوعَيْنِ أساسيَّيْنِ منَ الطيورِ الجارحةِ. هناك طيرٌ يقتُلُ فريستَهُ ويلتهِمُهَا حيَّةً، وهناك مَن يتغذَّى على اللحمِ الفاسدِ الذي أنتَنَ. ذلكَ الشخصُ عادَ فقالَ لي: "كلا النوعَيْنِ من هذهِ الطيورِ يجدُ ما يبحثُ عنهُ ويتطلَّعُ إليهِ!" وتعملُ أذهانُنا بذاتِ الطريقةِ. إنْ أرَدْنا أنْ نتغذَّى على اللحومِ الفاسدةِ، يمكِنُنا أنْ نفعلَ ذلك. أمَّا إنْ أرَدْنَا أنْ نتغذَّى على ما هو طَازِج، فبإمكانِنَا فعلُ هذا. ونحنُ مَنْ نتَّخِذُ القرارَ.

عندما يتسلَّلُ الخوفُ إلَيْنَا

أريدُ أنْ أوضحَ أنَّ الكتابَ المقدسَ واقعيٌّ للغايةِ. ولا يُفتَرَضُ أبدًا أنَّ ما يَصِفُه الكتابُ المقدسُ منْ جهةِ السلامِ سيُكَلَّلُ بالنجاحِ الكاملِ منَ الوهلةِ الأولى. إنَّ الكتابَ يتركُ مساحةً منَ الشدِّ والجذبِ المستمرَّيْنِ ما بينَ الخوفِ والثقةِ. وأكادُ أجزمُ بأنَّ كلَّ واحدٍ منَّا يعرفُ تلكَ الحالةَ، فمعظمُنَا يختبرُها في بعضِ الأوقاتِ. كتبَ الملكُ داودُ:

" فِي يَوْمِ خَوْفِي [يا الله] ، أَنَا عَلَيْكَ أَتَّكِلُ. اَللهُ أَفْتَخِرُ بِكَلاَمِهِ. عَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَلاَ أَخَافُ. مَاذَا يَصْنَعُهُ بِي الْبَشَرُ؟" (مزمور ٥٦: ٣-٤).

لاحظْ أنّ داودَ لم يقلْ إنَّهُ لم يختَبِرِ الخوفَ أبدًا. بل قالَ في حقيقةِ الأمرِ: "في يومِ خوفِي، لنْ أستسلمَ للخوفِ، ولنْ أركزَ عليهِ أو

أدَعَ له الفرصةَ ليتملِكَني ويسيطرَ على تفكيري. على العكسِ، سأبتَعِدُ عن مخاوفي، وسأتطلَّعُ إلى الربِّ واضعًا ثقتِي فيهِ وسأتكلُ عليهِ".

بالطريقةِ ذاتِها، بينما نلجأُ إلى الربِّ ونضعُ ثقتَنَا فيهِ، يجبُ أنْ نكرمَ كلمةَ اللهِ ونحترمَها لأنها تعبِّرُ عنْ إرادةِ اللهِ ومشورتِهِ واتجاهاتِ قلبِهِ من نحوِنَا. ربما توحي بعضُ الظروفِ بأنَّ اللهَ غيرُ مهتمٍّ بنا، وأنه بعيدٌ جدًا وأنَّ ما نمرُّ بهِ من مواقفَ ليسَ تحتَ سيطرتِهِ. لكن عندما نضعُ ثقتَنَا فيهِ وفي كلمتِهِ، نقرِّرُ ألا نصدقَ تلكَ الأكاذيبَ التي يطلقُها الشيطانُ.

في وقتِ الخوفِ، فإنَّ العلاجَ ليسَ في قولِ إنِّي "لستُ خائفًا"، لكننا نقولُ عوضَ ذلكَ: "لنْ أستسلمَ للخوفِ"، سأرجعُ إلى اللهِ وأضعُ ثقتي فيهِ وفي كلمتِهِ التي لا تتغيَّرُ أبدًا. ولأني أتَّكِلُ على الله واضعًا ثقتي فيهِ وفي كلمتِهِ فالخوفُ لن يتمكَّنَ مني."

هل تواجهُ موقفًا يثيرُ الخوفَ في قلبِكَ الآنَ؟ فلِمَ لا تكرِّرُ العلاجَ ضدَّ الخوفِ بصوتٍ عالٍ كإعلانٍ عنْ ثقتِكَ باللهِ واتكالِكِ عليهِ؟

لنْ أستسلمَ للخوفِ، سأرجعُ إلى اللهِ وأضعُ ثقتي فيهِ وفي كلمتِه التي لا تتغيَّرُ أبدًا. ولأني أتكلُ على اللهِ واضعًا ثقتي فيهِ وفي كلمتِهِ فالخوفُ لنْ يتمكَّنَ منِّي. آمين.

الفصل التاسع عشر

كيف نتحصَّنُ ضدَّ الإحباطِ والاكتئابِ

في الفصلِ السابقِ ناقشْنا عدوَّين للأمانِ العاطفيِّ ينشآنِ ليتحدَّيَانَنا، هما الخوفُ والقلقُ. ويوجدُ عدوَّانِ آخرانِ يحاولانِ منعَنَا منَ الوصولِ إلى الأمانِ العاطفيِّ الحقيقيِّ، هما الإحباطُ والاكتئابُ. بعدَ أنْ دُعيتُ للتدريسِ والوعظِ في العديدِ منَ البلدانِ، كانتْ لديَّ الفرصةُ لسؤالِ المؤمنينَ في جميعِ أنحاءِ العالمِ عمَّا هي أكثرُ المعاركِ التي كثيرًا ما يواجِهونها. في تلكَ السنواتِ منَ الاستقصاءِ غيرِ الرسميِّ الذي أجريْتُهُ مع الجمهورِ المسيحيِّ، وجدتُ أنَّ الإحباطَ والاكتئابَ اثنانِ منْ أكثرِ الأعداءِ انتشارًا بينَ شعبِ اللهِ. وللتعاملِ مع الإحباطِ والاكتئابِ كما هو الحال مع الخوفِ والقلقِ، يتعلقُ الأمرُ أولاً -وقبلَ كلِّ شيءٍ- بالروحِ القدسِ الذي يحكمُ أذهانَنا.

أصغِ إلى المُشجّع

لإعادةِ التأكيدِ على مَن هو الروحُ الذي يجبُ أنْ يحكمَ أذهانَنا، دعونا ننظر إلى فقرةٍ كتابيةٍ من إنجيلِ يوحنَّا. هذا

هو جانبٌ واحدٌ ممَّا قاله يسوعُ لتلاميذِهِ عندما كانَ على وشكِ تَرْكِهم ليعودَ إلى الآبِ في السماءِ:

"وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّيًا آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ، رُوحُ الْحَقِّ" (يوحنا ١٤: ١٦-١٧).

تُرجِمَتْ أيضًا الكلمةُ اليونانيةُ "مُعَزِّيًا" في الآيةِ السابقةِ بعدةِ طرقٍ مختلفةٍ في اللغةِ الإنجليزيةِ، مثلَ "المُعين"، "المشير" "المُعَزِّي". وتوجدُ كلمةٌ أخرى يمكنُ أنْ تُستَخدَمَ أيضًا هي "المُشجِّع". المعنى الأخيرُ هو واحدٌ من المعاني المفضلةِ لديَّ، لأنهُ في اللغةِ الإنجليزيةِ الحديثةِ، كلمةُ "يُعزِّي" تَعني أيضًا "أنْ يشجِّعَ".

أريدُ التأكيدَ على حقيقةٍ واحدةٍ بشكلٍ واضحٍ وحازمٍ، هي أنَّ الروحَ القدسَ لا يثبطُ عزيمةَ شعبِ اللهِ. فهو المشجِّعُ، وليس المحبِطَ. أيُّ روحٍ يعملُ في ذهنِكَ ليثبطَ عزيمتَكَ ليسَ هو الروحَ القدسَ! أنتَ بحاجةٍ لتجديدِ روحِ ذهنِكَ وإفساحِ المجالِ للروحِ القدسِ "المشجِّعِ".

تمييزُ الحقِّ منَ الباطلِ

قالَ يسوعُ إنَّ الروحَ القدسَ المشجِّعَ هو "روحُ الحقِّ". وإحدى الطرقِ التي يشجِّعُنا بها الروحُ القدسُ هي أنَّهُ يحملُ لنا الحقَّ. بينما الشيطانُ كاذبٌ، ويثبطُ عزيمتَنَا؛ إذ يحملُ لنا

الأكاذيبَ. هناك معركةٌ روحيةٌ مستمرةٌ تدورُ رحاها في أذهانِنا، ونحنُ بحاجةٍ إلى الاستجابةِ للجانبِ الذي معهُ الحقُّ. يجدُ بعضُ المسيحيينَ أنفسَهُم في حالةٍ منَ الارتباكِ الذهنيِّ بسببِ هذهِ المعركةِ. في بعضِ الأحيانِ، يسمعونَ ويطيعونَ الروحَ القدسَ الذي يحملُ الحقَّ لهمْ، لكن يُباغِتُهُم العدوُّ في أحيانٍ أخرى فيستمعونَ إليه حاملًا لهم أكاذيبَه وإحباطاتِهِ.

واحدةٌ منَ الطرقِ الجيدةِ التي نميِّزُ بها ما بينَ الحقِّ والكذبِ هي تلكَ الحقيقةُ التي أشرتُ إليها للتوِّ، ويقتضي الأمرُ التشديدَ على أهميَّتِها مرةً أخرى وهيَ أنْ [الروحُ القدسُ لا يعطيَ أبدًا روحَ الفشلِ لشعبِهِ] قد يوبِّخُنَا روحُ اللهِ أو يدينُ أفعالَنا، لكنَّهُ لا يعطينا أبدًا روحَ الفشلِ. ما يعطينا الروحُ القدسُ إياه في نهايةِ الأمرِ هو دائمًا أمرٌ إيجابيٌّ وليس سلبيًّا.

دعني أؤكِّدُ لكَ: إذا كانَ هناكَ بعضُ الأصواتِ التي تهمسُ في ذهنِكَ بأنكَ لستَ صالحًا، وأنك لنْ تنجحَ أبدًا، ولن تعرفَ أبدًا طعمَ الفوزِ، أو أنكَ فاشلٌ، أو أنَّ اللهَ قد تخلَّى عنكَ، فهذا ليسَ صوتَ الروحِ القدسِ متحدِّثًا إليكَ. ليس هذا صوتَ الحقِّ لكنهُ صوتُ الكذبِ. إنَّ الروحَ القدسَ لا يتكلمُ إلا بالحقِّ. بينما يتكلمُ الشيطانُ بكلِّ أكاذيبِهِ مثلَ الأكاذيبِ التي ذكرتُها للتوِّ.

بعد إصحاحاتٍ قليلةٍ في إنجيلِ يوحنا، صلَّى يسوعُ للآبِ قائلًا: "كَلاَمُكَ هُوَ حَقٌّ" (يوحنا ١٧: ١٧). إذا وضعنا هاتين الفكرتَيْنِ معًا، الفكرةَ المطروحةَ في يوحنا ١٧ إلى جانبِ الفقرةِ الكتابيةِ في يوحنا ١٤ التي درسناها سابقًا سنجدُ أنَّ الروحَ القدسَ يشجِّعُنا بأنْ ينقلَ لروحِ أذهانِنَا الحقَّ الذي في كلمةِ اللهِ. كما رأينا، فإنَّ الحقَّ الذي في كلمةِ اللهِ دائمًا وأبدًا إيجابيٌّ ومشجِّعٌ لأيِّ من أولادِ اللهِ. وعلى وجهِ التحديدِ، يرينا الروحُ القدسُ الطريقَ لنجدَ الحمايةَ عندما يهاجِمُنَا الإحباطُ والاكتئابُ. فأين نجدُ تلك الحمايةَ؟ إنها بالطبعِ في كلمةِ اللهِ.

احفظْ نفسَكَ من الاكتئابِ (روح اليأس)

واحدةٌ منَ الآياتِ الغاليةِ على قلبي هي إشعياء ٦١: ٣، حيثُ يقولُ الكتابُ المقدسُ إنَّ اللهَ سيعطينا "رِدَاءَ تَسْبِيحٍ عِوَضًا عَنِ [بدلًا من] الرُّوحِ الْيَائِسَةِ". هذه "الرُّوحِ الْيَائِسَةِ" هي الاكتئابُ. إنْ هاجمتْنَا الروحُ اليائسةُ فاللهُ قدْ أعدَّ لنا علاجًا ليحفظَنَا بعيدًا عنهَا، هو "رِدَاء التَّسْبِيح". عندما نلبسُ رداءَ التسبيحِ ونبدأُ في التسبيحِ وعبادةِ اللهِ، عندها لا يمكنُ لروحِ اليأسِ أو الاكتئابِ أن تزعجَ أرواحَنا؛ إذْ إنَّها قدِ انهزَمَتْ.

إنَّ رداءَ التسبيحِ يحيطُ بنا ويحمي كيانَنَا منْ روحِ اليأسِ. وأفضلُ تصرفٍ هو أنْ نعيشَ برداءِ تسبيحٍ يلتفُّ باستمرارٍ

حولَنا. فمَنْ يحافظُ دائمًا على تسبيحِ اللهِ لن يتَّسِعَ له الوقتُ لكي يصابَ بالإحباطِ أو الفشلِ. وقتما تصابُ بروحِ اليأسِ، تذكَّرْ أنْ تلبَسَ رداءَ التسبيحِ.

في العهدِ الجديدِ، يُرينا بولسُ الرسولُ أداتين أُخْرَيَيْن للحمايةِ منَ الإحباطِ والاكتئابِ:

"وَأَمَّا نَحْنُ الَّذِينَ مِنْ نَهَارٍ، فَلْنَصْحُ لاَبِسِينَ دِرْعَ الإِيمَانِ وَالْمَحَبَّةِ، وَخُوذَةً هِيَ رَجَاءُ الْخَلاَصِ" (١تسالونيكس ٥: ٨).

الأداةُ الأولى للحمايةِ هي "دِرْعَ الإِيمَانِ وَالْمَحَبَّةِ" ويُلبَسُ هذا الدرعُ فوقَ المنطقةِ التي يوجدُ فيها القلبُ. وبهذهِ الطريقةِ يكون القلبُ محميًا بالإيمانِ والمحبةِ. الأداةُ الثانيةُ هي "الخُوذة" وهِيَ "رَجَاءُ الْخَلاَصِ" الذي يحمي أذهانَنا. وعلى وجهِ التحديدِ هذه الخوذةُ هي خوذةُ الرجاءِ. عندما تتعرضُ أذهانُنا للهجومِ نحتاجُ أنْ نلبسَ خوذةَ الرجاءِ، لا بمجردِ رفضِ الاستسلامِ لليأسِ، لكنْ بعدمِ إفساحِ المجالِ لكلِّ سلبياتٍ في حياتِنَا. عندما نفعلُ ذلكَ، سنفسحُ المجالَ أمامَ الرُّوحِ القُدُسِ ليُرِيَنَا الحقائقَ المجيدةَ والإيجابيةَ من كلمةِ اللهِ التي عليها يمكِنُنا وضعُ أساسِ رجاءٍ قويٍّ وثابتٍ ومؤكَّدٍ. وكما يفعلُ رداءُ التسبيحِ، فعندما تمتلئُ أذهانُنا بالرجاءِ لا يوجدُ مكانٌ للإحباطِ أو الفشلِ.

صراعي معَ الاكتئابِ

إنَّ تلكَ الأدواتِ الدفاعيةَ ضدَّ الاكتئابِ حقيقةٌ واقعيةٌ تظلُّ عالقةً وحيَّةً في ذِهني. عندَ بداياتي كواعظٍ شابٍّ، خضتُ صراعًا رهيبًا ضدّ الاكتئابِ لعدةِ سنواتٍ. من ناحيةِ الخدمة نجحتُ نجاحًا كبيرًا في أمورٍ عديدةٍ، لكنَّني لم أنجحْ مطلقًا في التعاملِ مع مشكلةِ الاكتئابِ. فكانَ كشيءٍ يسيطرُ عليَّ مثل ضبابٍ رماديٍّ حالكِ الظلامِ، وينزلُ فوقَ رأسي وكتفي حتى شعرتُ أنني مُكَفَّنٌ تحتَ تأثيرِ قوتِهِ. وهذا الأمرُ من شأنِهِ أنْ يفصلَني عن المجتمعِ الذي أعيشُ فيه فيُبعِدَني عنْ زوجتي وأفرادِ عائلتي وأعضاءِ الكنيسةِ. أشعرُ كما لو كنتُ حبيسَ ذلكَ الضبابِ الرماديِّ لليأسِ، مما يعطيني انطباعًا بأنني لن أنجحَ في الخروجِ من هذهِ الدائرةِ. كما لو كانَ هناك شيءٌ يهمسُ في أُذني، "لن تصلَ أبدًا إلى أبعدِ ممَّا وصلتَ إليهِ الآنَ. في إمكانِ الآخرينَ أنْ يفعلوا شيئًا لكنْ بالنسبةِ لكَ، فهذا غيرُ ممكنٍ".

ولساعاتٍ طويلةٍ كنتُ أصارعُ باستمرارٍ ضدَّ هذا الحضورِ الطاغي لروحِ اليأسِ والاكتئابِ، باذلًا كلَّ ما بوسعي. فصلَّيتُ وصُمتُ وقرأتُ الكتابَ لكنْ بطريقةٍ أو بأخرى لم أذقْ طعمَ انتصارٍ دائمٍ على روحِ اليأسِ. ذاتَ يومٍ، بينما كنتُ أقرأُ الكتابَ المقدسَ، جئتُ إلى الآيةِ التي لاحظناها للتوِّ في إشعياءَ، التي

تقـولُ إنَّ اللهَ سـيعطينا "رِدَاءَ تَسْـبِيحٍ عِوَضًـا عَـنِ [بدلًا من] الـرُّوحِ الْيَائِسَـةِ".

عندمـا قـرأتُ هـذهِ الكلمـاتِ "عِوَضًـا عَـنِ الـرُّوحِ الْيَائِسَـةِ"، اضطـربَ شـيئًا في داخـلي. فقلـتُ لنفـسي، نعـم تلـكَ هي مشـكلتي!

في تلـكَ اللحظـةِ أدركـتُ بإعـلانٍ خـاصٍّ مـنَ الكتـابِ المقـدسِ أنـني لـم أكـنْ أتعامـلُ مـعَ مجـردِ توجُّـهٍ ذهـنيٍّ أو فكـريٍّ. ولـم يكـنْ مجـرَّدَ حالـةٍ نفسـانيةٍ. لكنـني بالأحـرى كنـتُ أصـارعُ عـدوًّا شـخصيًّا غـيرَ مـرئيٍّ في عالـمِ الـروحِ يُـدعَى "الـرُّوح الْيَائِس".

كانَ روحُ اليـأسِ يهاجـمُ عقـلي هجومًـا ممنهجًـا. لكـن عندمـا أدركـتُ أني أتعامـلُ مـع كائـنٍ روحيٍّ غـيرِ مـرئيٍّ هـو روحُ اليـأسِ كنـتُ قـد اجـتزتُ ٨٠ في المئـة نحـوَ التوصُّـلِ إلى حـلِّ مشـكلتي. ولاسـتكمالِ عمـلِ هـذا الإعـلانِ الخـاصِّ كنـتُ في حاجـةٍ إلى آيـةٍ واحـدةٍ أخـرى. ووجدتُهـا في سـفرِ يوئيـل "وَيَكُـونُ أَنَّ كُلَّ مَـنْ يَدْعُـو بِاسْـمِ الـرَّبِّ يَنْجُـو" (يوئيـل ٢: ٣٢). وعلى الفـورِ دعـوتُ باسـمِ الـربِّ، فتفاضلَـتْ نعمتُـهُ وحـرَّرَني مـنْ روحِ اليـأسِ. ثـم أرَاني الـروحُ القـدسُ أنـه لـكي أبـقى حـرًّا، كان عليَّ اتِّبـاعُ الخطـواتِ ذاتِهـا الـتي سـبقَ فأوصيـتُ بهـا.

أولًا، بأنْ ألبسَ رداءَ التسبيح.

ثانيًـا، بـأنْ أتوقـفَ عـنِ الـكلامِ السـلبيِّ، والتذمُّـرِ، ولا أعـودُ أتحـدَّثُ بعـدَ الآنَ عـنِ المخـاوفِ والهمـومِ والقلـقِ بمختلفِ أشـكالِهَا.

إضافـةً إلى ذلـكَ، في كلِّ مـرةٍ أواجـهُ فيهـا مشـكلةً، كانَ عليَّ أنْ أبحـثَ في الكتـابِ المقـدسِ عـن حـلٍّ لهـا، وأقتبـسَ الجـوابَ بجـرأةٍ وأعطـيَ المجـدَ والشـكرَ للهِ لأجـلِ إيجـادِ الجـوابِ المناسـبِ. ولـم يَعُـدْ بإمـكاني أنْ أتحمَّـلَ روحَ اليـأسِ والتشـاؤمِ إذْ إنَّهـا بالنسـبةِ لي أكـثرُ الطـرقِ المضمونـةِ للهزيمـةِ.

كان هـذا هـو الدرسَ الشـخصيّ الذي أعطـاني إيَّـاهُ الـربُّ؛ فمـنْ خـلالِ ارتـداءِ رداءِ الـبرِّ وخـوذةِ الرجـاءِ، أتيـتُ إلى مـكانٍ مـنَ الأمـانِ الكامـلِ ضـدَّ تلـكَ القـوى الشريـرةِ مـنَ الإحبـاطِ والاكتئـابِ.

إنْ كنتَ تواجهُ معركةً مماثلةً، فقاومْ بإعلانِ الإيمانِ التالي:

«أيّها الآبُ السماويّ، إني أعلنُ هذهِ الإعلاناتِ في وجهِ الإحباطِ والاكتئابِ:

لقـد أعطيتَنِـي الروحَ القـدسَ؛ إذْ سبقَ فطلبَـهُ يسـوعُ لكـي أمتلـئَ بـهِ. وهـو قائمٌ معـي إلى الأبـدِ، يُعينُنِي ويعزيني ويشجّعُني ويحمـلُ لـي كلّ الحـقِّ الـذي فـي كلمتِـكَ. إنـي أشـكُرُكَ لأنّ الحـقّ الـذي فـي الروحِ القُـدُسِ دائمًـا إيجابيّ ومشجّعٌ.

لقـد ألبستني رداءَ التسبيحِ الـذي حـلّ محـلّ الروحِ اليائسـةِ. إنـي أسبّحُكَ أيهـا الـربّ يسـوعُ المسيحُ لأجـلِ عظـمِ أمانتِـكَ

من نحوي. أيضًا سأحملُ درعَ الإيمانِ والمحبةِ لأحفظَ قلبي، وسألبسُ خوذةَ الرجاءِ لأحميَ ذهنِي.

إني أقطعُ كلّ صلةٍ بروحِ اليأسِ التي تهاجِمُني، بل أرفُضُها في اسمِ يسوعَ، وألفُّ نفسِي برداءِ التسبيح. إني أدعو باسمِ الربِّ يسوعَ ليخلِّصَني منْ أيّ روحِ يأسٍ. وأتعهّدُ بأنْ يمتلئَ كلامي بالوعودِ التي في كلمةِ اللهِ، متكلمًا بكلّ البركةِ والتشجيعِ وكلامِ الرجاءِ معطيًا المجدَ للهِ.

الربّ خلاصي وهو رجائي ومصدرُ الأمانِ الكاملِ إلى الأبدِ. آمين.»

الفصل العشرون
كيفَ نتحصَّنُ ضدَّ الانتقاداتِ وتشويهِ الحقائقِ

في الفصولِ العديدةِ الأخيرةِ، كنا نركِّزُ على السعيِ لتحقيقِ الأمانِ العاطفيِّ أو الوجدانيِّ. واثنانِ من أسوأ أعداءِ تحقيقِ الأمانِ النفسيِّ هما الانتقادُ وتشويهُ الحقائقِ. واللسانُ هو السلاحُ الرئيسيُّ الذي يستخدمُه الشيطانُ ضدَّ شعبِ اللهِ.

اسمُ العدوِّ ذاتُه في العهدِ الجديدِ "الشيطانُ" يعني "المُفتري" فتلكَ هي طبيعتُهُ، هو المفتري والمشتَكِي. وفي الغالبِ سيؤثرُ على ألسنةِ البشرِ لاستخدامِها ضدَّ المؤمنينَ بيسوعَ؛ فهو لا يتواجَهُ معنا بشخصِهِ، بل بصورةٍ خفيةٍ وغيرِ مرئيةٍ يسيطرُ على ألسنةِ الناسِ فيوجِّهُها ضدَّ شعبِ اللهِ؛ إذ يستخدمُ الكلماتِ التي تصدرُ عنِ الآخرينَ من حولِنا ليفتريَ ويشتكيَ وينتقدَ ويزيفَ الحقائقَ للتضليلِ.

عندما يهاجِمُنا الشيطانُ من خلالِ الآخرينَ

فهمَ إرميا النبيُّ معنى التعرضِ للانتقادِ وتشويهِ السمعةِ. لقد انكشفَ لهُ ما كانَ يُقال منْ قِبَلِ أعدائِهِ: "فَقَالُوا: هَلُمَّ

فَنُفَكِّرُ عَلَى إِرْمِيَا أَفْكَارًا... هَلُمَّ فَنَضْرِبُهُ بِاللِّسَانِ" (إرميا ١٨: ١٨). ويهاجمُ الشيطانُ معظمَ خدَّامِ الربِّ بهذهِ الطريقةِ في وقتٍ ما من حياتِهم. وعندما نتعرَّضُ للهجومِ بكلامِ الآخرينَ من حولِنا، فإنَّ التحدِّيَ الرئيسيَّ الذي يواجهُنا هو كيفَ سنتفاعلُ مع الأمرِ وما هو تصرُّفُنا إزاءَ هذهِ الكلماتِ. إنه أمرٌ في غايةِ الأهميةِ أنْ نستجيبَ للموقفِ بالطريقةِ التي يأمرُنا بها الكتابُ المقدسُ ويرشدُنا إليها. لقد تحدَّثَ يسوعُ نفسُه على وجهِ التحديدِ عن موقفِنا تجاهَ مثلِ هذا النوعِ منَ الهجومِ في الموعظةِ على الجبلِ:

"طُوبَى لَكُمْ إِذَا عَيَّرُوكُمْ وَطَرَدُوكُمْ وَقَالُوا عَلَيْكُمْ كُلَّ كَلِمَةٍ شِرِّيرَةٍ، مِنْ أَجْلِي، كَاذِبِينَ. اِفْرَحُوا وَتَهَلَّلُوا، لأَنَّ أَجْرَكُمْ عَظِيمٌ فِي السَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُمْ هكَذَا طَرَدُوا الأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ" (متى ٥: ١١-١٢).

دعونا نواصل دراسةَ الطريقةِ المُثلَى لاتخاذِ مواقفِنا تجاهَ الانتقادِ والتزييفِ المضلِّلِ للحقائقِ منْ خلالِ استكشافِ درسَيْنِ مهمَّيْنِ: (١) إنَّ التعرضَ للانتقادِ بركةٌ، (٢) إنَّ "[حياتنا] مُسْتَتِرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللهِ" (كولوسي ٣: ٣).

الدرس #١: التعرضُ للانتقادِ بركةٌ

عندما يُفتَرَى علينا ونُهان بسببِ إيماننَا بيسوعَ فهذهِ بركةٌ. ولكنْ إنْ تعرَّضْنا للانتقادِ بسببِ أخطائنا التي عمِلْناها

أو سوءِ سلوكِنا وتصرفاتِنا، فبكلِّ تأكيدٍ هذا الانتقادُ ليسَ بركةً لنا. لكن عندما نتعرضُ للانتقادِ والهجومِ بسببِ علاقتِنا وتكريسِنا ليسوعَ المسيحِ، عندها يقولُ يسوعُ: "طُوبَى لَكُمْ".

لذلك، إذا تعرَّضْنا للهجومِ بانتقاداتٍ لاذعةٍ ومجحفةٍ أو افتراءٍ، فلا يجبُ أن نعتبِرَها كمعضلةٍ نأسَفُ لحدوثِها وننتحبُ بسببِها. عندما نفهمُ ما قالهُ يسوعُ في متى ٥، ندركُ أنَّ أعداءَنا في الواقعِ يقدِّمونَ لنا معروفًا. ربما لا يدركونَ هذا الأمرَ، لكنهم في الواقعِ يراكمونَ لنا مكافآتٍ في السماءِ. فما هو موقفُنا وردُّ فعلِنا تجاهَ مثلِ هذهِ الانتقاداتِ؟ يجبُ ألا نحاولَ منعَهُم، وأنْ نتركَهُم ليستمرُّوا في هجومِهم، فكلَّما طالَ استمرارُهُم في فعلِ هذا الانتقادِ، كلما تعاظمتْ مكافأتُنا في السماءِ.

لقدْ أخبَرَنا يسوعُ أيضًا أنَّ تعرُّضَنا لمثلِ هذهِ الانتقاداتِ إنما يعكسُ امتيازَ شركتِنا معهُ لأنهُ هكذا كانَ يُعامَلُ الأنبياءُ. كما رأينا للتوِّ، هكذا تَعامَلَ الأعداءُ مع النبيِّ إرميا. لذلك، عندما تتعرَّضُ للهجومِ بألسنةِ الناسِ بسببِ علاقتِكَ بالربِّ، فأنتَ تسيرُ على خُطى الأنبياءِ. "اِفْرَحُوا وَتَهَلَّلُوا، لأَنَّ أَجْرَكُمْ عَظِيمٌ فِي السَّمَاوَاتِ". لهذا فإنَّ التحديَ الرئيسيّ للحمايةِ ضدَّ التعرضِ للانتقادِ تكمنُ في اتخاذِ ردِّ الفعلِ الصحيحِ.

الدرس #٢: حياتُنا "مُسْتَتِرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللهِ"

الدرسُ الثاني، نحتاجُ أنْ نتذكرَ أننا في المسيحِ يسوعَ. وسترُ العليِّ هو في المسيحِ الذي كتبَ بولسُ عنهُ "لأَنَّكُمْ قَدْ مُتُّمْ وَحَيَاتُكُمْ مُسْتَتِرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللهِ" (كولوسي ٣: ٣). وعندما تكونُ حياتُنا مستترةً مع المسيحِ عندئذٍ نتغطّى ببرِّ المسيحِ. إنَّهُ المعنى الأكثر روعةً على الإطلاقِ إنْ لم نفهمْ أيَّ شيءٍ سوى فهم هذا الحقِّ.

أعلنَ إشعياءُ: "إِلهِي قَدْ أَلْبَسَنِي ثِيَابَ الْخَلاَصِ. كَسَانِي رِدَاءَ الْبِرِّ" (إشعياء ٦١: ١٠). بمجردِ أنْ ننالَ الخلاصَ، نمتلكُ معهُ رداءَ البرِّ، ليس برَّنا الشخصيَّ، لكنْ برَّ المسيحِ الذي نقبلُهُ بالإيمانِ. فنحنُ إذًا قد غطَّانا برُّ المسيحِ بالكاملِ. كُلُّ نقاطِ الضعفِ في شخصيَّاتِنا وسلوكِنا مغطاةٌ بهذا الرداءِ.

كتبَ بولسُ أيضًا بخصوصِ برِّنا في المسيحِ:

"لأَنَّهُ جَعَلَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ خَطِيَّةً [يسوع]، خَطِيَّةً لأَجْلِنَا، لِنَصِيرَ نَحْنُ بِرَّ اللهِ فِيهِ" (٢كورنثوس ٥: ٢١).

لاحظِ الكلمةَ "فِيهِ". إنَّ كلَّ برِّنا يعتمدُ على علاقتِنا بيسوعَ. وعندما نكونُ فيهِ، فنحنُ في سترِ العليِّ، الذي فيه يغطِّينا برُّ اللهِ في المسيحِ. لذلك عندما نتعرضُ للانتقادِ والهجومِ منَ الناسِ فإنهم لا ينتقدونَ برَّنا الشخصيَّ، لكنهم ينتقدونَ برّ المسيحِ فينا.

عندما نلبسُ برَّ المسيح نتمتعُ بالحمايةِ، لذلك لا حاجةَ لنا أنْ نحاولَ الاعتمادَ على برِّنَا الذاتيّ، أو أنْ نردَّ على الانتقاداتِ بأنفسِنا، لماذا؟ لأنهُ عندَ مهاجمةِ الناسِ لبرِّ يسوعَ الذي فينا والذي نلبسُهُ، يتدخلُ اللهُ الآبُ نفسُه ويتعاملُ معهُم.

ذكرَ النبيُّ إشعياءُ هذا المبدأَ بوضوحٍ، قائلًا:

"كُلُّ آلَةٍ صُوِّرَتْ ضِدَّكِ لَا تَنْجَحُ، وَكُلُّ لِسَانٍ يَقُومُ عَلَيْكِ فِي الْقَضَاءِ تَحْكُمِينَ عَلَيْهِ. هَذَا هُوَ مِيرَاثُ عَبِيدِ الرَّبِّ وَبِرُّهُمْ مِنْ عِنْدِي، يَقُولُ الرَّبُّ" (إشعياء ٥٤: ١٧).

عندما يهاجمُ الناسُ برَّ اللهِ الذي فينا، فإنَّ اللهَ هو وحدُهُ الذي يدافعُ. هناك ترجمةٌ بديلةٌ لكلمةِ "يدافعُ" وهيَ التي استُخدِمت في الآيةِ السابقةِ "يبرِّرُ". "وَبِرُّهُمْ مِنْ عِنْدِي، يَقُولُ الرَّبُّ".

هذا يفسِّرُ أنَّ كلَّ آلةٍ صُوِّرتْ ضدَّنَا لا تنجحُ، وكلَّ لسانٍ ينتَقِدُنا أو يهاجِمُنا يبطلُ ويُدحَضُ. ذلكَ لأننا لا نواجِهُ المشتكينَ علينا ببرِّنَا الذاتيّ؛ إذْ إنَّ حياتَنَا مستترةٌ في سترِ العليِّ في المسيحِ، الذي كسانا برداء برِّه. مرةً أخرى، عندما نتعرضُ للهجومِ بانتقادِ الناسِ لنا، أو عندما نواجِهُ الافتراءَ والتزييفَ المضلِّلَ للحقائقِ، فهذهِ في الحقيقةِ بركةٌ في هيئةِ انتقادٍ. لماذا؟ لأنها تقودُنا للرجوعِ مجدَّدًا إلى سترِ العليِّ، إلى حيثُ الأمانِ الكاملِ.

لنأخذَ بعضَ الوقتِ للتفكيرِ فيما قاله الملكُ داودُ عن ذلكَ المكانِ السريِّ الذي يتَّسِمُ بالأمانِ الكاملِ. في مزمورِ ٣١، تحدث داودُ عن علاقةِ الربِّ بعبيدِهِ: "تَسْتُرُهُمْ بِسِتْرِ وَجْهِكَ مِنْ مَكَايِدِ النَّاسِ. تُخْفِيهِمْ فِي مَظَلَّةٍ مِنْ مُخَاصَمَةِ الأَلْسُنِ." (مزمور ٣١: ٢٠).

كان داودُ على درايةٍ بالمؤامراتِ البشريةِ وهجماتِ ألسنةِ الناسِ. فكان ملجؤُهُ هو الملجأَ ذاتَهُ الذي عبَّر عنهُ في مزمورِ ٩١: ١ "اَلسَّاكِنُ فِي سِتْرِ الْعَلِيِّ".

أرجو الانتباهَ لفكرةِ التشديدِ على كَوْنِ حياتِنَا مستترةً ومخفيةً. فيجبُ ألا نُظهرَ أنفسَنا ببرِّنَا الذاتيِّ، بل على العكسِ يجبُ أن نتحصَّنَ في برِّ المسيحِ. واللحظةُ التي نُظهِرُ فيها أنفسَنا بدلًا من إظهارِ برِّ المسيحِ هي اللحظةُ ذاتُها التي نبدأُ فيها القتالَ باستخدامِ أسلحةِ العدوِّ ذاتِها. وبمجردِ أن نبرِّرَ أنفسَنا نخرجُ منَ المخبأ السريِّ دونَ أن ندركَ ذلكَ. وبقيامِنا بفعلِ ذلكَ الأمرِ، قد خسرْنا غطاءَنَا وحمايَتَنَا. إنَّ علاجَ التعرضِ للانتقاداتِ وتشويهِ الحقائقِ هو في بقائِنا في سترِ العليِّ، وارتدائِنَا لرداءِ برِّ المسيحِ. لذا يجبُ ألا نحاولَ أبدًا مواجهةَ انتقاداتِ الناسِ ببرِّنا الذاتيِّ.

إنه أمرٌ في غايةِ الأهميةِ أن تتعلمَ مواجهةَ جميعِ الضغوطِ بصورةٍ لائقةٍ كما أبرزْتُها في الفصولِ العديدةِ الأخيرةِ: الخوفُ والقلقُ، الإحباطُ والاكتئابُ، التعرضُ للانتقاداتِ وتشويهِ

الحقائقِ. تجاوبْ مع تلكَ الضغوطِ بطريقةٍ صحيحةٍ، واسمحْ لها أنْ تكونَ سببًا لخيرِكَ، ولتتميمِ مقاصدِ اللهِ في حياتِك.

في كلِّ وقتٍ تقابلُ فيهِ هذه الضغوطَ، اسمحْ لها أن تقودَكَ لترجعَ مرةً أخرى إلى سترِ العليِّ. لهذا يسمحُ اللهُ باجتيازِنَا لمثلِ هذهِ الضغوطِ؛ إذ إنَّهُ يريدُ أنْ يأتيَ بكَ إلى حيثُ يمكِنُكَ أنْ تسكنَ وتبيتَ في سترِ العليِّ، إنهُ مكانُ الأمانِ العاطفيِّ الكاملِ.

في الفصلِ التالي، سننتقلُ من موضوعِ الأمانِ العاطفيِّ إلى واحدٍ من أكثرِ الموضوعاتِ شيوعًا؛ سعيُ البشرِ إلى نوعٍ من الضمانِ الماليِّ.

الفصل الحادي والعشرون

الأمانُ المادي والمالي

شهدَ التاريخُ البشريُّ في جميعِ العصورِ قلقَ البشرِ بشأنِ الشعورِ بالأمانِ من جهةِ المالِ والممتلكاتِ الماديةِ. في السنواتِ الأخيرةِ، أدتِ الضغوطُ الناتجةُ عنْ عدمِ الاستقرارِ الاقتصاديِّ في جميعِ أنحاءِ العالمِ إلى زيادةِ هذا القلقِ بصورةٍ كبيرةٍ؛ فشكَّلَ هذا الأمرُ صعوبةً مستمرةً لدى الجميعِ في إيجادِ أشكالٍ مُرضيةٍ للاستثمارِ. كانت إحدى النتائجِ الواضحةِ للغايةِ هي التصاعدُ الهائلُ في قيمةِ الذهبِ والفضةِ والأحجارِ الكريمةِ وعناصرَ أخرى لهواةِ جمعِ الأشياءِ الثمينةِ. ويستثمرُ البشرُ في هذه المجالاتِ لأنهم لا يشعرونَ بالأمانِ في أنواعِ الاستثماراتِ التقليديةِ الأخرَى.

أعرف رجلاً عربيًا ثريًا من دولةٍ منتجةٍ للنفطِ لا يشعرُ بالأمانِ إلا إذا كانَ لديهِ مئةُ مليون دولارٍ متوفرة نقدًا. وإذا لم تتوفَّرْ لديهِ هذه السيولةُ الماليةُ تحتَ تصرُّفِه، لا يستطيعُ النومَ في أثناءِ الليلِ. من أجلِ الحفاظِ على هذا المبلغِ متاحًا تحتَ تصرُّفِهِ، أودعَ المئةَ مليون دولارٍ في حسابٍ مصرفيٍّ سويسريٍّ، ودفعَ للبنكِ عمولةً بنسبةِ ٣ في المئة للحفاظِ على أموالِهِ. بمعنى آخر، يتكلف

هـذا الرجـلُ ثلاثـةَ ملايـين دولارٍ سـنويًا للحفـاظِ على مئـةِ مليـون دولارٍ في أمـانٍ. تلـك هي نظرتُـهُ لمفهـومِ الأمـانِ. حـتى لمـن يظنُّـونَ في صحـةِ هـذا النـوعِ مـنَ التفكـيرِ، تظـلُّ هـذهِ الاسـتثماراتُ لا تحقـقُ الأمـنَ الحقيـقيَّ أو الدائـمَ.

الاستثمارُ الدائمُ والآمنُ

يوجـدُ نـوعٌ بديـلٌ مـن الاسـتثمارِ يتَّسِـمُ بالاسـتمراريةِ والأمـانِ الكامـلِ. قـالَ يسـوعُ في الموعظـةِ على الجبـلِ:

"لَا تَكْنِـزُوا لَكُـمْ كُنُـوزًا عَلَـى الْأَرْضِ حَيْـثُ يُفْسِـدُ السُّـوسُ وَالصَّـدَأُ، وَحَيْـثُ يَنْقُـبُ السَّـارِقُونَ وَيَسْـرِقُونَ. بَـلِ اكْنِـزُوا لَكُـمْ كُنُـوزًا فِـي السَّـمَاءِ، حَيْـثُ لَا يُفْسِـدُ سُـوسٌ وَلَا صَـدَأٌ، وَحَيْـثُ لَا يَنْقُـبُ سَـارِقُونَ وَلَا يَسْـرِقُونَ، لِأَنَّـهُ حَيْـثُ يَكُـونُ كَنْـزُكَ هُنَـاكَ يَكُـونُ قَلْبُـكَ أَيْضًـا" (متى ٦: ١٩-٢١).

تأمَّـلْ مـعي ذلكَ الرجـلَ العـربيَّ الذي خزَّنَ أمـوالَهُ في أحـدِ البنوكِ السـويسريةِ. فلـو أتيـحَ لقـوةٍ أجنبيـةٍ أنْ تغـزوَ سـويسرا، واسـتولتْ على نظامِهـا المـصرفيِّ، فلـنْ يتمكـنَ هـذا الرجـلُ مـنَ النـومِ. إذْ إنَّ كـنزَهُ (المـكان الذي يضـعُ فيـهِ قلبَـه) سـيختفِي.

أنذرَنـا يسـوعُ مـن أنَّـه لا مـكانَ للأمـانِ الكامـلِ في هـذا النظـامِ العالـميِّ، بمـا في ذلـك جميـعِ بنوكِـهِ. لا تسـتثمرْ كلَّ مـا تملـكُ في مكانٍ ليـس آمنًـا حقًـا. هـذا أمـرٌ غيرُ حكيـمٍ وغـيرُ عمـليٍّ. اسـتثمرْ في شيءٍ

مضمونٍ وآمنٍ لا يمكنُ لدولةٍ أجنبيةٍ غريبةٍ الاستيلاءُ عليهِ. "البنكُ" الذي كانَ يسوعُ يشيرُ إليهِ لا يمكنُ اقتحامُهُ أو سرقةُ سبائِكِه الذهبيةِ. قرارُ الاستثمارِ في ملكوتِ اللهِ أمرٌ متروكٌ لنا، لكنْ من واجبِنَا أنْ نستثمرَ في السماءِ وفي مقاصدِ اللهِ.

الأولويَّةُ الصحيحةُ

فيما بعد، في متى ٦ اختتمَ يسوعُ بهذهِ الأقوالِ:

"فَلَا تَهْتَمُّوا قَائِلِينَ: مَاذَا نَأْكُلُ؟ أَوْ مَاذَا نَشْرَبُ؟ أَوْ مَاذَا نَلْبَسُ؟

فَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا تَطْلُبُهَا الْأُمَمُ. لِأَنَّ أَبَاكُمُ السَّمَاوِيَّ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى هَذِهِ كُلِّهَا. لَكِنِ اطْلُبُوا أَوَّلًا مَلَكُوتَ اللهِ وَبِرَّهُ، وَهَذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ. فَلَا تَهْتَمُّوا لِلْغَدِ، لِأَنَّ الْغَدَ يَهْتَمُّ بِمَا لِنَفْسِهِ. يَكْفِي الْيَوْمَ شَرُّهُ" (متى ٦: ٣١-٣٤).

حتى بدونِ أنْ أذكِّرَ اللهَ باحتياجاتِي، هو يعرفُها بالضبطِ. ولطالما كانَ إدراكُ هذهِ الحقيقةِ بركةً كبيرةً لي. وعند تلبيةِ مطالبِ اللهِ بأنْ أطلبَ ملكوتَهُ أولًا، سيعتني هو بباقي الاحتياجاتِ. إنَّ ملكوتَ اللهِ في الأساسِ يتعلَّقُ بالأولويَّةِ الصحيحةِ. فإذا وضعتُ ملكوتَ اللهِ وعملَ الملكوتِ في الأولويةِ الصحيحةِ، في المقابلِ، سيعتني اللهُ بي.

هل تتفقُ مع ما قاله يسوعُ: "الْغَدَ يَهْتَمُّ بِمَا لِنَفْسِهِ. يَكْفِي

الْيَـوْمَ شَرُّهُ." كان يسـوعُ واقعيًـا. إن جوهـرَ مـا قـالَه "لا تُفسـدِ اليـومَ حامـلًا قلـقَ مشـاكلِ الغـدِ". وعلى مـدارِ عقـودٍ مـن الخـبرةِ، أشـهدُ شـخصيًا أنَّ النهـجَ الذي أوصى بـهِ يسـوعُ يُعَـدُّ نهجًـا فعـالًا. لقـد سـعيتُ إلى ملكـوتِ اللهِ، واهتـمَّ اللهُ بي بـكلِّ أمانـةٍ وأعانَـني وأعانَ عائلـتي الكبـيرةَ جـدًا.

قياسًـا على زرعِ المحاصيـلِ بسـخاءٍ، وضـعَ بولـسُ أولويـةَ الاسـتثمارِ في ملكـوتِ اللهِ، فكتـبَ بخصـوصِ العطـاءِ وتقديـمِ المـالِ:

"هَـذَا وَإِنَّ مَـنْ يَـزْرَعُ بالشُّـحِّ فبالشُّـحِّ أَيْضًـا يَحْصُـدُ، وَمَـنْ يَـزْرَعُ بالْبَـرَكَاتِ فبالْبَـرَكَاتِ أَيْضًـا يَحْصُـدُ. كُلٌّ وَاحِـدٍ كَمَـا يَنْـوِي بِقَلْبِـهِ، لَيْـسَ عَـنْ حُـزْنٍ أَوِ اضْطِـرَارٍ. لِأَنَّ الْمُعْطِـيَ الْمَسْـرُورَ يُحِبُّـهُ اللهُ. وَاللهُ قَـادِرٌ أَنْ يَزِيدَكُـمْ كُلَّ نِعْمَـةٍ، لِكَـيْ تَكُونُـوا وَلَكُـمْ كُلُّ اكْتِفَـاءٍ كُلَّ حِيـنٍ فِـي كُلِّ شَـيْءٍ، تَـزْدَادُونَ فِـي كُلِّ عَمَـلٍ صَالِـحٍ" (٢كورنثـوس ٩: ٦-٨).

في ملكـوتِ اللهِ هنـاك ضمـانٌ مـاليٌّ كامـلٌ "فِي **كُلِّ** شَيْءٍ"، "**كُلَّ** حِينٍ"، "لَكُـمْ **كُلُّ** اكْتِفَـاءٍ"، "تَـزْدَادُونَ فِي **كُلِّ** عَمَـلٍ صَالِـحٍ" إذا زرَعْنـا في ملكـوتِ اللهِ، فعندئـذٍ سـنحصدُ مـنْ ملكـوتِ اللهِ القـدرَ الذي يتناسـبُ مـا زرَعْنَاه.

ملكوتُ اللهِ الذي لا يتزَعزَعُ

أودُّ أنْ أشـيرَ إلى التبايـنِ مـا بـينَ ملكـوتِ الله الذي نحـنُ مدعـوُّونَ للاسـتثمارِ فيـهِ، وممالـكِ هـذا العالـمِ. والمقطـعُ الكتـابيُّ

التـالي يسـلِّطُ الضـوءَ على هـذا التبايـنِ:

"الَّذِي صَوْتُهُ زَعْزَعَ الْأَرْضَ حِينَئِذٍ [الوقت الذي تكلم فيه الله مع موسى على جبل سيناء]، وَأَمَّا الْآنَ فَقَدْ وَعَدَ قَائِلًا: «إِنِّي مَرَّةً أَيْضًا أُزَلْزِلُ لَا الْأَرْضَ فَقَطْ، بَلِ السَّمَاءَ أَيْضًا» فَقَوْلُهُ: «مَرَّةً أَيْضًا»، يَدُلُّ عَلَى تَغْيِيرِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَزَعْزَعَةِ كَمَصْنُوعَةٍ [ممالك الأرض]، لِكَيْ تَبْقَى الَّتِي لَا تَتَزَعْزَعُ. لِذَلِكَ وَنَحْنُ قَابِلُونَ مَلَكُوتًا لَا يَتَزَعْزَعُ لِيَكُنْ عِنْدَنَا شُكْرٌ بِهِ نَخْدِمُ اللهَ خِدْمَةً مَرْضِيَّةً، بِخُشُوعٍ وَتَقْوَى" (العبرانيين ١٢: ٢٦-٢٨).

هـذا المقطـعُ يقـدمُ لنـا خيارَيْـن؛ فإمَّـا أنْ نسـتثمرَ في ممالـكِ هـذا العالـمِ وأنظمتِـهِ ومؤسَّسـاتِه الـتي أخبرَنـا اللهُ أنَّ جميعَهَـا سـتتزعزعُ، أو أنْ نعتمـدَ على ملكـوتِ اللهِ الذي لا يتزعـزعُ. في السـنواتِ الأخـيرةِ، رأينـا مؤسسـاتٍ عديـدةً اهـتزتْ أوضاعُهـا وتزعزعـتْ.

والعديـدُ مـنَ المنشـآتِ الـتي كانَ يُنظَـرُ إليهـا كمنشـآتٍ آمنـةٍ يمكـنُ الاعتمـادُ عليهـا تبـيَّنَ افتقارُهـا للأمـانِ.

وهـا نحـنُ نذكِّـرُ مـرةً أخـرى بحقيقـةٍ عُظـمَى، وهي أن لدينـا خيـارًا آخـر بديـلًا لـكلِّ مـا يتزعـزعُ. فبـدلًا مـنَ الاسـتثمارِ في ممالـكِ هـذا العالـمِ يمكِنُنـا أنْ نسـتثمرَ في ملكـوتِ اللهِ. فمـا الامتيـازُ في الاسـتثمارِ في ملكـوتِ اللهِ؟ لأنَّ كلَّ مـا يُسـتَثمَرُ في ممالـكِ العالـمِ سـيكونُ في النهايـةِ غـيرَ آمـنٍ.

صَـوَّرَ لنـا إشـعياءُ صـورةً حيـةً لمـا سـيحدثُ في الأرضِ عندمـا يزعـزعُ اللهُ كلَّ ممالـكِ هـذا العالـمِ:

"فِـي ذَلِـكَ الْيَـوْمِ يَطْـرَحُ الْإِنْسَـانُ أَوْثَانَـهُ الْفِضِّيَّـةَ وَأَوْثَانَـهُ الذَّهَبِيَّـةَ، الَّتِـي عَمِلُوهَـا لَـهُ لِلسُّـجُودِ، لِلْجُـرْذَانِ وَالْخَفَافِيـشِ، لِيَدْخُـلَ فِـي نُقَـرِ الصُّخُـورِ وَفِـي شُـقُوقِ الْمَعَاقِـلِ، مِـنْ أَمَـامِ هَيْبَـةِ الـرَّبِّ وَمِـنْ بَهَـاءِ عَظَمَتِـهِ عِنْـدَ قِيَامِـهِ لِيَرْعَـبَ الْأَرْضَ" (إشـعياء ٢: ٢٠-٢١).

في تلـك السـاعةِ، عندمـا يتزلـزلُ كلُّ شيءٍ قابـلٍ لأنْ يتزعـزعَ سـيدركُ النـاسُ أنهـم قـدِ اسـتثمروا في المـكانِ الخطـأ. وسـيأخذونَ كلَّ مـا لديْهـم مـنْ ذهـبٍ وفضـةٍ اتَّكلـوا عليهـا لتوفِّـرَ لهـم الأمـانَ ليتخلَّصـوا منهـا بـكلِّ ازدراءٍ واشـمئزازٍ فيرمونهـا للقـوارضِ والخفافيـش، إذْ لـنْ يكـونَ لهـا أيُّ قـدرةٍ على إنقاذِهِـم.

لذلـك، إنْ نسـلُك وراءَ الحكمـةِ فنحـنُ نسـتثمرُ في ملكـوتِ اللهِ، لا في أشـياءَ متزعزعـةٍ. وعندمـا نفعـلُ مـا يـوصي بـهِ اللهُ، يقـرِّرُ بـدورِهِ أنْ يتحمَّـلَ مسـؤوليَّتَنا؛ إذْ إنَّـهُ الضامـنُ لاسـتثماراتِنا في الملكـوتِ بأنها لـنْ تَفـنَى أبـدًا. ولـن يحصـلَ أبـدًا أنْ ينهـارَ النظـامُ الذي نسـتثمرُ فيـه مسـبِّبًا خسـارتَنا للأصـولِ الـتي لنـا. إنَّ اسـتثماراتِنا مضمونـةٌ.

هـل ترغـبُ في بعـضِ الوقـتِ الآنَ لتكـرِّسَ أموالَـكَ واضعًـا إياها في اسـتثمارٍ لا يتزعـزعُ؟ إذا لـم تسـلِّمْ أبـدًا أموالَـكَ واسـتثماراتِكَ

بالكامـلِ بـينَ يـديِ الربِّ، فـالآنَ وقـتٌ مناسـبٌ لأنْ تفعلَ ذلـكَ الأمرَ.

إذا كانـتْ هـذهِ أشـواقَ قلبِـكَ، فمـا عليـك سـوى أنْ تخـبرَ الـربَّ بهـذا الإعـلانِ الموجـزِ:

«ربّـي وإلهـي، إنـي أسـلّمُ لـكَ بالكامـلِ كلّ مـا أملـكُ مـنْ ممتلـكاتٍ ومـواردَ واسـتثماراتٍ. وأنقـلُ جميـعَ الأصـولِ التـي لـي لخدمـةِ ملكـوتِ اللـهِ الـذي لا يتزعـزعُ؛ فجميعُهـا الآنَ ملـكٌ لـك أيّهـا الـربّ يسـوعُ. آميـنْ.»

الفصل الثاني والعشرون

التأمين الاجتماعيُّ الإلهيُّ

الآنَ بعدَ أنْ أتممتَ تلكَ المقايضةَ المهمةَ للغايةِ بأنْ تنقلَ ملكيةَ مواردِكَ للهِ وتسلِّمَها بينَ يديهِ، لنتناولْ جانبًا آخرَ من جوانبِ الأمانِ، وهو الأمانُ الماليُّ والماديُّ، الذي أسمِّيه "التأمين الاجتماعيّ الإلهيّ". كما كتبتُ في مقدمةِ هذا الكتابِ، أصبحَ برنامجُ التامين الاجتماعيِّ الذي تقدِّمُهُ الحكومةُ لمواطنِيها سمةً مقبولةً لمعظمِ الأنظمةِ الاجتماعيةِ في العالمِ الغربيِّ. في الواقعِ، يتحدثُ الناسُ اليومَ عن مفهومِ تطبيقِ التامين الاجتماعيِّ منَ "المهدِ إلى اللحدِ". المفهومُ الأساسيُّ لهذا الضمانِ مبنيٌّ على أنْ تدفعَ الضرائبَ إلى حكومتِك، في الغالبِ تكونُ نسبتُها كبيرةً لما حقَّقْتَهُ من أرباحٍ، ثمَّ بدورِها تتحملُ الحكومةُ مسؤوليَّتَكَ في وقتِ احتياجِكَ. فربما تمرضُ، أو تفقدُ وظيفتَكَ، أو تأتي إلى وضعٍ معيَّنٍ في الحياة لا يمكِنُكَ فيهِ أنْ تشتغلَ. عندَ هذهِ المراحلِ، تعتني الحكومةُ بكَ. ذلك ما يُسمَّى بـ"التأمين الاجتماعيِّ".

لسوءِ الحظِّ، كما نعرفُ، تناقصتْ قيمةُ أنظمةِ التأمين الاجتماعيِّ بصورةٍ مطردةٍ بسببِ التضخُّمِ وعواملَ أخرى.

وبالفعلِ، يوجدُ مواطنونَ منْ كبارِ السنِّ الذينَ وَضَعُوا استثماراتِهم في حكومتِهم، ولكنهمْ لمْ يحصلوا على عائدٍ كافٍ على استثماراتِهم، لم يكفِ لإعالتِهم بكلِّ أريحيَّةٍ وكرامةٍ في وقتِ شيخوختِهم. هذا مجردُ مثالٍ واحدٍ على عدمِ الأمانِ للاستثمارِ في نظامٍ بشريٍّ. أنا لستُ ضدَّ أنظمةِ التأمين الاجتماعيِّ، لكنني أشيرُ بكلِّ وضوحٍ لمحدوديةِ الأمانِ الذي توفِّرُه هذه الأنظمةُ.

أساسٌ مختلفٌ للأمانِ

لنواجهْ حقيقةَ الأمرِ، إنَّ الاحتياجاتِ الماليةَ والماديةَ أمرٌ واقعيٌّ وحقيقيٌّ. لكن اللهَ يقدمُ لنا هذا النوعَ منَ الأمانِ على أساسٍ مختلفٍ. هذا الأساسُ واضحٌ وبسيطٌ للغايةِ، فهو حقيقةٌ روحيةٌ مؤسَّسةٌ على الإيمانِ، الإيمانِ العاملِ بالمحبةِ (انظر غلاطية ٥: ٦). ذلكَ هو الأساسُ الصحيحُ والحقيقيُّ للأمانِ من جهةِ الأمورِ الماليةِ والماديةِ. هذا الأمانُ يأتي بالإيمانِ باللهِ وبكلمتِهِ التي تعكسُ أعمالَ المحبةِ تجاهَ اللهِ وتجاهَ أولئك الذينَ يضَعُهُم اللهُ في طريقِنَا لمساعدتِنَا.

يصوِّرُ لنا مزمورُ ١١٢ صورةَ الإنسانِ البارِّ منْ منظورِ اللهِ ومقاييسِهِ. لقد اخترتُ بعضَ الآياتِ من هذا المزمورِ لتسليطِ الضوءِ عليهَا، وأريدُ أنْ أشيرَ إلى أنَّ التركيزَ هنا ينصبُّ حقًّا على

فعلِ الخيرِ للفقراءِ ومساعدةِ المحتاجينَ. وهذا جزءٌ أساسيٌّ منْ صورةِ البرِّ الكتابيةِ التي بكلِّ أسفٍ، سقطتْ حسبَ اعتقادي منْ تفكيرِ العديدِ منَ المسيحيينَ والكنائسِ المعاصرةِ، لكنها لم تسقطْ أبدًا من الكتابِ المقدسِ.

"هَلِّلُويَا. طُوبَى لِلرَّجُلِ الْمُتَّقِي الرَّبَّ، الْمَسْرُورِ جِدًّا بِوَصَايَاهُ. نَسْلُهُ يَكُونُ قَوِيًّا فِي الأَرْضِ. جِيلُ الْمُسْتَقِيمِينَ يُبَارَكُ. رَغْدٌ وَغِنًى فِي بَيْتِهِ، وَبِرُّهُ قَائِمٌ إِلَى الأَبَدِ" (مزمور ١١٢: ١-٣).

"سَعِيدٌ هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي يَتَرَأَّفُ وَيُقْرِضُ. يُدَبِّرُ أُمُورَهُ بِالْحَقِّ.لأَنَّهُ لاَ يَتَزَعْزَعُ إِلَى الدَّهْرِ" (مزمور ١١٢: ٥-٦).

"قَلْبُهُ مُمَكَّنٌ فَلاَ يَخَافُ حَتَّى يَرَى بِمُضَايِقِيهِ. فَرَّقَ أَعْطَى الْمَسَاكِينَ. بِرُّهُ قَائِمٌ إِلَى الأَبَدِ" (مزمور ١١٢: ٨-٩).

لاحظِ العلاقةَ المباشرةَ ما بينَ البرِّ وإعطاءِ الفقيرِ. ولأنَّ هذا الرجلَ "فَرَّقَ أَعْطَى الْمَسَاكِينَ"، فبرُّهُ يبقى إلى الأبدِ. وسيتحملُ اللهُ المسؤوليةَ الكاملةَ لخيرِ ذلكَ الرجلِ. وينصبُّ التركيزُ على الكرمِ والإقراضِ والعطاءِ. يَعِدُ اللهُ بأنَّ الشخصَ الذي يمارسُ هذا النوعَ من الكرمِ والعطاءِ لنْ يتزعزعَ وسيكونُ قلبُه ثابتًا وممكَّنًا، ولن يعتَرِيَهُ الخوفُ. ذلك هو الأمانُ الكاملُ.

"أقرضِ" الربَّ

أكدتْ جميعُ الأسفارِ المقدسةِ على مبدأِ إقراضِ الربِّ كمبدأ أساسيٍّ مهمٍّ. تأملْ هذهِ الآيةَ من سفرِ الأمثالِ:

"مَنْ يَرْحَمُ الْفَقِيرَ يُقْرِضُ الرَّبَّ، وَعَنْ مَعْرُوفِهِ يُجَازِيهِ" (أمثال ١٩: ١٧).

هذه الحقيقة مهمة جدًّا. إذا ما أعطينا الفقيرَ بدوافعَ نقيةٍ وبإيمانٍ عاملٍ بالمحبةِ، فربما بالفعلِ نعطي الفقيرَ، لكننا في حقيقةِ الأمرِ نقرضُ الربَّ. منَ الواضح أنَّ الكتابَ المقدسَ يؤكدُ على تعويضِ الربِّ لنا عما سبقَ وأقرَضْنَاه. وأنا أشهدُ حقًّا بناءً على تجاربي وملاحظتِي الشخصيةِ، أنَّ الربَّ يعوضُ بمعدلاتِ فائدةٍ عاليةٍ جدًّا على ما نقرِضُهُ عندما نعطي للفقراءِ. لذلك، ضعْ هذا الأمرَ دائمًا في اعتبارِكَ: مساعدةُ الفقراءِ هي إقراضٌ للربِّ.

اِرْمِ خُبْزَكَ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ

يقدِّمُ لنا سفرُ الجامعةِ هذهِ النصيحةَ:

"اِرْمِ خُبْزَكَ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ فَإِنَّكَ تَجِدُهُ بَعْدَ أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ. أَعْطِ نَصِيبًا لِسَبْعَةٍ، وَلِثَمَانِيَةٍ أَيْضًا، لِأَنَّكَ لَسْتَ تَعْلَمُ أَيَّ شَرٍّ يَكُونُ عَلَى الْأَرْضِ" (الجامعة ١١: ١-٢).

"اِرْمِ خُبْزَكَ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ" يرسمُ لنا الكتابُ المقدسُ هذا الطريقَ لكي يؤهِّلَنا للاستعدادِ لأيِّ كارثةٍ مُحتَمَلَةٍ في المستقبلِ.

ليستْ هذه هي الطريقةَ التي قد يفكرُ بها معظمُ الناسِ في هذا العالمِ من جهةِ الاستعدادِ للشدائدِ، لكنها طريقةٌ ناجحةٌ ومثمرةٌ. وإني شاهدٌ على صحةِ هذا المبدأ ونجاحِهِ في حياتي مرارًا وتكرارًا. لقد عملتُ عملًا من أعمالِ الرحمةِ أو ساعدتُ شخصًا ما، ثمَّ نسيتُ كلَّ شيءٍ عنهُ. ثم بعد عشرةٍ أو عشرينَ عامًا، سمحَ اللهُ لهذا الخبزِ أنْ يطفوَ على الماءِ ويعودَ إليَّ، وقد عادَ بالنفعِ عليَّ نتيجةً لما أعطيتُهُ من قبل للآخرينَ.

يقولُ الجامعةُ ١١: ٢: "أَعْطِ نَصِيبًا لِسَبْعَةٍ، وَلِثَمَانِيَةٍ أَيْضًا، لِأَنَّكَ لَسْتَ تَعْلَمُ أَيَّ شَرٍّ يَكُونُ عَلَى الْأَرْضِ." يشيرُ رقمُ سبعة إلى إتمامِ جميعِ واجباتِكَ لكنَّ رقمَ ثمانية يدلُّ على ذهابِكَ لأبعدِ من حدودِ واجبِكَ. بمعنى آخرَ، إعطاءُ الفقراءِ والمحتاجينَ -إنْ جازَ لنا التعبيرُ- هو دفعُ ضريبةِ التأمين الاجتماعيِّ الإلهيِّ.

عندما تُشارِكُ اللهَ في دفعِ قيمةِ التأمين الاجتماعيِّ الإلهيِّ، فإنَّ هذا المبلغَ لا يخضعُ للإهلاكِ الناجمِ عنِ التضخمِ كباقي الأصولِ المحاسبيَّةِ؛ لأنهُ لا يوجدُ تضخُّمٌ في ملكوتِ السماواتِ. علاوةً على ذلكَ، ستستعيدُ ما تحتاجُ إليهِ وقتَ الاحتياجِ، فإذا مرضتَ أو أصبحتَ غيرَ قادرٍ على العملِ بسببِ الضعفِ الجسديِّ، أو إذا ظهرتْ أيُّ حالةٍ أخرى من الاحتياجِ، يمكِنُكَ رفعُ قلبِكَ إلى السماءِ والصلاةِ: "يا ربُّ لقد أعطيتُ الفقراءَ، إني

أرمي بخبزي على وجهِ المياهِ. أنا الآنَ في احتياجٍ، ولا يَسعُني إلَّا أنْ أذكِّرَكَ بوعودِ كلمتِكَ الحيةِ." هذا هو التأمين الاجتماعيُّ الإلهيُّ.

مَثَلٌ محيِّرٌ ذو حقيقةٍ عميقةٍ

عندما نستثمرُ بالطريقةِ التي يرشدُنا إليها اللهُ بإعطاءِ الفقيرِ ومساعدةِ الآخرينَ تمتدُّ ثمارُ التأمين الاجتماعيِّ الإلهيِّ منْ حيِّزِ الزمانِ الحاضرِ إلى حيِّزِ الأبديَّةِ. تتَّضِحُ هذه الحقيقةُ من خلالِ مَثَلٍ غريبٍ بعضَ الشيءِ قالَهُ يسوعُ لتلاميذِهِ عنْ قائدٍ مسؤولٍ خدعَ سيدَهُ من أجلِ الحفاظِ على مستقبلٍ آمنٍ.

"وَقَالَ أَيْضًا لِتَلاَمِيذِهِ: كَانَ إِنْسَانٌ غَنِيٌّ لَهُ وَكِيلٌ، فَوُشِيَ بِهِ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ يُبَذِّرُ أَمْوَالَهُ. فَدَعَاهُ وَقَالَ لَهُ: مَا هذَا الَّذِي أَسْمَعُ عَنْكَ؟ أَعْطِ حِسَابَ وَكَالَتِكَ لأَنَّكَ لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَكُونَ وَكِيلًا بَعْدُ. فَقَالَ الْوَكِيلُ فِي نَفْسِهِ: مَاذَا أَفْعَلُ؟ لأَنَّ سَيِّدِي يَأْخُذُ مِنِّي الْوَكَالَةَ. لَسْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْقُبَ، وَأَسْتَحِي أَنْ أَسْتَعْطِيَ. قَدْ عَلِمْتُ مَاذَا أَفْعَلُ، حَتَّى إِذَا عُزِلْتُ عَنِ الْوَكَالَةِ يَقْبَلُونِي فِي بُيُوتِهِمْ. فَدَعَا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ مَدْيُونِي سَيِّدِهِ، وَقَالَ لِلأَوَّلِ: كَمْ عَلَيْكَ لِسَيِّدِي؟ فَقَالَ: مِئَةُ بَثِّ زَيْتٍ. فَقَالَ لَهُ: خُذْ صَكَّكَ وَاجْلِسْ عَاجِلًا وَاكْتُبْ خَمْسِينَ. ثُمَّ قَالَ لآخَرَ: وَأَنْتَ كَمْ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: مِئَةُ كُرِّ قَمْحٍ. فَقَالَ لَهُ: خُذْ صَكَّكَ وَاكْتُبْ ثَمَانِينَ. فَمَدَحَ السَّيِّدُ وَكِيلَ الظُّلْمِ إِذْ بِحِكْمَةٍ فَعَلَ، لأَنَّ أَبْنَاءَ هذَا الدَّهْرِ أَحْكَمُ مِنْ أَبْنَاءِ النُّورِ فِي جِيلِهِمْ" (لوقا ١٦: ١-٨).

أليست تلك قصةً غريبةً؟ لقد وزَّعَ المديرُ القائمُ على العملِ نقودًا لم تكنْ من مالِهِ الخاصِّ. فلماذا فعلَ هذا؟ فعلَ هذَا ليضمنَ قبولًا لدى الأشخاصِ الذينَ سيرحِّبونَ بهِ عندما يفقدُ وظيفتَهُ. ولم يدِنْ يسوعُ هذا المديرَ لعدمِ أمانتِهِ. على النقيضِ، أشادَ يسوعُ بحنكتِهِ في إدارةِ هذه المعضلةِ وأخبرَ تلاميذَهُ عن حاجتِهِم لأنْ يتعلَّمُوا العبرةَ من وراءِ هذا المَثَلِ.

ما هي العبرةُ إذنْ منَ المَثَلِ؟ أنْ نمنحَ المالَ الذي يُكسِّبُنا المزيدَ منَ الأصدقاءِ (انظر لوقا ١٦: ٩). قالَ يسوعُ إنَّنا إن فعلْنا كذلكَ، فعندما لا نقدرُ على رعايةِ أنفسِنَا، سيرحبُ بنا الأصدقاءُ الذينَ اكتسَبْنَا صداقتَهُم بأموالِنا في منازلَ أبديةٍ. إنها حقيقةٌ رائعةٌ إذا استَطعْنَا استيعابَها. أولًا، إذا كنتَ ابنًا للهِ فأموالُكَ في الحقيقةِ ليستْ ملكًا لكَ. أنتَ مجردُ وكيلٍ لإدارةِ أموالِ اللهِ التي بينَ يديكَ. لقد أعلنَ يسوعُ أنهُ لائقٌ في ملكوتِ اللهِ أنْ نمنحَ أموالَ اللهِ للناسِ منْ خلالِ الاستثمارِ في ملكوتِهِ. ثم عندما تصلُ لنهايةِ حياتِكَ، فإنَّ الذينَ استثمرتَ فيهم، المرسلينَ الذينَ دعمتَهُم، والأرواحَ التي نالتِ الخلاصَ بسببِ ما قدمْتَهُ من قضايا مسيحيَّةٍ إيمانيَّةٍ متعدِّدةٍ... إلى غير ذلِك، كلُّهم سيكونونَ في انتظارِكَ في الأبديةِ. سيقولونَ أشياءَ مثلَ هذهِ: "شكرًا لكَ من أجلِ المبلغِ الذي أرسلتَهُ لذلك المُرسَلِ. فبسببِ هذا المبلغِ الذي منحتَهُ إيَّاهُ، نلتُ الخلاصَ ولديَّ منزلٌ أبديٌّ في السماءِ وإني أدعوكَ لمنزلِي".

رغـم غرابـةِ المثـالِ الذي قـالَهُ يسـوعُ فإنَّـهُ يحمـلُ معـنًى عميقًـا. عندمـا أعـودُ بذاكـرتِي للمـاضي أشـعرُ بارتيـاحٍ شـديدٍ تجـاهَ مـا اسـتَثْمَرتُهُ مـنْ مـالٍ بنعمـةِ اللهِ على مدارِ سـنواتٍ في مُختَلَـفِ الخدماتِ الـتي ربحـتْ نفوسًـا كثـيرةً لملكـوتِ اللهِ. وفي يـومٍ مـا، عندمـا تقـتربُ نهايـةُ أيَّـامي، وأنتقـلُ مـنَ الزمـانِ الحـاضرِ إلى الأبديَّـةِ، فهـؤلاءِ مَـنْ منحتُهُـم أمـوالَ الله سـيرحِّبونَ بي في منـازلَ أبديَّـةٍ.

هـذه الحقيقـةُ ليسـتْ إلا جانبًـا إضافيًّـا آخـرَ لمـا نطلـقُ عليـهِ "التأمـين الاجتمـاعيّ الإلـهيّ". في الفصـلِ التـالي، سـنتأملُ جانبًـا آخـرَ مـن جوانـبِ الأمـانِ الذي يتحقَّـقُ نتيجـةَ فعـلِ مشـيئةِ اللهِ.

الفصل الثالث والعشرون

الأمانُ بعملِ مشيئةِ اللهِ

دعونا الآنَ نركزُ على نوعٍ خاصٍّ جدًّا منَ الأمانِ يغطّي كلَّ نواحي حياتِنا. وهو الأمانُ الذي يتحقَّقُ نتيجةَ فعلِ مشيئةِ اللهِ. ونقرأُ عنْ هذا النوعِ منَ الأمانِ في نهايةِ المقطعِ الكتابيِّ التالي:

"لأَنَّ كُلَّ مَا فِي الْعَالَمِ: شَهْوَةَ الْجَسَدِ، وَشَهْوَةَ الْعُيُونِ، وَتَعَظُّمَ الْمَعِيشَةِ، لَيْسَ مِنَ الآبِ، بَلْ مِنَ الْعَالَمِ. وَالْعَالَمُ يَمْضِي وَشَهْوَتُهُ، وَأَمَّا الَّذِي يَصْنَعُ مَشِيئَةَ اللهِ فَيَثْبُتُ إِلَى الأَبَدِ" (١يوحنا ٢: ١٦-١٧).

الاتِّحادُ بمشيئةِ اللهِ

على مدارِ دراستِنَا لموضوعِ الأمانِ، يذكِّرُنا الكتابُ المقدسُ باستمرارٍ بأنَّ هناكَ عالمَيْنِ مختلفَيْنِ للحياةِ. يضعُ الكتابُ المقدسُ العالمَ الزمنيَّ (عالمَ الأمورِ الأرضيةِ المؤقتةِ والزائلةِ وغيرِ الآمنةِ) في مقارنةٍ مع العالمِ الأبديِّ (عالمِ اللهِ وملكوتِهِ الثابتِ والمستمرِّ الذي لا نهايةَ لهُ). ونرى ذلكَ التباينَ بوضوحٍ شديدٍ في المقطعِ الكتابيِّ السابقِ.

سجَّلَ لنا يوحنَّا في معرضِ حديثِهِ عنْ "كُلَّ مَا فِي الْعَالَمِ"

ثلاثـةَ دوافـعَ مختلفـةٍ تدفـعُ النـاسَ وتتحكـمُ في سـلوكِهِم وهيَ: "شَـهْوَةَ الْجَسَـدِ، وَشَـهْوَةَ الْعُيُـونِ، وَتَعَظُّـمَ الْمَعِيشَـةِ." ثـم كتـبَ يوحنـا أنَّ كلَّ دافـعٍ مـن هـذهِ الدوافـعِ "لَيْـسَ مِـنَ الآبِ، بَـلْ مِـنَ الْعَالَـمِ." ثـم أضـافَ فأعلـنَ: "وَالْعَالَـمُ يَمْـضِي وَشَـهْوَتُهُ" إنَّ العالـمَ مؤقَّـتٌ ولـن يسـتمرَّ أو يبـقَى. وبالتـالي، لا يقـدِّمُ الأمـانَ الدائـمَ والكامـلَ، وليـسَ في اسـتطاعتِهِ أنْ يفعـلَ ذلـكَ.

على النقيـضِ مـنْ عـدمِ ثبـاتِ هـذا العالـمِ، يوجـدُ نـوعٌ آخـرُ مـنَ الأمـانِ عـبَّرَ عنـهُ يوحنـا بهـذهِ الطريقـةِ: "الَّـذِي يَصْنَـعُ مَشِـيئَةَ اللهِ فَيَثْبُـتُ إِلَى الأَبَـدِ." يـا لهـا مـن عبـارةٍ رائعـةٍ. إذا فعلـتَ مشـيئةَ اللهِ تثبت إلى الأبـدِ (تحيـا إلى الأبـدِ). ذلـكَ الأمـرُ يَعـني أنـكَ لـنْ تسـقُطَ أبـدًا في نهايـةِ الأمـرِ، ولـن يُسـلَبَ منـكَ أمانُـكَ أبـدًا ولا شيءَ يمكنُـهُ أنْ يغلبَـكَ أو يعوقَـكَ.

عندمـا تضـعُ قلبَـكَ وفكـرَكَ وإرادتَـكَ لعمـلِ مشـيئةِ اللهِ، فإنَّـكَ تتَّحِـدُ مـعَ مشـيئتِهِ. وفي نهايـةِ المطـافِ، سـتعلو مشـيئةُ اللهِ فـوقَ كلِّ قـوى في الكـونِ. فـإذا كنـتَ متَّحِـدًا بمشـيئةِ اللهِ بقـرارٍ شـخصيٍّ وتكريـسٍ حقيـقيٍّ، فسـتغلبُ أيضًـا من خـلالِ تحقيـقِ تلكَ المشـيئةِ.

يسوعُ يُرينا الطريقَ

إنَّ يسـوعَ مـنْ جهـةِ دوافعِـهِ لعمـلِ مشـيئةِ اللهِ هو النمـوذجُ الذي

نحتـذي بـهِ. لقـد قـالَ: "لأَنِّي قَـدْ نَزَلْـتُ مِـنَ السَّمَاءِ، لَيْسَ لأَعْمَـلَ مَشِـيئَتِي، بَـلْ مَشِـيئَةَ الَّـذِي أَرْسَـلَنِي" (يوحنـا ٦: ٣٨). كان الدافـعُ الكامـلُ الذي يحـرِّكُ يسـوعَ هـو عمـلُ إرادةِ اللهِ الآبِ. وفي أثنـاءِ خدمـةِ يسـوعَ كانـتْ هناكَ حادثـةٌ مثـيرةٌ للاهتمـامِ تبـيِّنُ مـدى نجـاحِ يسـوعَ في تتميمِ هـذا الأمرِ في حياتِـهِ. في يوحنَّـا ٤، كانَ يسـوعُ يأخـذُ قسـطًا مـن الراحـةِ متكئًـا على بـئرٍ يعقـوبَ في السـامرةِ. وقـد ذهـبَ تلاميـذُهُ إلى أقـربِ قريـةٍ ليبتاعـوا طعامًـا، إذْ إنَّهـم مـنَ الواضـحِ كانـوا في حاجـةٍ إليـهِ لرحلتِهِـم الطويلـةِ. أثنـاءِ مغادرتِهـم جـاءتِ امـرأةٌ سـامريةٌ. ولتلخيـصِ مـا حـدثَ: تكلـمَ يسـوعُ إليهـا عـن مـاءِ الحيـاةِ الأبديـةِ، فآمنـتْ بـهِ.

ثـم عادَ التلاميـذُ بعـدَ ذلـكَ بوقـتٍ قصـيرٍ ومعهـم الطعـامُ الذي اشـتَرَوْه. وهـذا مـا حـدثَ بعـدَ ذلـكَ:

"وَفِي أَثْنَـاءِ ذلِـكَ سَـأَلَهُ تَلاَمِيـذُهُ قَائِلِيـنَ: «يَـا مُعَلِّـمُ، كُلْ» فَقَـالَ لَهُـمْ: «أَنَـا لِـي طَعَـامٌ لآكُلُ لَسْـتُمْ تَعْرِفُونَـهُ أَنْتُـمْ». فَقَـالَ التَّلاَمِيـذُ بَعْضُهُـمْ لِبَعْـضٍ: «أَلَعَلَّ أَحَـدًا أَتَـاهُ بِشَـيْءٍ لِيَـأْكُلَ؟» قَـالَ لَهُـمْ يَسُـوعُ: «طَعَامِـي أَنْ أَعْمَـلَ مَشِـيئَةَ الَّـذِي أَرْسَـلَنِي وَأُتَمِّـمَ عَمَلَـهُ»" (يوحنـا ٤: ٣١ -٣٤).

كان التلاميـذُ يتعجَّبـونَ، إذْ كانـوا يعلمـونَ بـأنَّ يسـوعَ كانَ جائعًا وفي احتيـاجٍ للطعـامِ عنـدَ ذهابِهِـم ليبتاعـوا طعامًـا مـنَ القريـةِ المجـاورةِ. لكـن بعـدَ أنْ رجعـوا ومعهُـم الطعـامُ، لـم يكـنْ يسـوعُ في حاجـةٍ إليـهِ. فمِـنْ أيـنَ حصـلَ على طعـامٍ؟ أعطاهـم يسـوعُ هـذه

الإجابـةَ الرائعـةَ: "طَعَامِي أَنْ أَعْمَـلَ مَشِيئَةَ الَّـذِي أَرْسَـلَنِي وَأُتَمِّـمَ عَمَلَـهُ".

مـاذا يعـني لنـا الطعـامُ الجسـديُّ؟ إنـهُ مصـدرُ قوتِنـا الجسـديةِ وإمدادِنـا بالطاقـةِ. بينمـا قـالَ يسـوعُ، في الواقـعِ: "لديَّ مصـدرٌ آخـرُ لغذائِكُـم ليـسَ مجـرَّدَ طعـامٍ طبيـعيٍّ. هـذا الطعـامُ هـو فعـلُ مشـيئةِ اللهِ أبي. وعندمـا أفعـلُ مشـيئتَهُ يمـدُّني ذلـكَ بـكلِّ القـوةِ والحيويـةِ." هـل يمكِنُـكَ إدراكُ هـذا، كانَ يسـوعُ ينعـمُ بـكلِّ تأكيـدٍ بالأمـانِ الكامـلِ بتحقيقِـهِ مشـيئةَ اللهِ.

في مشيئةِ اللهِ يصعُبُ مقاومتُكَ

في مواضـعَ متعـددةٍ مـنَ الأناجيـلِ نقـرأُ عـنْ محـاولاتِ أعـداءِ يسـوعَ لقتلِـهِ (قبـلَ القبـضِ عليـهِ في نهايـةِ المطـافِ وتنفيـذِ حكـمِ المـوتِ على الصليـبِ). لكنهـم لـم يقـدِرُوا على فعـلِ ذلـكَ لأنَّـهُ لـم تكـنْ مشـيئةُ اللهِ لهُ أنْ يمـوتَ بهـذهِ الطريقـةِ أو في ذلـكَ التوقيـتِ. على سـبيلِ المثـالِ نقـرأُ في إنجيـلِ يوحنَّـا، "فَطَلَبُـوا [أعدائه] أَنْ يُمْسِـكُوهُ، وَلَـمْ يُلْـقِ أَحَـدٌ يَـدًا عَلَيْـهِ، لأَنَّ سَـاعَتَهُ لَـمْ تَكُـنْ قَـدْ جَـاءَتْ بَعْـدُ" (يوحنا ٧: ٣٠).

لـم يكـنْ يسـوعُ محميًـا بقـوَّاتِ حـرسٍ خاصـةٍ مسـلَّحةٍ. وبنظرةٍ طبيعيـةٍ للموقـفِ، نجـدُ أنَّ يسـوعَ كانَ واحـدًا مـن المجتمعـاتِ المُسـتَضعَفةِ لكـنْ لـم يقـدِرْ أحـدٌ أنْ يلمَسَـهُ لأنَّ سـاعتَهُ لـم تكـنْ قـد جـاءَتْ بعـدُ. ومـن خـلالِ تكريـسِ يسـوعَ لعمـلِ مشـيئةِ

اللهِ، وحتى تتحققَ إرادةُ اللهِ في حياتِهِ لم يكنْ ليقدِرَ أحدٌ على مقاومتِهِ. فكيفَ يحدثُ هذا؟ بمعنى أنَّ خصومَهُ لم يتمكَّنوا منْ مقاومتِهِ بينما كانَ يواصلُ تقدُّمَهُ في تحقيقِ خطةِ اللهِ.

يسجِّلُ إنجيلُ لوقا الحادثةَ التاليةَ التي حدَثَتْ في مدينةِ الناصرةِ، مسقطِ رأسِ يسوعَ، بعدما تحدَّثَ إلى الناسِ في المجمعِ وأغضَبَهُم ما قالَهُ.

"فَامْتَلأَ غَضَبًا جَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْمَجْمَعِ حِينَ سَمِعُوا هذَا، فَقَامُوا وَأَخْرَجُوهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ، وَجَاءُوا بِهِ إِلَى حَافَّةِ الْجَبَلِ الَّذِي كَانَتْ مَدِينَتُهُمْ مَبْنِيَّةً عَلَيْهِ حَتَّى يَطْرَحُوهُ إِلَى أَسْفَلٍ. أَمَّا هُوَ فَجَازَ فِي وَسْطِهِمْ وَمَضَى" (لوقا ٤: ٢٨-٣٠).

أعودُ فأكررُ، لم يكنْ ليسوعَ قواتُ أمنٍ بشريةٍ تحميهِ، غيرَ أنهُ كانَ هناك شيءٌ جعلَهُ قويًا لا يقاوَمُ ولا يمكنُ إيقافُهُ عنْ تتميمِ مشيئةِ اللهِ. ولم يكنْ في قدرةِ أحدٍ أنْ يُمسِكَ بهِ أو يمَسَّهُ بسوءٍ. لماذا؟ لأنهُ كرَّسَ حياتَهُ لفعلِ مشيئةِ اللهِ. وحتى تتحقَّقَ إرادةُ اللهِ في حياتِهِ، لم يكنْ منَ الممكنِ مقاومةُ يسوعَ.

لنقارنْ بينَ الحادثةِ المذكورةِ أعلاه التي حدَثَتْ في الناصرةِ والمشهدِ الذي في بستانِ جثسيماني عندما حانَ الوقتُ لاقتيادِ يسوعَ إلى الصليبِ. وعندما أتى الجنودُ الرومانُ للقبضِ عليهِ، قالَ لهمْ يسوعُ:

"قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ! هُوَذَا ابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى أَيْدِي الْخُطَاةِ" (مرقس ١٤: ٤١).

ولـم يكـنِ للقبـضِ على يسـوعَ وتسـليمِهُ للجنـودِ أنْ يحدُثـا قبـلَ السـاعةِ الـتي عيَّنَهَـا اللهُ الآبُ. فحـتى تلـكَ اللحظـةِ، كانَ يسـوعُ بـكلِّ تأكيـدٍ في مـلءِ قوتِـهِ ولا يمكـنُ مقاومتُـهُ.

على قَدرِ تكريسِكَ تكونُ قوَّتُكَ

يجـبُ أنْ نتبـعَ النمـوذجَ الذي وضعَـهُ يسـوعُ في هذا الصـددِ. فعلى قـدرِ تكريسِـنا الكامـلِ واتِّحادِنـا بـإرادةِ اللهِ تكـونُ قوتُنـا ونصرتُنـا. وإذا كانَ دافعُنـا هـو عمـلَ مشـيئةِ اللهِ، فنحـنُ إذَن ثابتُـونَ. ولا يغلِبُنـا شيءٌ في هـذا العالـمِ مثلمـا لا يغلـبُ أيُّ شيءٍ مشـيئةَ اللهِ الآبِ ذاتِـه.

يجـبُ أن نفهـمَ أنَّ كلَّ واحـدٍ منـا يمكنُـهُ أنْ يكـرسَ نفسَـهُ لعمـلِ مشـيئةِ اللهِ كمـا كانَ يسـوعُ. إنَّ مزمـورَ ٤٠: ٧-٨ صـورةٌ نبويـةٌ عـنْ يسـوعَ اقتُبِسَـتْ في العبرانيـين ١٠: ٧. ومـع ذلـكَ ليـسَ بالـضرورةِ أن تكـونَ هـذه الصـورةُ تصويـرًا ليسـوعَ وحـدِهِ. فـإذا اتَّخَذْنـا القرارَ والتكريـسَ كمـا فعـلَ يسـوعُ، فيمكـنُ لهـذهِ الصـورةِ أنْ تكـونَ لـكلِّ واحـدٍ منَّـا أيضًـا.

"حِينَئِـذٍ قُلْـتُ: «هأَنَـذَا جِئْـتُ. بِـدَرْجِ الْكِتَـابِ مَكْتُـوبٌ عَنِّـي: أَنْ أَفْعَـلَ مَشِـيئَتَكَ يَـا إِلهِـي سُـرِرْتُ، وَشَـرِيعَتُكَ فِـي وَسَـطِ أَحْشَـائِي»" (مزمـور ٤٠: ٧-٨).

أوضـحَ كاتـبُ العبرانيـينَ أنَّ تلـكَ الكلمـاتِ تحقَّقـتْ في يسـوعَ (انظـر العبرانيـين ١٠: ٥-١٠)، في مزمـورِ ٤٠، كانَ يسـوعُ يقـولُ بـروحِ

النبـوةِ: "هأَنَـذَا جِئْـتُ. بِـدَرْجِ الْكِتَـابِ مَكْتُـوبٌ عَـنِّي" درجُ الكتـابِ هـو السـجلُّ النبـويُّ للكتـابِ المقـدسِ الذي يُعلِـنُ مشـيئةَ اللهِ في مسـارِ حيـاةِ يسـوعَ. وكانَ عمـلُ يسـوعَ ومسـارُ حياتِـه ومـا عيَّنَـهُ اللهُ لهُ ليفعلَـهُ مُقـرَّرًا ومُحـدَّدًا ومُعَـدًّا مـنْ قَبـل، فـكانَ هـدفُ يسـوعَ أنْ يحقِّـقَ مـا قـد كُتِـبَ عنـهُ.

بمعـنى آخـرَ، يشـبهُ هـذا الأمـرُ ممثـلًا في مسرحيـةٍ له دورٌ مكتوبٌ له في السـيناريو ومسـؤوليَّتُه أنْ يلعـبَ هـذا الدورَ. إنـهُ لا يحتـاجُ ابتـداعَ جُمـلٍ إضافيـةٍ أو الارتجـالَ. ووجـودُهُ على المـسرحِ ليـسَ إلا للتعبـيرِ عمَّـا كتبَـهُ الكاتـبُ المـسرحيُّ لهُ مـنْ دورٍ يقـومُ بـهِ. فكلَّمـا أدارَ الممثـلُ دورَهُ بشـكلٍ مثـاليٍّ صـارَ ممثـلًا أفضـلَ.

هـذهِ صـورةٌ تجسِّـدُ معـنى عمـلِ مشـيئةِ اللهِ. السـيناريو بالفعـلِ مكتـوبٌ لنـا، لكـن يجـبُ علَيْنَـا أنْ نكتَشِـفَهُ. كتـبَ بولـسُ: "لأَنَّنَا نَحْـنُ عَمَلُـهُ، مَخْلُوقِـينَ فِي الْمَسِيحِ يَسُـوعَ لأَعْمَال صَالِحَـةٍ، قَـدْ سَـبَقَ اللهُ فَأَعَدَّهَـا لِـكَيْ نَسْـلُكَ فِيهَـا" (أفسـس ٢: ١٠). هـذهِ الآيـةُ تعـبِّرُ عـنْ مشـيئةِ اللهِ لنَـا؛ فـإرادةُ اللهِ قـد سَـبَقَ وأعدَّهـا لنا، لا لكي نرتجـلَ بينما نسـلكُ في حياتِنا.

الدورُ المكتوبُ والمُصمَّم لحياتِكَ

أريـدُكَ أن تفهَمَـنِي، يوجـدُ دورٌ قـدْ تَعـيَّنَ لـكَ لتؤدِّيَـهُ في حياتِـكَ وقـد كُتِـبَ في درجِ الكتـابِ الأبـديِّ للهِ. ومثلمـا فعـلَ يسـوعُ يجبُ أنْ

تتجاوبَ مع هذا بالاعترافِ: "يا ربُّ هأنَذَا، آتي إليكَ وأكرسُ نفسي لكَ. وكلُّ هدفي في الحياةِ أنْ أتمِّمَ الدورَ المكتوبَ عني في درجِ كتابِكَ."

عندما تعيشُ حياتَكَ مسلَّحًا بتلك النيةِ، فلا يمكنُ لأحدٍ أنْ يقهرَكَ أو يغلبَكَ كما كانَ يسوعُ ذاتُه. لم يكنْ لأحدٍ أنْ يمسَّهُ بسوءٍ أو يُثنيهِ عنِ الوصولِ لهدفِهِ طالما لمْ يخرجْ عنِ الدورِ الذي كانَ قد صُمِّمَ لهُ في سيناريو اللهِ.

إنهُ أمرٌ غايةٌ في الأهميةِ أنْ تُدرِكَ هذا الحقَّ! فأنتَ خليقةُ اللهِ الجديدةُ في المسيحِ يسوعَ، وقد اختارَكَ لأمورٍ محدَّدةٍ وغاليةٍ لكي تتمِّمَ خطتَهُ في جيلِكَ. لا يمكِنُكَ أنْ تصلَ للأمانِ الكاملِ إلا بتكريسِ نفسِكَ للهِ، والبحثِ عنِ الدورِ الذي سبقَ فعيَّنَهُ اللهُ لكَ، ثمَّ العملِ على تنفيذِ هذا الدورِ.

فهلْ تودُّ أنْ تتجاوبَ مع هذهِ الفرصةِ الآنَ لكي تصلَ إلى الأمانِ الكاملِ؟ من خلالِ كلماتِ صلاةٍ بسيطةٍ مثل التي تأمَّلْنا فيها سابقًا يمكنُكَ فعلُ ذلكَ؟ إليكَ ما يمكِنُكَ الاعترافُ بهِ استجابةً منكَ للنموذجِ الذي وضعَهُ يسوعُ لنا لكي نتبعَ خطواتِهِ.

«يا ربّ هأنَذَا، آتي إليكَ وأكرسُ نفسي لكَ. وكلّ هدفي في الحياةِ أنْ أتمّمَ الدورَ المكتوبَ عني في درجِ كتابِكَ. آمينْ.»

الفصل الرابع والعشرون
كيف تتحلَّى "بقوةٍ لا تُقهَر"

دعونا نواصل استكشافَ طبيعةِ الأمانِ الذي يأتي منْ تحقيقِ إرادةِ اللهِ في حياتِنا. أريدُ أنْ أوضِّحَ المبدأَ ذاتَهُ "عدمُ قابليَّةِ مقاومتِكَ" مستخدمًا إحدى الرواياتِ من حياةِ يشوعَ، وهو أحدُ خدَّامِ اللهِ في العهدِ القديمِ. عندما نتأملُ حياةَ يشوعَ، أرجو أنْ تستوعبَ حقيقةَ "صعوبةِ مقاومتِكَ" كذلكَ بذاتِ القدرِ أنْ تستوعبَ تطبيقَ المبادئِ الموضَّحةِ في هذا الفصلِ إذا كانت لديك الرغبةُ.

التكليفُ للخدمةِ

قضى يشوعُ أربعينَ سنةً في البريةِ يخدم موسَى، ويجري إعدادُهُ ليصبحَ قائدًا. عندما ماتَ موسى تولَّى يشوعُ قيادةَ شعبِ إسرائيلَ خلفًا لموسى مُعيَّنًا منَ اللهِ. هذه هي الكلماتُ التي أمرَ اللهُ بها يشوعَ وكلَّفَهُ بأنْ يعمَلَهَا:

"مُوسَى عَبْدِي قَدْ مَاتَ. فَالآنَ قُمِ اعْبُرْ هذَا الأُرْدُنَّ أَنْتَ وَكُلُّ هذَا الشَّعْبِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَنَا مُعْطِيهَا لَهُمْ أَيْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. كُلَّ مَوْضِعٍ تَدُوسُهُ

بُطُونُ أَقْدَامِكُمْ لَكُمْ أَعْطَيْتُهُ، كَمَا كَلَّمْتُ مُوسَى. مِنَ الْبَرِّيَّةِ وَلُبْنَانَ هذَا إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ نَهْرِ الْفُرَاتِ، جَمِيعِ أَرْضِ الْحِثِّيِّينَ، وَإِلَى الْبَحْرِ الْكَبِيرِ نَحْوَ مَغْرِبِ الشَّمْسِ يَكُونُ تُخْمُكُمْ. **لاَ يَقِفُ إِنْسَانٌ فِي وَجْهِكَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ.** كَمَا كُنْتُ مَعَ مُوسَى أَكُونُ مَعَكَ. لاَ أُهْمِلُكَ وَلاَ أَتْرُكُكَ. تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ، لأَنَّكَ أَنْتَ تَقْسِمُ لِهذَا الشَّعْبِ الأَرْضَ الَّتِي حَلَفْتُ لآبَائِهِمْ أَنْ أُعْطِيَهُمْ. إِنَّمَا كُنْ مُتَشَدِّدًا، وَتَشَجَّعْ جِدًّا لِكَيْ تَتَحَفَّظَ لِلْعَمَلِ حَسَبَ كُلِّ الشَّرِيعَةِ الَّتِي أَمَرَكَ بِهَا مُوسَى عَبْدِي. لاَ تَمِلْ عَنْهَا يَمِينًا وَلاَ شِمَالًا **لِكَيْ تُفْلِحَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ.** لاَ يَبْرَحْ سِفْرُ هذِهِ الشَّرِيعَةِ مِنْ فَمِكَ، بَلْ تَلْهَجُ فِيهِ نَهَارًا وَلَيْلًا، لِكَيْ تَتَحَفَّظَ لِلْعَمَلِ حَسَبَ كُلِّ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهِ. لأَنَّكَ حِينَئِذٍ تُصْلِحُ طَرِيقَكَ وَحِينَئِذٍ تُفْلِحُ. أَمَا أَمَرْتُكَ؟ تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ! لاَ تَرْهَبْ وَلاَ تَرْتَعِبْ لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ مَعَكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ" (يشوع ١: ٢-٩).

تلك كانت إرساليةَ يشوعَ التي أعطاها له الربُّ شخصيًا.

ملامحُ التكليفِ (الإرسالية)

هذا التكليفُ يتَّسِمُ ببعضِ الملامحِ البارزةِ التي لها صلَةٌ وثيقةٌ بحياتِنَا اليومَ. أُولَى هذهِ الملامحِ هي التكليفُ الإلهيُّ ليشوعَ: "أَنْتَ تَقْسِمُ لِهذَا الشَّعْبِ الأَرْضَ الَّتِي حَلَفْتُ لآبَائِهِمْ أَنْ أُعْطِيَهُمْ" (يشوع ١: ٦). ورأينا في الفصلِ السابقِ أنهُ يوجدُ في درجِ كتابِ اللهِ تكليفٌ لكلِّ واحدٍ منَّا، هذا التكليفُ هو دورٌ نؤديهِ ضمنَ خطةِ اللهِ الأبديةِ. فكانَ دورُ يشوعَ أنْ يقودَ شعبَ إسرائيلَ للدخولِ إلى أرضِ

الموعـدِ. لذلـك يجـبُ علينـا نحـنُ أيضًـا أنْ نبـدأَ مـن حيـثُ هـذهِ الحقيقـةِ: أنّ لدينـا تكليفًـا هـو أسـاسُ أمانِنَـا.

ثانيًـا، نلاحـظُ أنَّ يشـوعَ كان يمتـازُ بـأنَّ لديـه مصـدرًا للقـوةِ يعتمـدُ على كلمـةِ اللهِ. "لاَ يَبْرَحْ سِفْرُ هـذِهِ الشَّرِيعَـةِ مِـنْ فَمِكَ، بَـلْ تَلْهَـجُ فِيـهِ نَهَـارًا وَلَيْـلًا، لِـكَيْ تَتَحَفَّـظَ لِلْعَمَـلِ حَسَـبَ كُلِّ مَـا هُـوَ مَكْتُـوبٌ فِيـهِ" (يشـوع ١: ٨).

وكثيرًا ما فُسِّرَتْ هذهِ الآيةُ على النحوِ التالي:

"فكِّـرْ بالشريعـةِ، وتكلَّـمْ بهـا، وتـصرَّفْ على أساسِـها". وكلمـةُ اللهِ متاحـةٌ لنـا، والمبـادئُ ذاتُهـا تـسري علينـا تمامًـا كمـا سَرَتْ على يشـوعَ. يجـبُ أنْ نفكـرَ في كلمـةِ اللهِ باللهـجِ فيهـا، ثـمَّ يجـبُ أن نتكلـمَ بهـا؛ إذ يجـبُ أنْ تمتلـئَ أفواهُنـا بقـوةِ كلمـةِ اللهِ. وأخـيرًا، يجـبُ أنْ نتـصرفَ وفقًـا لكلمـةِ اللهِ. فيجـبُ علينـا أنْ نفعـلَ مـا تأمرُنـا بـهِ الكلمـةُ المكتوبـةُ ونطيعَهـا. هـذهِ هي المتطلَّبَـاتُ الأساسـيةُ.

ثالثًـا، على أسـاسِ هـذا التكليـفِ الذي يعتمـدُ في الأسـاسِ على كلمـةِ اللهِ، أخـبرَ اللهُ يشـوعَ مـرةً ثانيـةً قائـلًا لهُ: "تَشَـدَّدْ وَتَشَـجَّعْ" (يشـوع ١: ٩). لاحـظْ أنـهُ في الآيـاتِ ٦ و٧ و٩، نصـحَ الـربُّ يشـوعَ النصيحـةَ ذاتَهـا ثـلاثَ مـراتٍ كاملـةً.

إنـه لأمـرٌ مشـجعٌ ورائـعٌ عندمـا يدعونـا اللهُ أنْ نتشـدَّدَ ونتشـجَّعَ. ربمـا نفـرحُ قائلـينَ: "إنَّ اللهَ قـد دعاني لأكـونَ قويًـا

وشـجاعًا!" لكـن على الجانـبِ الآخـرِ دَعْـني أخـبرُكَ شـيئًا: لطالمـا يدعونـا اللهُ لنكـونَ أقويـاءَ وشـجعانًا لسـببٍ منطـقيٍّ! فمـا هـو إذَنْ ذلـكَ السـببُ؟ لأننـا سـنخوضُ أحـدَ المواقـفِ الـتي سـنحتاجُ فيهـا أنْ نتحـلَّى بالقـوةِ والشـجاعةِ. لذلـك مثلمـا هـوَ أمـرٌ مشـجِّعٌ فـفي ذاتِ الوقـتِ هـو نـوعٌ مـنَ التحذيـرِ لنـا. ومثلمـا احتـاجَ يشـوعُ للقـوةِ والشـجاعةِ لتتميـمِ المهمـةِ الـتي أوكلَهَـا اللهُ لهُ، كذلـك نحـنُ أيضًـا لـكي نتمِّـمَ المهمـةَ الـتي أوكَلَهـا اللهُ لنـا يجـبُ أنْ نتحـلَّى بالقـوةِ والشـجاعةِ.

أخـيرًا، لاحـظْ مـن فضلِـكَ أنَّ اللهَ قـدْ وعـدَ يشـوعَ بـأنْ يكونَ معَـهُ في كلِّ مـكانٍ إن أطـاعَ صوتَـه. لقـد أكـدَ اللهُ على حضـورِهِ الشـخصيِّ مـع يشـوعَ كلَّ الطريـقِ. وعَـدَ فقـالَ لهُ: "كَمَا كُنْتُ مَعَ مُوسَى أَكُونُ مَعَكَ. لاَ أُهْمِلُكَ وَلاَ أَتْرُكُكَ" (يشوع ١: ٥). ثـم عادَ يقـول: "الـرَّبَّ إِلهَكَ مَعَـكَ حَيْثُمَـا تَذْهَـبْ" (يشـوع ١: ٩).

هـذا الوعـدُ لنـا أيضًـا. فـإنْ حقَّقْنـا مطالـبَ اللهِ، سـنجدُهُ يقولُ: "سـأكونُ معـكَ أينمـا تذهـبُ لـنْ أهمِلَـكَ ولـن أتـركَكَ." فـإذا ترسَّـخَ هـذا الأمـرُ في حياتِنَـا، سـيصعبُ مقاومتُنـا أو هزيمتُنـا. لقـد كانَ يشـوعُ قويًّـا ويصعـبُ مقاومتُـهُ كمـا نقـرأُ في يشـوعَ ١: ٥ إذ يقـولُ الـربُّ لهُ: "لاَ يَقِـفُ إِنْسَـانٌ فِي وَجْهِـكَ كُلَّ أَيَّـامِ حَيَاتِـكَ."

إليـكَ هـذا الـشرطُ المهـمُّ: لـنْ يصـحَّ مـا ذكرنـاهُ سـابقًا إلا إذا

كنتَ تسيرُ في تتميمِ مشيئةِ اللهِ. فإذا كنتَ تسيرُ في مشيئةِ اللهِ، فإنَّ أيَّ شيءٍ أو شخصٍ قدْ يقاومُك هو في حقيقةِ الأمرِ يقاومُ اللهَ ذاتَه. وإذا خرجتَ عن إطارِ مشيئةِ اللهِ ستخسرُ هذه القوةَ التي لا يمكنُ مقاومتُها. إلا أنهُ إذا كنتَ تسيرُ في مشيئتِهِ متمِّمًا للمهمةِ التي أوكَلَهَا اللهُ لكَ متأملًا في كلمةِ اللهِ ومتكلمًا بها وتتصرفُ استنادًا إليها وتسلكُ في حياتِكَ بكلِّ طاعةٍ وتكريسٍ للهِ، حينها سيصيرُ لكَ هذا الوعدُ منَ اللهِ كما صارَ ليشوعَ: "لاَ يَقِفُ إِنْسَانٌ فِي وَجْهِكَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ".

نموذجٌ يجسِّدُ الأسسَ والمبادئَ

لنستعرضْ -مرةً أخرى- التكليفَ الذي على حياةِ يشوعَ كنموذجٍ لنا حتَّى نتأكَّدَ منْ تطبيقِ المبادئِ ذاتِها، التي وضَعَهَا الربُّ ليشوعَ، في حياتِنا نحنُ أيضًا. دَعني أشيرُ إلى ثلاثةِ متطلَّباتٍ يجبُ أنْ نضَعَهَا في اعتبارِنا، وجميعُها تتضحُ بصورةٍ جليةٍ في التجربةِ التي اختبرَها يشوعُ.

أولًا، يجبُ أنْ نبنيَ حياتَنا على كلمةِ اللهِ. هكذَا أَمَرَ الربُّ يشوعَ: "لاَ يَبْرَحْ سِفْرُ هذِهِ الشَّرِيعَةِ مِنْ فَمِكَ، بَلْ تَلْهَجُ فِيهِ نَهَارًا وَلَيْلًا، لِكَيْ تَتَحَفَّظَ لِلْعَمَلِ حَسَبَ كُلِّ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهِ" (يشوع ١: ٨). مرةً ثانيةً، وباختصارٍ، يجبُ أنْ نتأملَ في كلمةِ اللهِ، ونتكلمَ بها، ونتصرفَ وفقًا لها.

ثانيًا، يجبُ أنْ نتحلَّى بالقوةِ والشجاعةِ. لقد دبَّرَ اللهُ لنا أنْ نكونَ أقوياءَ وشجعانًا. هذا التدبيرُ هو تدبيرُ الروحِ القدسِ. قالَ بولسُ لتلميذِهِ تيموثاوسَ: "لأَنَّ اللهَ لَمْ يُعْطِنَا رُوحَ الْفَشَلِ، بَلْ رُوحَ الْقُوَّةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالنُّصْحِ." (٢تيموثاوس ١: ٧). إذا سلكْنا سرنَا بقوةِ الروحِ القدسِ، وممتلئينَ بهِ فهوَ يطرحُ الخوفَ إلى خارج لأنَّه ليسَ لهُ فينا مكانٌ. وكما سبقَ فرأيْنا في الفصلِ ١٨، فإنَّ الروحَ القدسَ هو "رُوحَ الْقُوَّةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالنُّصْحِ."

ثالثًا، يجبُ أنْ نتقدمَ لا أنْ نتراجعَ. يجبُ أنْ نمضيَ إلى الأمامِ لا أنْ نرجعَ للوراءِ. يجبُ ألا نتعثرَ بالتركيزِ على حمايةِ أنفسِنا والحفاظِ عليها. لكنْ أنْ نتحرَّكَ للأمامِ في مشيئةِ اللهِ.

أمانُنا في سلطانُ يسوعَ

فيما يلي التكليفُ (الإرساليةُ) التي أعطاها يسوعُ لتلاميذِهِ:

"دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ، فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ. وَعَلِّمُوهُمْ أَنْ يَحْفَظُوا جَمِيعَ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ. وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ. آمِينَ".

الحقيقةُ القائلةُ بأنَّ "كُلَّ سُلْطَانٍ" قد أعطيَ ليسوعَ بصفتِهِ ملكَ الملوكِ وربَّ الأربابِ لم تكنْ مجردَ تأسيسٍ لإرساليتِهِ،

بـل أيضًـا مصـدرًا لأمـانِ التلاميـذِ. إنَّ هـذا الوعـدَ ذاتَـهُ على وجـهِ التحديـدِ قـد أُعطِـيَ لـكَ ولي إنْ كنَّـا نسـلكُ في طاعـةِ المسـيحِ وإرسـاليتِه لنـا مثبِّتـينَ وجوهَنـا على عمـلِ مشـيئةِ اللهِ. عندمـا نفعـلُ ذلـكَ، لـنْ نتعـثَّرَ مركِّزيـنَ على حمايـةِ ذواتِنـا أو الحفـاظِ عليهَـا. ولـنْ نخـشى مـنَ الخـوفِ أو التراجُـعِ.

كانـتْ إرسـاليةُ يشـوعَ قيـادةَ شـعبِ إسرائيـلَ إلى دخـولِ أرضِ الموعـدِ، في حـينِ أن إرسـاليَّتَنا هي أنْ نكـرزَ بإنجيـلِ ملكـوتِ اللهِ في جميـعِ دولِ العالـمِ. ومـا يسـندُنا ويدعمُنـا هـو سـلطانُ يسـوعَ المسـيحِ ذاتِـهِ، إذْ إنَّـهُ مِـن عرشِـه السـماويِّ يظلِّلُنـا ويحمينـا ويعولُنـا. هـو قـدْ وعـدَ بأنـهُ إنْ أَطَعْنَـا إرسـاليَّتَهُ وتكليفَـهُ لنـا سيسـيرُ معَنـا ويقوِّينـا فتصعـبُ مقاومتُنـا.

الفصل الخامس والعشرون

الأمانُ في الشدائدِ والمِحَنِ

سنستكشفُ في هذا الفصلِ الأخيرِ المبدأَ القائلَ بأنْ تكونَ شخصًا "يصعبُ مقاومتُكَ". هذا النمطُ توضِّحُهُ حياةُ الرسولِ بولسَ وخدمتُهُ كخادمٍ عظيمٍ للهِ في العهدِ الجديدِ. سنلاحظُ مدَى صمودِهِ في وجهِ الشدائدِ التي تعرَّضَ لها. وسنتأملُ فيما اختبرَهُ بولسُ في نهايةِ حياتِهِ في وقتٍ كانَ فيه كلُّ شيءٍ كأنهُ يسيرُ في المسارِ الخاطئِ؛ فهناكَ مَنْ هَجَرَهُ ومَن عَارَضَهُ وحاولَ أنْ يعوقَ خدمتَهُ، بل افتقرَ إلى أشياءَ كانتْ غاليةً بالنسبةِ لهُ.

بدونِ أنْ أبدوَ متشائمًا، أودُّ أنْ أخبرَكَ بأنكَ عاجلًا أم أجلًا ستختبرُ بعضَ الشدائدِ أو المِحَنِ. ربما ليستْ بالضبطِ كتلكَ التي تعرَّضَ لها بولسُ. لكنْ في وقتٍ أو آخرَ ستواجِهُ بعضَ التجاربِ. وعندما تأتي الشدائدُ، يجبُ أنْ تكونَ على يقينٍ منْ أنَّ لديكَ نوعَ الأمانِ الذي لا يهربُ منكَ وسطَ مشاكِلِكَ، ويساعدُكَ على تخطِّي الظروفِ الصعبةِ والقاسيةِ.

شدائد بولس

دعونا نلقي نظرةً على صورةِ بولسَ الموجودةِ في رسالتِهِ الثانيةِ إلى تلميذِهِ تيموثاوسَ. منْ وجهةِ نظرٍ بشريةٍ، يبدو أنهُ في هذهِ المرحلةِ من حياةِ الرسولِ، كانَ كُلُّ شيءٍ يعملُ ضدَّهُ. كانَ في سجنٍ رومانيٍّ في انتظارِ المحاكمةِ على يدِ أحدِ أكثرِ الحكامِ شرًّا وفسادًا في تاريخِ البشريةِ، وهو الإمبراطور نيرون. كان بولسُ على يقينٍ منْ أنهُ سيُحكَمُ عليهِ بالإعدامِ. لقد كانَ رجلاً مسنًّا في ذلكَ الوقتِ، وربما خارتْ قواهُ الجسديةُ. كان الجوُّ باردًا في السجنِ، ولم يكنْ يرتدي ملابسَ كافيةً. كُلُّ ما يمكنُ أنْ تتخيَّلَهُ ليكونَ ضدَّ شخصٍ ما كانَ ضدَّ بولسَ. وبخلافِ هذهِ المِحَنِ، تُرِكَ بولسُ وحدَهُ دونَ رفقاءِ الخدمةِ مَنْ يعملونَ معَهُ. وهذا ما كتبَهُ من قلبِ السجنِ لتيموثاوسَ:

"بَادِرْ أَنْ تَجِيءَ إِلَيَّ سَرِيعًا، لأَنَّ دِيمَاسَ قَدْ تَرَكَنِي إِذْ أَحَبَّ الْعَالَمَ الْحَاضِرَ وَذَهَبَ إِلَى تَسَالُونِيكِي، وَكِرِيسْكِيسَ إِلَى غَلاَطِيَّةَ، وَتِيطُسَ إِلَى دَلْمَاطِيَّةَ. لُوقَا وَحْدَهُ مَعِي... أَرَاسْتُسُ بَقِيَ فِي كُورِنْثُوسَ. وَأَمَّا تْرُوفِيمُسُ فَتَرَكْتُهُ فِي مِيلِيتُسَ مَرِيضًا" (٢تيموثاوس ٤: ٩-١١، ٢٠).

بولس المتروكُ والمنبوذُ

ذكرَ بولسُ في رسالتِهِ أنَّ دِيمَاسَ، أحدَ أقربِ أصدقاءِ بولسَ

وشركائِـهِ الموثـوقِ بهـمْ، قـد تراجـعَ عـن تكريسِـهِ وتعهُّـدِه ليـسَ تجـاهَ بولـسَ، ولكـنْ أيضًـا تجـاهَ المسـيحِ. ثـم ذكـرَ بولـسُ أسـماءَ الآخريـنَ الذيـنَ لـم يبقـوا معَـهُ لتشـجيعِهِ مثـلَ كِريسْـكِيس وَتِيطُس وأَرَاسْـتُس. وأخـيرًا كتـبَ أنـهُ كانَ عليـهِ أنْ يـترُكَ تُرُوفِيمُـس فِي مِيلِيتُـس مَرِيضًـا، وهـو مـا يضيـفُ إلى معاناتِـهِ خيبـةَ أمـلٍ مريـرةً. على مـا يبـدو أنَّ الرسـولَ العظيـمَ بولـسَ لـم يسـتَجِبِ اللهُ حـتى لصلواتِـهِ مـن أجـلِ تُرُوفِيمُـس فانتـهَى بـهِ الأمـرُ لـترْكِ رفيـقِ خدمتِهِ في رعايـةِ آخريـنَ.

بالإضافـةِ إلى ذلـكَ، تعـرضَ بولـسُ لـلأذى على يـدِ أعدائِـهِ. يبدو أنـهُ لـم يكـنْ لديـهِ أيُّ مـرارةٍ تجاهَهُـم. مـع ذلـكَ كانـتِ التجربـةُ الـتي خاضَهَـا واقعًـا ملموسًـا بالنسـبةِ لهُ فكتَـبَ يقـولُ:

"إِسْـكَنْدَرُ النَّحَّـاسُ أَظْهَـرَ لِـي شُـرُورًا كَثِيـرَةً. لِيُجَـازِهِ الـرَّبُّ حَسَـبَ أَعْمَالِـهِ. فَاحْتَفِـظْ مِنْـهُ أَنْـتَ أَيْضًـا، لأَنَّهُ قَـاوَمَ أَقْوَالَنَـا جِدًّا. فِـي احْتِجَاجِي الأَوَّلِ لَـمْ يَحْضُرْ أَحَـدٌ مَعِـي، بَـلِ الْجَمِيـعُ تَرَكُونِـي. لاَ يُحْسَـبْ عَلَيْهِـمْ" (٢تيموثـاوس ٤: ١٤-١٦).

يحسـنُ بنـا أنْ نلاحـظَ مـرةً أخـرى أنَّ هـذا المقطـعَ لا يحتـوي على حقـدٍ أو مـرارةٍ تجـاهَ أعدائِـهِ؛ على العكـسِ، تـركَ بولـسُ الموقـفَ بـينَ يـدي الـربِّ. وبخـلافِ معارضـةِ أعدائِـهِ لهُ، قـالَ عـنْ رُفقائِـهِ: "الْجَمِيـعُ تَرَكُـونِي."

مواجهةُ أتعابِ الجسدِ والمشقَّاتِ

بالإضافةِ لذلكَ، وكما كتبتُ سابقًا، لم تتوفَّرْ لبولسَ الملابسُ واللوازمُ الكافيةُ. فكتبَ لتيموثاوسَ:

"اَلرِّدَاءَ الَّذِي تَرَكْتُهُ فِي تَرُوَاسَ عِنْدَ كَارْبُسَ، أَحْضِرْهُ مَتَى جِئْتَ، وَالْكُتُبَ أَيْضًا وَلاَ سِيَّمَا الرُّقُوقَ" (٢تيموثاوس ٤: ١٣).

عندما قرأتُ الكلماتِ: "اَلرِّدَاءَ الَّذِي تَرَكْتُهُ... أَحْضِرْهُ مَتَى جِئْتَ". يمكِنُني تخيلُ بولسَ وهو في تلكَ الزنزانةِ الحجريةِ مع اقترابِ حلولِ الشتاءِ ولا توجدُ ملابسُ ثقيلةٌ في متناولِ يدِهِ. لقد كانَ إنسانًا مثلَنا وكانَ عرضةً لأتعابِ الجسدِ. وقتَ البردِ هوَ من أصعبِ الظروفِ الجويةِ بالنسبةِ لي شخصيًّا. عندما قرأتُ في ٢كورنثوس ١١: ٢٧ أنَّ بولسَ يعاني من البردِ والعري، شعرتُ بارتجافٍ في داخلي. لكنَّ بولسَ كانَ هناكَ في تلكَ الزنزانةِ دونَ ملابسَ كافيةٍ أو توفيرِ المؤنِ اللازمةِ لمواجهةِ البردِ مع اقترابِ فصلِ الشتاءِ.

لماذا أرادَ بولسُ "الْكُتُبَ وَلاَ سِيَّمَا الرُّقُوقَ"؟ أعتقدُ أنهُ أرادَ كتابةَ رسائلَ، ولم يكنْ لديهِ الموادُ اللازمةُ للكتابةِ. ولا أعتقدُ بأنهُ كانَ ينوي كتابةَ رسائلَ يشكو فيها الحالةَ المزريةَ التي كان علَيْها. وبدلًا من التركيزِ على نفسِه، أعتقدُ أنهُ كانَ مهتمًّا بكنائسِ

المؤمنينَ المسيحيينَ والتلاميذِ الذينَ عرَفَهُم في أجزاءٍ مختلفةٍ منَ العالمِ القديمِ. فكانَ شوقُ قلبِهِ أن يكتبَ لتعزيتِهِم وتشجيعِهِم.

إنهاء مسيرته

إذنْ، ما سبقَ هو صورةٌ لبولسَ في نهايةِ حياتِهِ في حالةِ مِحنَةٍ شديدةٍ. فما هو موقفُ بولسَ في وسطِ هذا الظرفِ؟ لقد أعلنَ موقفَهُ بنفسِهِ:

"فَإِنِّي أَنَا الآنَ أُسْكَبُ سَكِيبًا، وَوَقْتُ انْحِلاَلِي قَدْ حَضَرَ. قَدْ جَاهَدْتُ الْجِهَادَ الْحَسَنَ، أَكْمَلْتُ السَّعْيَ، حَفِظْتُ الإِيمَانَ" (٢تيموثاوس ٤: ٦-٧).

إننا بحاجةٍ إلى فهمِ الصورةِ التي استخدَمَها بولسُ هُنا. في العهدِ القديمِ، كان يقدَّم أيضًا سكيبٌ منَ الخمرِ مع كلِّ حيوانٍ يُقدَّمُ في الذبيحةِ. لم تكنِ الذبيحةُ كاملةً دونَ تقديمِ هذا السكيبِ من الخمرِ. كان بولسُ يقولُ: "قدَّمتُ للربِّ ذبيحةَ تعبِ خدمتي، والمؤمنينَ الذينَ تلمذتُهُم، والكنائسَ التي أسستُها- لكن لكي تكتملَ الذبيحةُ إلى التمامِ تُسكَبُ حياتي سكيبًا كقربانٍ".

لقدِ اكتشفتُ منْ تجربتي الشخصيةِ أنهُ إذا كنتَ ستحافظُ على إيمانِكَ، فعليكَ أنْ تقاتلَ في المعاركِ؛ فالإيمانُ معركةٌ تتطلبُ شجاعةً وتصميمًا وتكريسًا. وقال بولسُ رغمَ كلِّ الشدائدِ: "قَدْ جَاهَدْتُ الْجِهَادَ الْحَسَنَ؛ أي أتممْتُ كلَّ ما خُصِّصَ لي أنْ أعملَ".

ثـم تطلـعَ بولـسُ إلى الأمـامِ خـارجَ حـيزِ الزمـانِ الحـاضرِ إلى الأبديـةِ. كانَ الأمـرُ كمـا لـو أنَّ نافـذةً فُتِحَـتْ في تلـكَ الزنزانـةِ، ونظرَ وراءَ تلـكَ الجـدرانِ الحجريَّـةِ الرماديَّـةِ إلى مشـهدٍ كليِّ الاختـلافِ.

"وَأَخِيـرًا قَـدْ وُضِـعَ لِـي إِكْلِيـلُ الْبِـرِّ، الَّـذِي يَهَبُـهُ لِـي فِـي ذلِـكَ الْيَـوْمِ، الـرَّبُّ الدَّيَّـانُ الْعَـادِلُ، وَلَيْـسَ لِـي فَقَـطْ، بَـلْ لِجَمِيـعِ الَّذِيـنَ يُحِبُّـونَ ظُهُـورَهُ أَيْضًـا" (٢تيموثـاوس ٤: ٨).

هـذه الكلمـاتُ دائمًـا مـا تمـسُّ قلـبي؛ لأنَّ بولـسَ كانَ يعلـمُ أنَّـهُ سـيقفُ قريبًـا أمـامَ قـاضٍ أرضيٍّ ظالـمٍ سـيُصدرُ حكمًـا غـيرَ عادلٍ ضـدَّهُ، حكمًـا بالإعـدامِ. وفي ضـوءِ الأحـداثِ الـتي واجَهَهـا بولـسُ، أقـرَّ بولـسُ بهـذا: "ليـسَ هـذا هـو الحكـمَ النهـائيَّ هنـاك حكـمٌ آخـرُ ينتظـرُني. وفي الأبديـةِ، سـأقفُ أمـامَ قـاضٍ صالـحٍ بـكلِّ تأكيدٍ، وسـيمنَحُني المكافـأةَ الـتي أسـتحِقُّها نظـيرَ مـا قمـتُ بـهِ في خدمتِـهِ".

الطمأنينةُ والأمانُ

كان بولـسُ يتمتـعُ بطمأنينـةِ النفـسِ الهادئـةِ، ويعـرفُ أنَّ كلَّ شيءٍ تحـتَ سـلطانِ اللهِ. لذلـكَ لـمْ يكـنْ لديـهِ مـرارةٌ ولا نـدمٌ. فمـا هـو سرُّ موقـفِ بولـسَ واتجاهـاتِ قلبِـهِ؟ أعتقـدُ أنـهُ قبـلَ ذلـكَ بقليـلٍ في ٢تيموثـاوس تـمَّ ذكـرُ السـببِ بشـكلٍ جميـلٍ حيـثُ تحـدثَ بولـسُ عـن كلِّ مـا مـرَّ بـهِ.

"لكِنَّنِي لَسْتُ أَخْجَلُ، لأَنَّنِي عَالِمٌ بِمَنْ آمَنْتُ، وَمُوقِنٌ أَنَّهُ قَادِرٌ أَنْ يَحْفَظَ وَدِيعَتِي إِلَى ذلِكَ الْيَوْمِ" (٢تيموثاوس ١: ١٢).

هناك عبارتانِ رئيسيتَانِ في كلماتِ بولسَ هما سرُّ كلِّ الطمأنينةِ والأمانِ اللذينِ يتسلَّحُ بهما عندَ مواجهةِ الشدائدِ أيًّا كانَ نوعُها.

أولًا "لأَنَّنِي عَالِمٌ بِمَنْ آمَنْتُ." لاحظْ أنَّ بولسَ لم يَقُلْ [عالمٌ بما آمنتُ] فلم يكنْ أمانَهُ في عقيدةٍ ما، بل في شخصٍ هو شخصُ الربِّ يسوعَ المسيحِ. لا يكفيكَ أنْ تؤمنَ بعقيدةٍ. يجبُ أنْ تقودَكَ هذهِ العقيدةُ إلى شخصِ المخلِّصِ، إلى الربِّ يسوعَ. فهل تعلمُ بمَنْ تؤمنُ؟

العبارةُ الثانيةُ المفتاحيةُ هي "وَمُوقِنٌ أَنَّهُ قَادِرٌ أَنْ يَحْفَظَ وَدِيعَتِي إِلَى ذلِكَ الْيَوْمِ". هذا هو سرُّ الأمانِ الحقيقيِّ. وهو التكريسُ والتسليمُ الكاملُ للهِ ولمشيئتِهِ. فعندَما تكرسُ حياتَكَ لهُ وكلَّ ما لديكَ، كلَّ ما أنتَ عليهِ الآنَ، وكلَّ ما ستكونُ عليهِ لاحقًا في يدِ اللهِ، حينَها ستتأكدُ تمامًا منْ أنهُ قادرٌ على حمايةِ ما قد أوكلتُهُ إليهِ.

دعونا نُنهي هذا الكتابَ بهذا التكريسِ الذي رأيناه على أنه سرُّ الأمانِ الحقيقيِّ. فهل تصلِّي معي؟

«ربنا العزيز المبارك، أقدِّمُ لكَ الحمدَ والشكرَ لكونِكَ المصدرَ

الحقيقيّ الوحيدَ للأمانِ في هذا الزمانِ الحاضرِ وفي الأبديةِ. إني أقرّ وأعترفُ بهذهِ الحقيقةِ، لذلك أكرّسُ حياتي بالكاملِ لكَ الآنَ. كلّ ما لديّ، كلّ ما أنا عليهِ الآنَ، وكلّ ما سأكونُ عليهِ في المستقبلِ، أضَعُهُ بينَ يدَيْكَ. إني أعرفُ وأعلنُ أنكَ وحدَكَ قادرٌ أنْ تحرسَ كلّ ما أوكلَهُ إليكَ وتحفَظَهُ إلى ذلك اليومِ.»

«يا إلهي، إني أعترفُ ثانيةً بأنكَ وحدَكَ الأمانُ الكاملُ في هذه الحياةِ وفي الآخرةِ، وإني أسلّمُ نفسي تمامًا بينَ يديكَ الكريمتَيْنِ. آمينْ.»

نبذة عن حياة الكاتب

وُلد ديريك برنس في الهند لأبوين بريطانيَّين. درس اليونانية واللاتينية في إثنين من أشهر المعاهد التعليمية، جامعة إيتون وجامعة كمبريدج من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٩. حصل على الزمالة من جامعة King كمبريدج وتخصص في الفلسفة القديمة والحديثة. درس العبرية والآرامية أيضاً في كل من جامعة كمبريدج والجامعة العبرية في القدس. وبالإضافة إلى ذلك يتحدث ديريك عدداً من اللغات المعاصرة.

في أوائل سنين الحرب العالمية الثانية، بينما كان يخدم مع الجيش البريطاني كمشرف مستشفى، إختبر ديريك برنس لقاء مغير للحياة مع يسوع المسيح.

عن هذا اللقاء كتب ديريك برنس:

من هذا اللقاء خرجت بنتيجتين لم أقابل ما يجعلني أتغير من جهتهما:

الأولى هى أن يسوع المسيح حيّ.

والثانية هى أن الكتاب المقدس صادق، عملي وعصري.

هاتان النتيجتان غيرتا مسار حياتي جذرياً وبلا رجعة.

في نهاية الحرب العالمية الثانية، ظل ديريك برنس (حيث أرسله الجيش البريطاني) في القدس. وتزوج من زوجته الأولى ليديا، أصبح أباً بالتبني لثماني فتيات. شهدت العائلة معاً إعادة قيام دولة إسرائيل في ١٩٤٨. وبينما كان ديريك وليديا في كينيا يعملان كمعلمين، تبنيا إبنتهما التاسعة طفلة أفريقية. توفيت ليديا في عام ١٩٧٥. وفي عام ١٩٧٨ تزوج ديريك من روث بيكر لمدة ٢٠ سنة . سافرا معاً الى كل أنحاء العالم يعلمان الحق الكتابي المعلن ويشاركان الرؤية النبوية في أحداث العالم في ضوء الكتاب المقدس. توفيت روث في ديسمبر ١٩٩٨.

إتجاه ديريك المتجرد من الطائفية والتحيز فتح أبواباً لسماع تعاليمه عند أناس من خلفيات عرقية ودينية مختلفة، وهو معروف دولياً كأحد قادة تفسير الكتاب المعاصرين. يصل برنامجه الإذاعي اليومي، «مفاتيح الحياة الناجحة» إلى نصف العالم في ١٣ لغة تتضمن الصينية والروسية والعربية والأسبانية.

بعض الكتب الخمسين التي كتبها ديريك برنس قد تُرجمت إلى ٦٠ لغة مختلفة. منذ ١٩٨٩ يوجد تركيز على شرق أوربا ودول الإتحاد المستقلة (الكومنولث والمعروفة بالإتحاد السوفيتي سابقاً) ويوجد أكثر من مليون نسخة متداولة بلغات هذه

الدول. مدرسة الكتاب المقدس المسجلة على الفيديو لديريك برنس تشكل أساساً لعشرات من مدارس الكتاب الجديدة في هذا الجزء من العالم الذي لم يكن مخدوماً من قبل.

من خلال البرنامج الكرازي العالمي، وزعت خدمة ديريك برنس مئات الألوف من الكتب وأشرطة الكاسيت للرعاة والقادة في أكثر من ١٢٠ دولة للذين لم يكن لديهم وسيلة للحصول على مادة تعليمية للكتاب أو لم يكن لديهم المقدرة المادية لشرائها.

يوجد المركز الرئيسي الدولي لخدمة ديريك برنس في شارلوت بولاية شمال كارولينا، ويوجد فروع للخدمة في المملكة المتحدة و أستراليا وكندا وفرنسا وألمانيا وهولندا ونيوزيلاندا وسنغافورة وجنوب إفريقيا ويوجد موزعون في دول كثيرة أخرى.

إصدارات أخرى لديريك برنس بالعربية

كتب:

- أسس الإيمان
- يخرجون الشياطين
- الكفارة
- الإيمان الذي به نحيا
- الحرب في السماويات
- تلبسون قوة
- أزواج وآباء
- الدخول إلى محضر الله
- تشكيل التاريخ
- عهد الزواج
- مواجهة الأيام الأخيرة
- الشكر التسبيح العبادة
- العبور من اللعنة إلى البركة
- أسرار المحارب في الصلاة
- دراسات شخصية في الكتاب المقدس
- القوة الروحية المغيرة للحياة
- ما جمعه الله
- البركة أو اللعنة: أنت تختار
- لنحيا ملح ونور
- قوة اسمه
- مواهب الروح القدس
- إستقبل وعود الله
- لماذا تحدث أمور صعبة لشعب الله
- قدس للرب
- اكتشف قيمتك في قلب الله
- الكبرياء مقابل الاتضاع
- الأمان المطلق

كتيبات:

- المبادلة الإلهية العظمى
- الأبوة
- الدواء الإلهي
- شركاء مدى الحياة
- المصارعة الروحية
- الروح القدس فينا
- الرفض
- ومتى صمتم
- فكر الله نحو المال
- هل يحتاج لسانك إلى شفاء
- الخلاص الكامل
- المحبة المسرفة
- الصلاة من أجل الحكومة
- مشيئة الله لحياتك
- أقوى ثلاث كلمات
- من المرارة إلى الفرح
- ثق في نعمة الله
- رجاء يفوق الألم
- قوة العشاء الرباني (الأفخارستيا)

يمكنك استماع وقراءة هذا الكتاب

وكل كتب ديريك برنس الأخرى على موقع الخدمة

www.dpmarabic.com

GET IT ON Google Play

Available on the App Store

إذا لمسك الرب من خلال هذا الكتاب شاركنا باختبارك على:

info@dpm.name

+447477151750

Derek Prince MINISTRIES